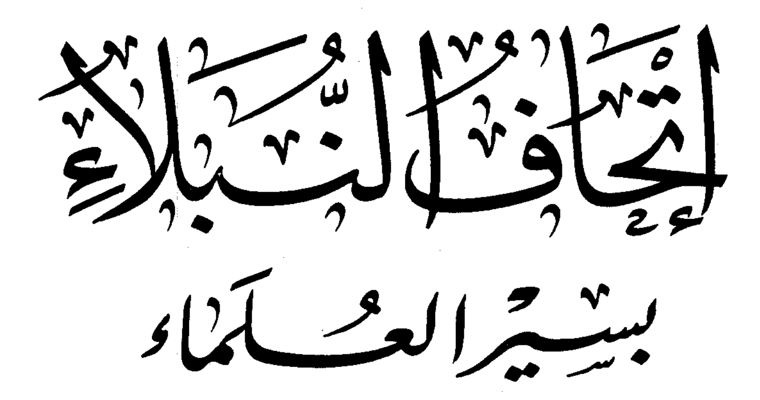


إعداد

راشد بن عثمان بن أحمد الزهراني

الجزء الثاني

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

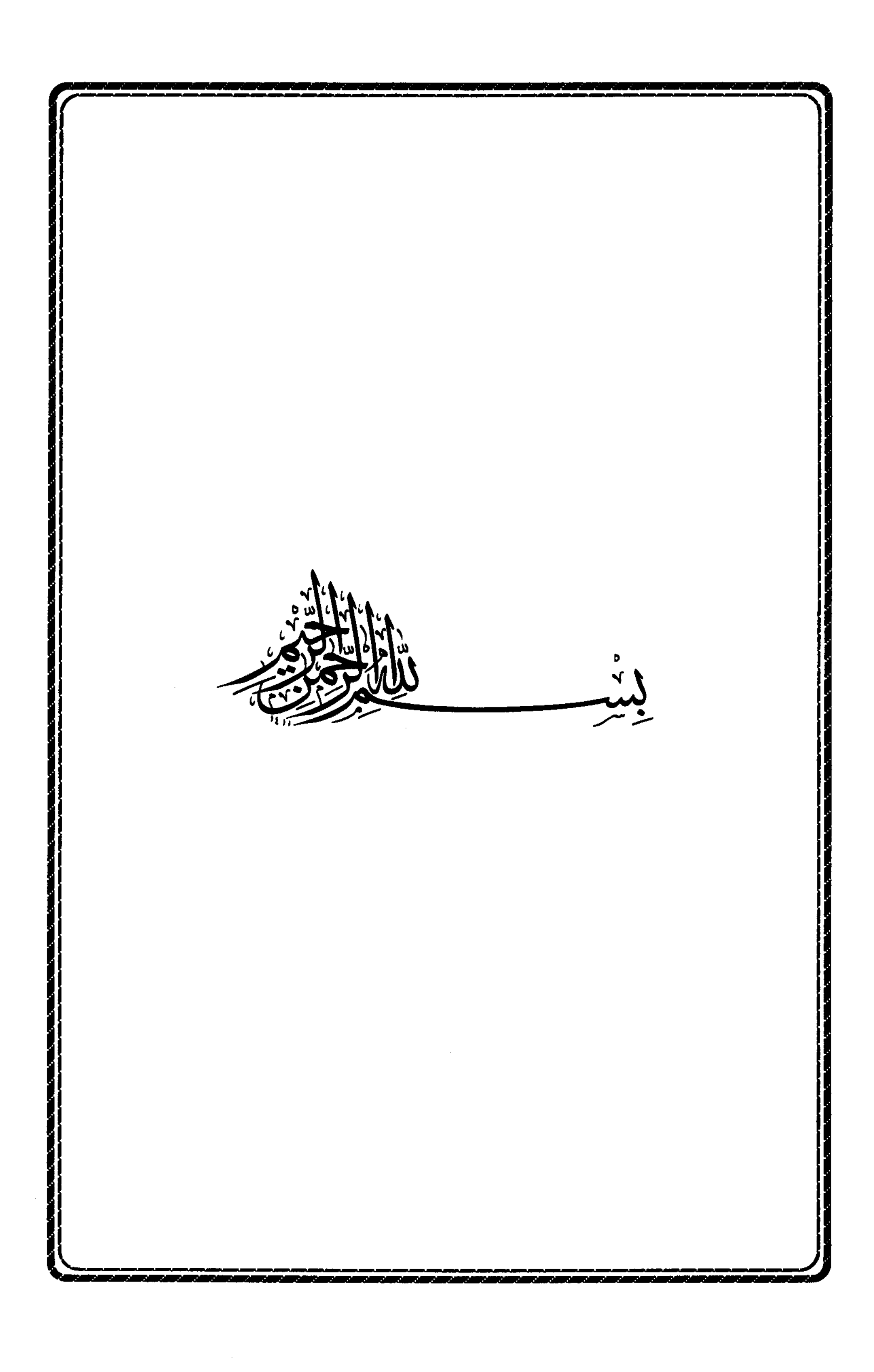
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩
الرياض - السويدي - شارع السويدي العام
ص.ب: ٤٩٦٧ - الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية

إتحاف النبلاء

بسير العلماء


بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدِّمَة

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعـون من ضل إلى الهـدى، ويصبـرون منهم على الأذى، يحييون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى؛ فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه؟ وكم من ضال تائه قد هدوه؟ فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم.

ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[1].

والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، الذي فتح الله برسالته قلوباً غلفاً وأعيناً عمياً وآذاناً صماً.

بعثه الله امتحاناً للعالمين، وحجة للسالكين، ودليلاً للعارفين، ورحمة لعباد الله أجمعين؛ فآمن به ذوو البصائر النيرة، والقلوب الطيبة، فأخـرجهم من الـظلمات إلى النور، وكفر به أصحاب القلوب الخبيثة

(١) مقـدمـة الإمـام أحمد لكتاب «الرد على الجهمية» (ص ٨٥ من ط ـ دار اللواء)، تحقيق د. عبد الرحمٰن عميرة.

والبصائر الميتة؛ فاستمروا في أوحال الشرك والمعصية.

فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين؛ فورث علمه العلماء المخلصون والدعاة الصادقون، فقاموا بدين الله معلمين ومتعلمين، فورثوا أعظم موروث ـ ميراث العلم والإيمان ـ؛ فرحم الله من سلف منهم ووفق من خلف.

وبعد:

فهٰذا الجزء الثاني من كتاب «إتحاف النبلاء بسير العلماء»، ويحتوي على ترجمة لحياة عَلَم من أعلامنا وعَالِم من علمائنا وداعية من دعاة الهدى والخير، وهو سماحة الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية النوبي ـ رحمه الله ـ.

وقد فقدت الأمة هٰذا العَلَم أحوج ما كانت إليه، ولٰكن لا نقول إلا ما يرضي ربنا؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

توفي ـ رحمه الله ـ بعد جهود طيبة بذلها خدمةً للإسلام والمسلمين.

ولم يكن يدور في خلدي أنني في يوم من الأيام سأكتب عن الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ؛ لأنني لم أُشرَّف باللقاء به، ولا بطلب العلم على يديه، وذٰلك لأن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان مغموراً؛ لأنه لم يكن محبّاً للشهرة وتجمع الناس حوله.

ولما كنت في أحد دروس معالي الشيخ العلاَّمة المحقق صالح بن عبد العزيز آل الشيخ تحدث ـ وفقه الله ـ عن العلماء ومكانتهم في الدين، ثم حثنا على الالتفاف حولهم والاستفادة من علمهم وأدبهم،

وبين لنا أن من الحرمان أن يستغني طالب العلم عنهم، وأن من العقوق عدم صلتهم.

ثم تحدث بعد ذٰلك عن الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ، وذكر بعض الأمثلة التي تدل على أنـه كان يحث الطلاب على السير خطوة خطوة في طلب العلم؛ فكان مما قال ـ رفع الله قدره ـ: أن الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ كان يُقَسِّم كتب ابن قدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ في الفقه إلى أربعة أقسام:ـ

ـ القسم الابتدائي: ألف لهم كتاب «عمدة الفقه».

ـ القسم المتوسط: ألف لهم كتاب «المقنع».

ـ القسم الثانوي: ألف لهم كتاب «الكافي».

ـ القسم الجامعي: ألف لهم كتاب «المغني».

فأعجبني هٰذا التقسيم، فأحببت بعـد ما تقـدم من كلام شيخنا السابق أن ألتقي بالشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ والأخذ عنه.

وفي صبيحة يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الأول من عام خمس عشرة وأربع مئة وألف من هجرة المصطفى ﷺ عزمت على الذهاب إلى الشيخ عبد الرزاق بعد صلاة المغرب، وبعد صلاة العصر من ذٰلـك اليوم اتصلت بأحـد المشايخ، فأخبرني بوفاة الشيخ ـ رحمه الله ـ، ولا تسأل عن وقع الصدمة عليَّ وكأنني والله خررت من السماء، ولم أصدق بالخبر، وقلت لعله شخص آخر، ثم أتى الخبر أن الشيخ سوف يُصلَّى عليه بعد صلاة الجمعة في اليوم التالي لوفاته، عند ذٰلك تذكرت قول عمر رضي الله عنه: «موت العالم ثلمة في الإسلام».

وبعد موت الشيخ عزمت على أن أجمع ما نُشِر عن الشيخ في الصحف والمجلات من مقالات ومراثي؛ فتكون لدي ما يقارب من خمسين صفحة، وبعد الفراغ منها دفعت بها إلى أحد تلاميذ الشيخ، فقال: الترجمة جيدة، ولٰكنها لا تعبر عن الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ ولا عن علمه الواسع؛ فبدأت بعد ذٰلك ألتقي بأبنائه وتلاميذه وجيرانه؛ حتى يسر الله هٰذه الترجمة، وهي مما أحتسبها عند الله سبحانه وتعالى؛ فإن محبة العلماء؛ طاعة وقربة.

يقول علي بن أبي طالب: «محبة العالم دين يدان الله به».

ومن محبة العلماء إظهار محاسنهم وآثارهم وما لهم من خدمة للإسلام والمسلمين؛ حتى يترحم عليهم المسلمون، ويدعوا لهم بظهر الغيب.

وقد قسمت بحثي هٰذا إلى اثني عشر فصلاً، يسبقها مقدمة، ويعقبها خاتمة، والفصول هي:

ـ **الفصل الأول**: مولده، ونشأته، وطلبه للعلم.

ـ **الفصل الثاني**: جهوده في الدعوة إلى الله في مصر.

ـ **الفصل الثالث**: قدومه للمملكة ونشاطاته العلمية.

ـ **الفصل الرابع**: مواهبه وإمكاناته العلمية.

ـ **الفصل الخامس**: نماذج من فتاوى الشيخ ـ رحمه الله ـ.

ـ **الفصل السادس**: نماذج من رسائله وآثاره العلمية.

ـ **الفصل السابع**: رسائله العلمية، صفاته وأخلاقه.

ـ **الفصل الثامن**: معاناته، مرضه، وفاته، وآثاره الصالحة.

ـ **الفصل التاسع**: بعض المراثي التي نظمت في الشيخ ـ رحمه الله ـ.

ـ **الفصل العاشر**: ثناء أهل العلم عليه.

ـ **الفصل الحادي عشر**: بعض الأقوال المأثورة عنه.

ـ **الفصل الثاني عشر**: دروس من حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ.

وقد أودعت الترجمة بعض الأوراق الخاصة بالشيخ في «الملاحق»، كما أكثرت من النقولات في ثنايا الترجمة عن طلبة الشيخ؛ لأن عبارة من زامله وتتلمذ عليه ستفوق كثيراً على عبارة من لم يلتق به.

ولا يفوتني أن أشكر أبناء الشيخ وتلاميذه[1] الذين كان لهم الدور الكبير في إخراج هٰذه الترجمة.

تنبيه:

هناك بعض الرسائل والردود والتعليقات على بعض الكتب وآراء الشيخ في بعض الأشخاص لم نتمكن من طبعها، ومن أرادها من طلبة العلم؛ فبإمكانه الاتصال بالناشر، والذي منعني من نشرها أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يكتبها في مسودات؛ فلم استطيع نشرها لأن كتابة

(١) وهم:

ـ الشيخ حمد الشتوي المحاضر بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

ـ الشيخ علي اليحيى الموجه في الإدارة العامة للمناهج بوزارة المعارف.

ـ الأخ محمود عبد الرزاق عفيفي ابن الشيخ.

المسودات لا تعبر عن ما يريد الشخص؛ فلعله كتبها ثم تراجع عنها أو. . .

وأنا أعتذر لطلبة الشيخ ومحبيه عن هٰذه الترجمة المختصرة عن حياة هٰذا العالم، ولٰكن يشفع لي عندهم أنه لم يكتب عنه أحد منهم، ومـا وُجد في هٰذا الكتاب من صواب؛ فهو من الله، وما وُجد فيه من خطأ؛ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان مما أخطأت فيه.

وأسأل أخاً انتفع بهٰذا الكتاب أن يدعو لكاتبه ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين؛ فلعل دعوة صالحة بظهر الغيب ترفع درجات العبد.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

راشد بن عثمان الزهراني

الرياض

٥ / ٦ / ١٤١٦هـ

* * * * *

الفصل الأول
مولده ونشأته وطلبه للعلم

● مولده ونشأته:

في شنشور، إحدى قرى محافظة المنوفية في مصر؛ وُلِدَ شاب من خيرة شباب مصر وهو الشيخ عبد الرزاق[1] بن عفيفي بن عطية بن عبد البر بن شرف الدين النوبي عام **١٣٢٣هـ**، من أسرة كريمة هي أسرة النوبي، وهي من الأسر العريقة في تلك المحافظة.

عاش ـ رحمه الله ـ في أسرة محافظة على تعاليم الإسلام، وقد كان والده يتصف بصفات كريمة وفاضلة انطبعت تلك الصفات وزادت في نجله عبد الرزاق.

● دراسته وطلبه للعلم:

درس الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ في الكتاتيب وتخرج منها مبكراً، وقد كان لهٰذه الكتاتيب نظام تسير عليه؛ فقد كان الطالب يتخرج منها في حدود السنة العاشرة إلى الثانية عشرة، أما المواد التي تُدرَّس

---

(١) تنبيه: اسم الشيخ في شهادة الميلاد والشهادات الدراسية كما في الملحق «عبد الرازق»، والصحيح عبد الرزاق.

فيهـا؛ فهي القـرآن الكـريم قراءة وحفظاً، والكتابة (الخط والإملاء)، والرياضيات (النسب الأربع: الجمع، والطرح، والقسمة، والضرب).

وإذا كان الطالبُ حافظاً للقرآن، وعنده ضعف في بعض المواد؛ تُجُوِّز معه، ولا يُتَجَوَّز معه إذا كان الضعف في حفظ القرآن الكريم.

ولمـا أتم الشيخ ـ رحمـه الله ـ الكتاتيب رام السفر إلى القاهرة ليواصل ما بدأ به من طلب العلم، فمنعه والده من الذهاب إلى الأزهر، وذٰلك بسبب الفتن والمغريات والتي خاف على ابنه من الوقوع فيها.

وفي عام ١٣٤٠هـ تيسر للشيخ ـ رحمه الله ـ الذهاب إلى القاهرة والالتحاق بالأزهر، وكان الأزهر في ذٰلك الوقت على نظام محمد شاكر ـ والد المحدث أحمد شاكر ـ، وكانت الدراسة مقسمة على النحو التالي:

ـ أربع سنوات للمرحلة الابتدائية.

ـ وأربع سنوات للمرحلة الثانوية.

ـ ثم أربع سنوات للقسم العالي.

ـ ثم أربع سنوات للتخصص.

وهو يعادَل الآن بالشهادة العلمية العالية.

فأقبل ـ رحمه الله ـ على طلب العلم في هٰذه السنوات وخاصة الخمس الأولى إقبالاً منقطع النظير، وكان همه أولاً التأصيل والتأسيس للعلم الذي يطلبه.

ولم يكن ـ رحمه الله ـ طالباً لشهادة أو منصب، يظهر ذٰلك جليّاً

في سيرته؛ فقد كان ينتقل من شيخ إلى آخر إذا شعر أنه لن يستفيد من الشيخ الأول، وهٰـذا بالـطبع يؤخره عن التخرج، ومع ذٰلك؛ فقد كان ـ رحمه الله ـ منذ صغره متفوقاً على أقرانه في حفظ القرآن وفي طلب العلم.

يقـول الشيخ عبد الله السعد ـ وفقه الله ـ: «كان ـ رحمه الله ـ معـروفاً بعلمه منذ بداية حياته العلمية؛ فقد حدثني الشيخ عبد القادر شيبة الحمـد عنه ـ رحمه الله ـ، فقال: «كنَّا ونحن ندرس بالأزهر وكان عبد الرزاق العفيفي له صيت»، وكان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ وهو على مقاعد الدراسة يشرح لبعض زملائه الطلاب بعض الدروس ومن بينهم الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق».

استمـر الشيخ ـ رحمه الله ـ في طلب العلم حتى مُنح الشهادة العلمية العالية عام ١٣٥١هـ، ثم درس مرحلة التخصص في شعبة الفقه وأصــولـه، بعـدهـا مُنـح ـ رحمـه الله ـ شهـادة التخصص في الفقـه وأصوله[١]، ومما ذُكر في حرص الشيخ ـ رحمه الله ـ على طلب العلم؛ أنه ظل عازفاً عن الزواج حتى بلغ من العمر خمساً وثلاثين.

* * * * *

(١) انظر في الملحق صورة لهٰذه الشهادة مع صور للشهادات العلمية التي حصل عليها الشيخ رحمه الله.



الفصل الثاني
جهوده في الدعوة إلى الله في مصر

● نشاطه في الدعوة إلى الله:

بعـد أن مُنـح الشيخ الشهادة العلمية العالية درَّس في المعاهد الدينية، ولم يقتصر على ذٰلك بل أخذ يدعو إلى الله في مساجد أنصار السنـة العـامـة؛ امتثـالاً لقوله تعالى: **﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾** [النحل: ١٢٥].

وكـان ـ رحمـه الله ـ في محـافظة المنوفية يذهب إلى الجمعية الشرعية، فيلقي في مساجدها دروساً بصفة منتظمة.

ثم بعـد ذٰلك، نُقِل الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى الإسكندرية وعُيِّن وكيلاً للمعهد الديني، فاستمر ـ رحمه الله ـ في الدعوة إلى الله لا في المعهـد الـديني فحسب، بل وفي جلّ المدينة والتي تزخر بالأضرحة العـديدة؛ مثـل أبي العبـاس، وجـابـر، وتمـراز، والشـاطبي، وبشـر الأباصيري، وأبي الدرداء، والنبي دنيال، وياقوت العرش. . . وغيرهم.

وقـد استمـر ـ رحمـه الله ـ في الإسكنـدرية كما كان يفعل في المنوفية؛ حيث يقضي وقته من بعد صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء

يجـول في المسـاجد خاصة مساجد أنصار السنة، يُلقي الدروس في التوحيد الخالص، ويعلن العداء لعبّاد الأضرحة والقبور والبدع، وكان يلتف حوله الجم الغفير يستفيدون من علمه وأدبه، وذلك لأن الله حباه أسلوباً عظيماً في دعوة الناس إلى الهداية والالتزام بالصراط المستقيم.

يقول أحد تلامذة الشيخ في مصر: «في يوم من الأيام، وبعد أن أذنا لصلاة العصر؛ أتى إلى المسجد أحد الرجال الذين نعرفهم ونعرف تأريخهم، وقال: إذا لم تؤذنوا كما نؤذن أغلقت عليكم المسجد وأنتم تصلون، فرد عليه رجل يسمى الحاج عبده قائلاً: انتظر حتى يأتي الشيخ وقل له هذا الكلام! فقال: لن أنتظر، ولكني سأحضر وقت صلاة العشاء.

وكـان هذا الـرجـل صاحب مقهى، ويتبعـه زبـانية من الـرجال المعتادي الإجرام، وكانوا يهابونه ولا يجرؤ أحد منهم أن يرفض له طلب، وبعـد هذه المحـاورة بقليل حضر الشيخ عبد الرزاق وصلى بنا صلاة العصر، وبعد التسليم مباشرة أخبره الحاج عبده بما حدث، وانصرفت إلى ورشة أبي وأخذت أعمل كعادتي وإذا بالشيخ ومعه أربعة من جماعة المسجـد يذهبـون إلى المقهى ويقـابلون ذلك الرجل ويسلمون عليه ويجلسون معه، ويتحدث الشيخ عبد الرزاق وأنا أراقبه من بعد، وصمم الشيخ أن يدفـع ثمن المشـروب الذي أتى به عامل المقهى، واستمر الشيخ في حديثـه وكنت في هذه الحالة الحرجة أطلب من الله تبارك وتعالى السلامة لفضيلة الشيخ والإخوة الأربعة، ومرت العشرون دقيقة وكأنها سنة، وقاموا جميعاً وانصرفوا، وفرحت بأنها مرت بسلام وعدت إلى العمل لأجد أبي في انتظاري، فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بما

حدث، فدعا للشيخ ما شاء الله أن يدعو.

وجاء وقت المغرب وسمعت الأذان، ولٰكن في هٰذه المرة لم أستطع التعرف على المؤذن؛ فقلت في نفسي: من أين جاؤوا بهٰذا المؤذن الجديد؟ فأسرعت الخطى حتى لحقته بالمسجد وهو يؤذن، وكانت دهشتي عظيمة؛ إذ إن الذي يؤذن الآن هو ذٰلك الرجل الذي كان يريد أن يغلق علينا المسجد؛ فسبحان مغير الأحوال! ودخلنا جميعاً إلى المسجد، وصلى بنا فضيلة الشيخ الفريضة، وكان من عادته أن يلقي درساً من المغرب إلى العشاء؛ فجعل هٰذا الدرس عن صاحبنا الذي جلس ليستمع الذكر، وعندما بدأ فضيلته بالكلام؛ قال: إن الهداية من الله تبارك وتعالى، وإن الله إذا أراد أن يهدي رجلاً؛ أرسل إليه من يراه أهلاً للدعوة، ولذٰلك كان علينا جميعاً أن نعيش دروس الهداية، ولا نقصِّر في الحضور حتى يأتي الناس لنا، بل لا بد أن نخرج إليهم وهو أمر واجب على كل داعية.

أما ذٰلك الرجل الذي كان يريد إغلاق المسجد لما سئل وقيل له: ماذا قال لك الشيخ؟ قال: لقد أحسست وأنا أستمع إلى كلماته كأنني كنت في حاجة شديدة إلى هٰذا النوع من النصح والإرشاد، وكانت الكلمات ترن في أذني فتدخل إلى قلبي الذي فُتح فوراً مستجيباً لها ويريد المزيد؛ حتى انتهى الشيخ ووقف مستأذناً في العودة وأنا في حاجة شديدة إلى المزيد، فقال لي: إن المسجد مفتوح وقلوبنا مفتوحة لك أيضاً، فلما قال الشيخ هٰذا القول؛ أسرعت بالأذان في المسجد حتى يزداد إحساسي، وقد كان لي ما أردت، فلما أذنت المغرب ورأيت جميع الأخوة ينظرون إليَّ ويبتسمون؛ أعطتني هٰذه الابتسامة كل الثقة في أن

هٰذه الأخوَّة والمحبة نابعة من القلب.

وقد أعفى هٰذا الرجل فيما بعد لحيته، وربى أبناءه تربية صالحة، ثم تطور الأمر إلى أن أصبح إماماً، وبعد ذٰلك أصبح خطيباً في ذٰلك المسجد».

ومن الأعمال التي قام بها الشيخ ـ رحمه الله ـ: أنه اتخذ مكاناً لإيواء ضيوفه ومحبيه من خارج القرية وهي مضيفة الشيخ عبود عافية في الصيف والشتاء، وكانت تسمى (الزاوية)، لإقامة الندوات وشرح السنة النبوية المطهرة، ومعه لفيف من محبيه؛ كالشيخ محمد عبود عافية، والشيخ مصطفى سيد أحمد عافية.

يقول الشيخ مناع القطان: «كانت معظم المساجد لا تخلو من البدع، ويجهل عامة الناس مسائل العقيدة الصحيحة؛ فقد ركَّز ـ غفر الله له ـ على الجوانب العقدية، والعودة إلى منابع أصولها الصافية، والتمسك بالسنة الصحيحة وما كان عليه أمر المسلمين في القرون المشهودة لها بالخير، وإذا تعذَّر عليه التغيير؛ سعى إلى إقامة مسجد خاص يقوم عليه من هداهم الله، ويتخذون منه منطلقاً للدعوة، وله في هٰذا مواقف شتى».

ويقول الدكتور محمد الصباغ: «وقد حدثني ـ رحمه الله ـ أنه أراد أن يحذر إخوانه في مصر من الدجالين ومن القصاص والوعَّاظ الذين يأتون في دروسهم بالأقاصيص الممتعة التي تشد السامعين وتمتعهم وتستحوذ على إعجابهم ولا أصل لها، والعامة هٰذا شأنهم في أغلب البلاد؛ فألقى عليهم درساً ملأه بمثل تلك الأقاصيص الغريبة؛ فأعجبوا بالدرس واستمتعوا، فلما رأى ذٰلك بادياً على وجوههم سألهم: ما

رأيكم؟ أهٰـذا الدرس أحسن أم الدروس السابقة؟ قالوا: بل هٰذا، إنه درس جميل وممتع. فقال لهم: هٰذا كله غير صحيح، وما كنا عليه في دروسنا السابقة هو الصواب.

فأفهمهم بهٰذه الطريقة العملية أنه ليس عاجزاً على أن يأتي في دروسه بما يستحوذ على إعجابهم، ولٰكن الحق هو الذي ينبغي أن يكون رائد الموجِّه والعالم.

إن العالم ينبغي أن يكون مربياً ومرشداً، يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم، لا يداري ولا يتكلف التأويل ليسوغ للناس ما يحبون من الخرافات والأباطيل.

وقد ابتلي المسلمون من زمن بعيد بالقصَّاص الذين يملؤون مواعظهم بالأحاديث الموضوعة الواهية، ويأتون بالقصص الغريبة ولو كانت باطلة ليجعلوا الناس يقبلون عليهم؛ فكان الشيخ يحذر الناس من الوقوع في أحابيلهم.

وهٰكذا كان ـ رحمه الله ـ بعد قدومه للمملكة؛ حريصاً على هداية الناس، داعياً إلى الله على بصيرة وبرهان».

يقول تلميذ الشيخ وخاصته الشيخ العلامة عبد الله بن قعود ـ حفظه الله ـ واصفاً شيخه: «كان كل ما يطرحه من طرفة ونحوها يقصد بها الدعوة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ».

● عنايته ببناء المساجد:

ومن اهتمامه ـ رحمه الله ـ بالدعوة إلى الله أنه كان حريصاً كل الحرص على بناء المساجد وجعلها تابعة لجماعة أنصار السنة؛ حتى

يتمكن من خلالها من إرشاد الناس وتوجيههم.

ومن ذٰلك أنه في يوم من أيام الصيف عام ١٩٤٢م مر فضيلته برجل يبني بيتاً كبيراً وهو ما يزال في الطابق الأول، فقال له الشيخ عبد الرزاق بعد أن بدأه محيياً بالسلام: «هل لك شريك في هٰذا العمل (يقصد بناء البيت)؟ فقال الرجل: هو لي وحدي، ورثت الأرض عن أبي، وأقوم الآن بالبناء. فرد عليه الشيخ: هل تسمح لنا بتأجير الدور الأرضي لنتخذه مسجداً على أن نعطيك ما تشاء؟ فقال الرجل ـ وكان كبير السن وقوراً ـ: أنا لا أمانع في ذٰلك أبداً، وبدون أجر ألبتة، بل وسأرعى هٰذا البناء بنفسي. فأكمل البناء، وأدخل الماء والكهرباء، وبنى بالمسجد كل ما يلزم المصلين.

وفي يوم من الأيام والشيخ يمر كعادته مستفسراً: ماذا تم؟ إذا بالحاج عبده ـ وهو صاحب المنزل ـ يخرج المفتاح ويقول: ادعُ الله أن يتقبل مني هٰذا العمل. فدعا له الشيخ.

وفي اليوم الثاني افتتح الشيخ المسجد بصلاة العصر، وبعد الصلاة ألقى الشيخ ـ رحمه الله ـ موعظة وقصَّ على المصلين قصة إسلام سلمان الفارسي، وجعلها نبراساً يضيء الطريق للمصلين، وختم الدرس قائلاً: استمعتم إلى قصة سلمان الفارسي الذي كان صغيراً ولم يقتنع بما يعبد أبواه؛ إذ كانا من المجوس يعبدون النار».

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: «أنتم أسعد حظّاً من هٰذا وهو غلام؛ لأنكم ولدتم على الإسلام، وتربيتم على الإسلام، والآن تدرسون الإسلام؛ فما مدى هٰذه السعادة التي أعطاكم الله إياها؟ ألا تحسون من

قولي هٰذا أنكم محظوظون في جميع أطوار حياتكم؟ إذاً؛ فلا بد من أن تكرسوا جهودكم في الدعوة إلى عبادة من وهبكم كل هٰذه النعم».

وقد ساهم الشيخ ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ في بناء وإقامة عدة مساجد؛ منها: مسجد القطان، ومسجد أبو عافية، ومسجد التقوى، ومسجد الصحابة، ومسجد شروة حسن، ومسجد عمر بن الخطاب، ومسجد فجر الإسلام.

ومن جهوده ـ رحمه الله ـ: إنشاء المركز الإسلامي الكبير الذي يتصدر مدخل قرية الشيخ من الجهة القبلية، ويضم في جنباته مسجداً واسعاً، وداراً للمناسبات، ومستوصفاً خيرياً، ومكتبة كبيرة، ومرافق أخرى عديدة بعضها لا يزال تحت الإنشاء والاستكمال.

وقد كان لدروس الشيخ ـ رحمه الله ـ أثر كبير في تغييره لكثير من المنكرات.

يقول أحد أبنائه: «كان لوالدي الفضل بعد الله تعالى في تغيير الكثير من العادات والتقاليد المنكرة، وخاصة في قريته الصغيرة؛ فبعد تخرجه من الأزهر عاد إلى القرية ليقوم بتطبيق ما تعلمه على أرض الواقع؛ فبدأ بنشر العلم وإسداء النصح للناس بأسلوبه الهادىء الرصين».

● عنايته بإقامة المعاهد الدينية:

ومن الأعمال التي اعتنى بها الشيخ وساهمت في النهضة الدينية والعلمية التي تشهدها قرية شنشور: إقامة المعاهد الدينية.

وكان الشيخ عبد الحميد عبد المطلب الهلالي رفيق دراسته عوناً له على ذلك؛ فقد ساهم ماديّاً ومعنويّاً في إنشاء كل من المعهد الديني الابتدائي الأزهري بشنشور، والمدرسة الثانوية العامة، والمدرسة الثانوية التجارية، والتي تم افتتاحها على الترتيب عام ١٩٨٥م، ١٩٨٣م، ١٩٩٣م، ثم المعهد الديني الإعدادي الثانوي للفتيات المنشأ حديثاً، وهو تابع أيضاً للأزهر الشريف، وكذلك مدرسة شروة حسن الابتدائية المشتركة.

وبالإضافة إلى النشاطات المضيئة السابقة؛ فقد كان الشيخ - رحمه الله - يذهب إلى جماعة الإخوان المسلمين بمقرها الرئيسي بشارع الإسكندراني يلقي دروساً في العقيدة، وكان يجتمع هناك الحشد الهائل، ويمتلىء المقر على اتساعه، ويقف أو يجلس الناس بالشوارع حول هذا المقر للسماع والاستفادة من هذا العالم السلفي الجليل؛ فيتخرج من هذه الجماعة دعاة لأنصار السنة والإخوان.

ويصدق في الشيخ - رحمه الله - قول الشاعر:

لقد سار في درب الشريعة يافعاً يطير به عزم له وإباء
وأنفق في بسط الشريعة عمره يسير به خوف له ورجاء

● **الثمرات التي جناها من دعوته:**

وقد أثمرت جهوده في إلغاء الاحتفالات بالمولد النبوي وإلغاء نوع مستحدث من الأذان كان سائداً، كما كانت له مساهمة في محاربة عادة الحلف بغير الله التي كانت سائدة في القرية، وغير ذلك من البدع التي حرص - رحمه الله - على محاربتها وتخليص الناس من آثامها.

يقول أحد أبناء الشيخ ـ رحمه الله ـ: «كان لوالدي القدح المعلى في تخليص قريته من العادات التي كانت تنافي الدين الحنيف؛ كالنوح على الموتى، ولطم الخدود، وزيارة النساء للقبور والأضرحة، وكانت دعـوتـه في تلك المجـالات لإرساء قواعد الدين الصحيحة لها صدى مسموع؛ لما له من مكانة بارزة بين أهلها في داخلها وخارجها».

* * * * *



الفصل الثالث
قدومه للمملكة وجهوده العلمية فيها

● قدومه للمملكة العربية السعودية:

بسبب ما رأى الشيخ من تضييق على المسلمين في دينهم قرر الهجرة إلى أرض الإسلام، وكان مما ساعد الشيخ على اتخاذ قراره هو ما وجده من صديقيه ـ رحمهما الله ـ: الشيخ عبد العزيز بن راشد، والشيخ عبد الله بن علي بن يابس؛ لمعرفتهما عن الشيخ أنه لن يصمت عن كلمة الحق مهما كان الثمن.

وكان أول قدوم الشيخ للمملكة عام ١٣٥٣هـ حاجّاً، وقد ذكر أنه درَّس في الحجاز في ذٰلك الوقت، ثم عاد إلى مسقط رأسه، ثم طُلب للعمل في السعودية عام ١٣٦٨هـ وأراد بعض المسؤولين في الأزهر وقتئذ منعه حسداً وحقداً رغم صدور أمر ملكي من الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ موجه إلى شيخ الأزهر الشيخ محمد خضر الحسين ووكيليه الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ محمد نور الحسن، بيد أن مساعي والد جمال عبد الناصر نجحت؛ فعاد الشيخ عبد الرزاق لمواصلة رسالته في السعودية، وأولاه المسؤولون فيها جميعاً ثقتهم وتقديرهم، وعهدوا إليه بالإسهام في إحياء النهضة العلمية في معاهد

بريدة وعنيزة بعد عمله في دار التوحيد بالطائف، وكان قبلة الأنظار في تلقي وبسط التعاليم الدينية على المذهب السلفي الذي أرسى أسسه المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ.

وإزاء تلك الثقة من الملك عبد العزيز والأمراء من أبنائه والمشرفين على التعليم؛ آثر الاستقالة من الأزهر، وظفر بالجنسية السعودية، وأصبح أستاذاً بالكليات، ثم جُعل مديراً للمعهد العالي للقضاء، ثم نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

● جلوسه للتدريس في المملكة:

يقول شيخنا العلامة عبد الله بن جبرين ـ حفظه الله ـ: «أمَّا تدريسه؛ فقد أفنى حياته في وظيفة التدريس في مصر، ثم في المملكة في دار التوحيد بالطائف، ثم في معهد الرياض العلمي، ثم في كلية الشريعة وكلية اللغة العربية بالرياض، ثم في معهد القضاء العالي مديراً ومدرساً؛ حتى أحيل للتقاعد، ثم عمل متعاقداً في رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بقية حياته حتى وافاه الأجل وهو على رأس العمل في هٰذه الرئاسة، وقد تتلمذ عليه أكابر العلماء في هٰذه المملكة، واعترفوا بفضل علمه، وافتخروا بالانتماء إلى تعليمه في أغلب المراحل، كما انتفع الكثير بالفوائد التي تلقوها عنه في دروسه في المسجد وغيره».

يقول الدكتور محمد الصباغ: «وكان ـ رحمه الله ـ مدرساً ناجحاً؛ سواء كان درسه في الجامع أو في الجامعة؛ فقد كان له درس أسبوعي في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ ثم لمَّا انتقل إلى بيته

في شارع الخزان؛ كان يؤم الناس في المسجد الذي يقابل بيته، وكان يلقي بين الفينة والأخرى دروساً تأخذ الألباب في روعتها وعمق معانيها وغزارة أدلتها».

وكان ـ رحمه الله ـ يحج كل عام منذ أن هاجر إلى المملكة؛ يُدرِّس في الحرم، ويفتي الناس في شؤون دينهم ولا سيما في أمر المناسك، وله اقتراحات نافعة أُخذ ببعضها بالنسبة إلى الضحايا والهدي.

وقد أبدع ـ رحمه الله ـ في جميع العلوم التي درسها.

يقول الشيخ صالح الأطرم ـ حفظه الله ـ: «درَّسنا الشيخ عبدالرزاق في معهد الرياض العلمي، وفي كلية الشريعة، وفي المعهد العالي للقضاء في التفسير وفي توحيد العبادة وفي العقيدة وفي الفقه وفي البلاغة وفي النحو وفي أصول الفقه؛ فما درَّس مادة إلا أبدع فيها».

● منهجه في التدريس:

كان ـ رحمه الله ـ له منهجية متميزة في تدريسه للطلاب؛ مما جعل كل من دَرَس على يديه يشهد له بأنه أفضل معلم.

وقد تميزت دروسه بعدة مميزات منها:

١ ـ التفنن في إيصال ما يريد إلى أذهان الطلاب بأخصر إشارة وأحسن عبارة.

٢ ـ فهمه لعبارة المؤلفين وأصول مذاهبهم.

٣ ـ تنظيم المعلومات وعنايته بالسبر والتقسيم.

٤ ـ الفصاحة والبلاغة التي منَّ الله بها عليه، وقد كان بعض طلاب كلية الشريعة يتعجبون من ذٰلك أثناء ما كان يدرسهم التفسير، فسألوه عن ذٰلك؟ فقال: «إن هٰذا من تفسير أبي السعود»[1].

يقول الشيخ صالح السدلان: «كنت معجباً جدّاً بطريقة الشيخ عبدالرزاق في التدريس؛ حيث المادة العلمية لديه ـ يرحمه الله ـ خالية من الحشو، مرتبة، مركَّزة، متسقة، معروضة بأسلوب شيق قشيب».

ويقول الشيخ صالح الأطرم ـ حفظه الله ـ: «أما منهجيته؛ فتمتاز بوضوح الكلام وقلته، وتكييف المادة بحيث تصل إلى الأذهان من أول وهلة.

وكان ـ رحمه الله ـ بديعاً في تفكيك عبارة المؤلفين على اختلاف المواد، وإذا استغربنا ما سمعناه من المعاني التي لا ندركها بمجرد قراءة الكتاب، وسألناه من أين هٰذا؛ قال: «في كتابكم، لم آت بغريب».

وكانت دراسته في الفقه على مذهب مالك، ويدرسنا في «المقنع» على مذهب أحمد بكل سهولة، وكان للخلاف في الفقه عندنا روعة واستعظام؛ حتى سألناه: من أين تأتي بهٰذا الكلام؟ قال: «ما قرأت غير كتابكم الذي بين أيديكم (وهو «المقنع»)»، ثم أخذ يشرح لنا؛ فقال: «التدريس فهم الكتاب وأهدافه ومنهجيته وأصول مذهبه»، وضرب لنا مثلاً في القصاص من السكران عند قول المؤلف: وفي القصاص من السكران روايتان إذا تعمد السُّكر، فعند من قال فيه القصاص؛ لاحظ أنه

---

(١) من رسالة للشيخ عبد الله السعد، وقد ذكر فيها أن الذي حدثه بهٰذا الشيخ عبد الله الفنتوخ.

تعمد إزالة عقله، ومن قال إنه ليس فيه قصاص؛ ألحقه بمن زال عقله بعذر، ومن هنا نشأ الخلاف.

قال ـ رحمه الله ـ: «هٰكذا كل خلاف يكون له مأخذان من الأدلة، والتنفيذ يكون بحسب ما تسير عليه دراسة الفقه في البلد من المذاهب الفقهية»»[1].

يقول تلميذه الفاضل الشيخ عبدالله السعد: «وكان ـ رحمه الله ـ يتميز بتسهيل المادة التي يدرِّسها لطلابه، بحيث إذا شرح الموضوع؛ فهمه أكثر مَنْ سمعه، وقد حدثني بهٰذا أكثر من واحد من طلابه الذين درسوا عليه، وقد سألت شيخنا عبدالرحمٰن بن ناصر البراك عن أكثر من استفادوا منه في دراستهم في كلية الشريعة؛ فقال: الشيخ عبدالرزاق العفيفي. فقلت له: والشيخ محمد الأمين الشنقيطي؟ فقال: الشيخ محمد الأمين يأتي إلينا وينفجر علينا.

قلت: ويقصد الشيخ عبدالرحمٰن أن الشيخ محمد الأمين بسبب قوة حافظته وسعة علمه يلقي المعلومات الكثيرة في الفترة القصيرة كأنه ينفجر عليهم من سعة معلوماته، وهٰذا (لا يستفيد منه كل طالب)[2]؛ فكثير منهم تفوته هٰذه المعلومات، بخلاف الشيخ عبدالرزاق؛ فإنه كان ـ رحمه الله ـ معروفاً بتنظيم المعلومات وبالسبر والتقسيم، فلذٰلك كانت استفادتهم منه أكثر، وهٰذا ما أتى إلا من قوة فهم وذكاء وتحليل للمعلومات، وإلا؛ لما استطاع أن يعلمها لغيره بهٰذه الطريقة».

---

(١) أفاده الشيخ علي اليحيى في رسالة خاصة.

(٢) ما بين قوسين من المؤلف.

● عنايته بالطلبة:

كان للشيخ ـ رحمه الله ـ عناية فائقة بطلبته؛ سواء كان في فترة وجوده في مصر أو في السعودية، وكان ـ رحمه الله ـ يقول: «همي أن أربي طلاب علم ينفع الله بهم الإسلام والمسلمين».

يقول الشيخ مناع القطان: «وفي رحلته العلمية كانت عنايته الفائقة بتربية تلاميذه على العقيدة السلفية ونبذ البدع والخرافات، والأخذ بيدهم إلى هدي الكتاب والسنة وسلف هٰذه الأمة؛ فاحتضن نخبة متميزة، وتعهدها منذ الطفولة بالرعاية، واصطحبها معه حتى نمت وشبت عن الطوق ونهجت نهجه».

ويقول الشيخ عبدالله بن قعود ـ حفظه الله ـ: «كان إذا رأى في أحد الطلبة توجهاً دينيّاً وعقديّاً؛ حثه على العلم وعلى السعي في تحصيله».

ويقول الشيخ صالح الأطرم ـ حفظه الله ـ: «كان ـ رحمه الله ـ ثاقب النظر، عارفاً بطلابه واتجاهاتهم ومن يصلح للقضاء أو التدريس في حقول التعليم أو في الوظائف الإدارية، وكان حريصاً على تأهيل من يتولون المسؤوليات من قضاء وتدريس وأعمال إدارية».

يقول الشيخ صالح بن غانم السدلان: «ولم يكن يدرس مادة إلا وأكملها، وكان ـ رحمه الله ـ من المفيدين في التدريس وغير المتخوفين في الامتحانات، وكان يصنف الطلاب على مستوى الدرجات العلمية، ومن شدة دقته في التصحيح؛ لم يكن يساوي بين طالبين بدرجة واحدة...».

ومن عنايته ـ رحمه الله ـ بطلبته بذله النصح لهم، وقد تقدم معنا جملة من ذٰلك، ومنها أيضاً ما ذكره الشيخ علي اليحيى حيث قال ـ وفقه الله ـ: «وقد كنت أسأل شيخنا فأُكثر بسبب كثرة لقائي به، ولا أريد أن يفوت المجلس بلا فائدة، فقال لي: يا شيخ علي! ما كنت أنا أسأل مشايخي كثيراً، كان إذا أشكل عليَّ شيء بحثت، فإذا لم يزل الإشكال سألت؛ فإن السؤال بعد البحث يكوِّن عندك حصيلة عن الموضوع واطلاعاً».

ويقول الدكتور محمد بن لطفي الصباغ: «صحبته ما يزيد على اثنين وثلاثين عاماً ما تركت مجلسه في أسبوع إلا أن يكون أحدنا مسافراً، وقلما كانت سفراتنا تطول، وقد جاورته سنين عديدة؛ فكان نعم الأستاذ والجار، ولقد تعلمت منه في هٰذه الصحبة أموراً كثيرة؛ منها ما يتعلق بالناحية السلوكية، ومنها ما يتعلق بالناحية الشخصية... لقد كنت ألجأ إليه في كل أمر من هٰذه الأمور، وكان ـ رحمه الله ـ يمدني بالرأي السديد والتوجيه القويم، لقد أكرمه الله بالعقل المسدَّد والعلم الواسع والرأي المحكم، وعلى الرغم من تتلمذي عليه؛ ما كان يعاملني إلا على أني زميل له؛ تواضعاً منه وكرماً، أحسن الله إليه وجزاه عنا الخير».

وقال أيضاً: «منذ طفولتي إلى هٰذه الساعة وأنا أعاشر العلماء، أتتلمذ على أيديهم، وأتلقى منهم أبحاثهم، ولا والله لم ألق عالماً مثله في سعة اطلاعه، ودقة استحضاره وحفظه، وسلامة منهجه، واستقامة حياته، وجولان ذهنه، وقدرته على إعطاء الحكم الدقيق في المسألة المطروحة، ومعاصرته لأحداث زمانه، لقد كان يعيش عصره ويدرك

بعمق شراسة الغزو الفكري والاستعماري للمسلمين، ويعرف التيارات الفكرية والسياسية التي تسود العالم وتغزو بلاد المسلمين، يعرفها تمام المعرفة! وهٰذه صفة لم تكن موجودة في كثير من علماء عصره».

● تلاميذ الشيخ رحمه الله:

تخـرَّج على يديه أجيال من طلبة العلم الذين يُكِنون له التقدير والاحتـرام، ويعترفون بما له من تفوق في الحياة العلمية والمترجم له ـ رحمه الله ـ يعتبر شيخاً لجلِّ كبار علماء المملكة.

ومن تلاميذه:

١ ــ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ.

٢ ــ الشيخ عبدالله بن غديان.

٣ ــ الشيخ صالح اللحيدان.

٤ ــ الشيخ صالح الفوزان.

٥ ــ الشيخ عبدالله بن حسن بن قعود.

٦ ــ الشيخ إبراهيم بن محمد آل الشيخ.

٧ ــ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن بن جبرين.

٨ ــ الشيخ صالح الأطرم.

٩ ــ الشيخ عبد الله التركي.

١٠ ــ الشيخ صالح بن غانم السدلان.

١١ ــ الشيخ راشد بن خنين.

١٢ ـ الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، قرأ عليه في باب الإضافة في النحو.

١٣ ـ الشيخ علي الرومي.

١٤ ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد المنعم.

١٥ ـ الشيخ سعود الفنيسان.

١٦ ـ الشيخ حمود بن عقلا.

١٧ ـ الشيخ مناع القطان.

١٨ ـ الشيخ حمد الجنيدل.

١٩ ـ الشيخ حمد الشتوي.

٢٠ ـ الشيخ علي اليحيى.

٢١ ـ الشيخ عبد الله السعد.

٢٢ ـ الشيخ محمد بن لطفي الصباغ.

وغيرهم كثير.

● المناصب التي تقلدها رحمه الله:

عُين مدرساً بالمعاهد العلمية التابعة للأزهر، فدرَّس بها عدة سنوات، كما اختير ـ رحمه الله ـ نائباً لرئيس جماعة أنصار السنة المحمدية في فترة إقامته بالإسكندرية، وذلك في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر صفر من عام ١٣٦٥هـ، ثم اختير رئيساً عامّاً للجماعة في مساء السبت الرابع والعشرين من شهر صفر من عام ١٣٧٩هـ.

انتقل الشيخ ـ رحمه الله ـ من مصر سنة ١٣٦٨هـ للعمل بوزارة المعارف السعودية، ثم جُعل مدرساً بدار التوحيد بالطائف، ثم نُقل منها بعد سنتين إلى معهد عنيزة العلمي في شهر محرم عام ١٣٧٠هـ، ثم نُقل إلى الرياض في آخر شهر شوال عام ١٣٧٠هـ للتدريس بالمعاهد العلمية التابعة لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وكان للشيخ ـ رحمه الله ـ دور كبير في المعاهد العلمية وفي تحديد مستويات الطلاب، وكان عدد المدرسين في أول افتتاحه سبعة؛ منهم المترجم له[1] والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ثم نُقل للتدريس بكليتي الشريعة واللغة.

وكان الشيخ يُستشار في من يُتَعاقد معه من المدرسين من مصر، ويصدر عن رأيه في ذلك، كما كان له رأي في اختيار الكتب الدراسية، ولما أنشىء المعهد العالي للقضاء؛ عُين مديراً له بأمر من سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ[2]، وذلك في عام ١٣٨٥هـ؛ فاقترح تأخير فتحه سنة لأجل حضور أشخاص عينهم للتّدريس فيه من الأزهر وعددهم ستة، منهم الشيخ حسين مخلوف.

وفي سنة ١٣٩١هـ انتقل ـ رحمه الله ـ إلى إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وصار نائباً لسماحة والدنا وشيخنا الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ حفظه الله ـ في رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء مع جعله عضواً في مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية

(١) انظر: (ص ١١).

(٢) انظر صورة لقرار التعيين في الملاحق.

السعودية، وقد بقي عضواً فيها حتى أُعفي لحالته الصحية التي فرضها كبر سنه قبل نحو عامين، أما اللجنة الدائمة للإفتاء؛ فلم يزل يشارك فيها ما أقيمت بالرياض حتى وفاته رحمه الله، بل لقد كان يباشر عمله مفتياً ومجيباً عن مسائل العامة في مكتبه بإدارة البحوث العلمية والإفتاء، مدفوعاً بالعربة؛ لصعوبة المشي ـ رحمه الله ـ.

وكان ـ رحمه الله ـ عضواً في اللجنة التي وضعت مناهج الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

● مؤلفات الشيخ رحمه الله:

يقول الشيخ عبد الله بن جبرين ـ حفظه الله ـ: «أما التأليف؛ فلم يكن يرغب فيه، ولا يحب الكتابة في أي فن من الفنون، بل يرى أن هٰذه الكتب والمؤلفات الحديثة لا فائدة فيها، فيكتفي بما كتبه وجمعه العلماء السابقون؛ حيث إنهم تطرقوا إلى كل فن، وأوضحوا ما يحتاج إلى توضيح؛ فمن جاء بعدهم لا يستطيع أن يضيف إلى علومهم زيادة، ولقد ضرب مثلاً بإحضار مجموعة من التفاسير وقارن بينها، فأظهر أن الآخر عيال على الأول؛ وأن المتأخرين إنما توسعوا في الكلام بما لا فائدة فيه، وكان ينهى عن الاشتغال بكتب المعاصرين التي كتبوها في الأصول أو التفسير أو الأدب أو الفقه ونحو ذٰلك، حيث إنهم لا يزيدون على من سبقهم، ومع ذٰلك؛ فقد أشرف على رسالتي في أخبار الآحاد التي قدمتها لنيل درجة الماجستير وعلى رسالة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وغيرهما.

وكان يولي التلميذ توجيهات ودلالة على المواضيع وأماكن البحث

ونحو ذٰلك؛ مما يدل على قدرته على الكتابة لو أراد ذٰلك؛ فهو من حَمَلة العلوم المتعـددة، وأي فن يتطرق إليه يوسعه بحثاً؛ فرحمه الله وأكرم مثواه» اهـ.

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: «لم أر لدى أكثر المؤلفين في العصور المتأخرة جديداً، بل تكرار لما ذكره من سبقهم؛ سوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ؛ فإنك تجد في مؤلفاته الكثير من العلم مما لم يُسبق إليه». اهـ.

يقول الدكتور محمد الصباغ: «العلماء نوعان:

١ ــ علماء ينعزلون عن الناس ويتفرغون لكتابة الكتب والمصنفات.

٢ ــ علماء يعنون ببناء النفوس وتوجيه العامة وإرشادهم وبالإجابة عن أسئلتهم وحل مشكلاتهم.

وقـد كان المترجم له ـ رحمه الله ـ من النوع الثاني، وقد انتفع بعلمه وتوجيهه خلق كثير، وهناك عدد من مشايخنا كانوا من النوع الثاني وهم جبال من العلم، وكذٰلك في العصور السابقة كان أكثر العلماء من هٰذا القبيل، وأحسب أن فقيدنا كان يحمله على ترك التأليف عامل آخر وهو زهده في الشهرة والسعة والمنصب».

ويقول الأستاذ زهير الشاويش: «كان ـ رحمه الله ـ يرى أن في ثروتنا العلمية التي تركها لنا الأجداد ـ رحمهم الله ـ ما يكفي، وإذا كان ولا بد من مُؤَلَّف؛ فيكـون لسـد الحـاجـات الـطارئـة علينـا من أمور استجـدت، وقـال لي مرة: يا زهير! إن حُسْنَ إخراج الكتب وتحقيقها

وحسن عرضها أفضل من التأليف، ولذلك صرف جهوده إلى وضع المناهج للجامعات والمعاهد، ورسم الخطط لها من غير أن يؤلف كتاباً. . . ».

وكان ـ رحمه الله ـ إذا رأى كتاباً خفيفاً لأحد المحدثين، ليس فيه أصالة ولا دقة ولا استيفاء؛ قال: يا ليته ما ألف! أو: يا ليته اقتصر على الانتفاع بما كتب الأئمة!

ومع ذلك؛ فقد كتب ـ رحمه الله ـ وعلّق على بعض الكتب؛ فله:

١ ــ مذكرة في التوحيد.

٢ ــ تحقيق وتعليق على كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي.

٣ ــ تعليق على الجزء المقرر في التفسير من «تفسير الجلالين» لطلاب المعاهد العلمية؛ «فقد كان ـ رحمه الله ـ يثني على الكتاب من حيث الموضوعية، أما من جانب العقيدة؛ فقد كان المفسران أشعريان».

٤ ــ تعليق على رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وهي رسالته إلى جماعة مسافر بن عدي أخبرني بها الشيخ العلاّمة عبد الله بن قعود ـ حفظه الله ـ.

٥ ــ تعليق على كتاب «الفتوى الحموية الكبرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٦ ــ تعليق على كتاب «التدمرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٧ ــ تعليق على كتاب «الرسالة التبوكية» لابن القيم.

٨ ــ تعليق على «ألفية العراقي».

٩ ــ تعليق على «شـرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد خليل هرَّاس ـ رحمه الله ـ.

١٠ ــ حاشية على «شـرح العقيدة الـطحـاوية» لابن أبي العـز الحنفي في ذكـر إحـالات شرحـه على كتب شيخ الإسـلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ.

١١ ــ تعليق على كتاب «الاعتقاد» للبيهقي.

١٢ ــ مذكـرة في حكم البـورصـة كتبهـا باسم اللجنـة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

١٣ ــ له تعليقـات يسيرة على كتـاب «المستصفى» للغـزالي و«الاعتصام» و«الموافقات» للشاطبي، أفاد ذٰلك ابن الشيخ محمود.

وقـد كتب ـ رحمـه الله ـ عدداً من الفتاوى والبحوث وذٰلك من خلال عمله في اللجنة الدائمة، أثبتُّ بعضها في هٰذا الكتاب.

وكتب عدداً من المقدمات لكتب علمية ورسائل جامعية.

* * * * *

الفصل الرابع
مواهبه وإمكاناته العلمية

رُزق الشيخ ـ رحمه الله ـ مواهب عظيمة؛ من قوة الحافظة، والملاحظة، وفقه النفس، وقد كرس جهوده لطلب العلم خارج أروقة الأزهر، وعني بعلوم اللغة والتفسير والأصول والعقائد والسنة والفقه؛ حتى أصبح إذا تَحَدَّث في علم من هٰذه العلوم؛ ظنَّ السامع أنه تخصُّصه الذي شغل فيه كامل وقته، وقد كان له عناية خاصة في دراسة أحوال الفرق، وهٰذه الأمور جعلت طلاب العلم يقصدونه في كل وقت ويسمعون منه، وانتفع بعلمه خلق كثير.

وكان ـ رحمه الله ـ يشرف على رسائل بعض الدارسين في الدراسات العليا، ويشترك مع لجان مناقشة بعض الرسائل، ويلقي بعض الدروس في المسجد لطلبة العلم حسبما يتيسر، ويلقي المحاضرات، ويشارك في أعمال التوعية في موسم الحج[1]، وكان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ مفتي المملكة سابقاً يقدره ويستشيره، ويعتمد عليه في كثير من الأمور؛ تقديراً لعلمه الواسع، ورأيه الصائب،

---

(١) مقدمة فتاوى اللجنة (١ / ٣).

وإخلاصه الجم[1].

يقول أحد أولاد الشيخ: «كان والدي حافظاً متقناً، وإذا ما سُئل عن مسألة ما وكانت موجودة في أحد الكتب؛ أحال السائل إلى الكتاب محدداً عنوانه ورقم الجزء والصفحة والسطر».

يقول شيخنا العلاَّمة عبدالله بن جبرين: «كان دراسته ـ الشيخ عبد الرزاق ـ في العلوم؛ كالحديث، واللغة، والتفسير، والأحكام؛ حتى تفوق على زملائه وبعض مشايخه. . . أما علمه؛ فهو بحر لا ساحل له في أغلب العلوم التي يتناولها بالبحث والشرح».

وقال الشيخ عبد الله الحكمي: «لقد عرفت في فضيلته الدقة العلمية والاستيعاب الواسع لجوانب المباحث المطروحة، متميزاً ـ رحمه الله ـ بدقة فهمه لمختلف مسائل العلم الشرعية، واستيعابه للأصول والقواعد التي تصدر عنها الأحكام، وسرعة استحضاره لكلام أهل العلم من قراءاته في المراجع المختلفة».

ويقول الشيخ عبدالله السعد: «تميَّز ـ رحمه الله ـ بالقوة العلمية، وبالذكاء البين، وسعة الاطلاع على علوم الشريعة؛ سواء كان ذٰلك في علم العقائد في معرفة عقيدة السلف الصالح ومعرفة أقوال الفرق الأخرى وشبهاتهم، أو الفقه وأصوله، أو في علوم التفسير وغير ذٰلك من علوم الشريعة؛ فهو من كبار أهل العلم في هٰذا العصر. . . وقد حدثنا الشيخ عبدالله بن عقيل عن الشيخ عبدالرزاق: أنه كان إذا أراد أن يكتب لا يعرف مسودة ولا مبيضة (يعني أنه كان يكتب الموضوع مرة واحدة)،

---

(١) سيأتي بعض الوقائع الدالة على ذٰلك.

وهٰذا يدل على قوته العلمية».

وبهٰذا يتبين للأخ القارىء العمق العلمي الذي بلغ إليه الشيخ، وقد نقل من عاصر الشيخ وتتلمذ عليه نبوغ الشيخ ـ رحمه الله ـ وقدرته العلمية في أكثر من فن، ومن ذٰلك:

● أولا: سعة معرفته في علم التوحيد:

علم العقيدة والتوحيد من أهمِّ العلوم التي يجب على طالب العلم أن يصرف فيها جلَّ وقته ويبحث من أجل هٰذا العلم عن العالم الذي حسنت عقيدته وسار على منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة؛ حتى يأخذ عنه وهو منشرح البال، واسع الصدر، دون أن يقول: لعله يقصد كذا أو يدعو لكذا.

وبالرغم من أن الشيخ عبدالرزاق ـ رحمه الله ـ درس في الأزهر؛ إلا أنه لم يتأثر بالعقائد الأشعرية والتي تدرس في مصر، بل حماه الله من شر هٰذه العقيدة، ووفقه لسلوك منهج أهل السنة والجماعة قولاً وعملاً واعتقاداً.

يقول الدكتور محمد لطفي الصباغ: «كان من كبار علماء التوحيد على مذهب السلف ـ رحمهم الله ـ، يعرض القضايا الدقيقة فيه بأسلوب ميسَّر واضح، وقد كان ـ رحمه الله ـ واقفاً على كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في هٰذا العلم، ولقد استطاع أن يردَّ ما جاء في «شرح الطحاوية» وهو مقتبس من كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى مواضعه في كتبهما، وقد تضمنت طبعة المكتب الإسلامي الأخيرة للكتاب هٰذه الإحالات».

ويقول الشيخ عبد الله الحكمي: «كان ـ رحمه الله ـ واسع العلم بمسائل العقيدة، شديد التمسك بمذهب السلف الصالح، مع المعرفة التامة بالملل والنحل المختلفة وأصولها التي تصدر عنها عالماً بعوارها ومواطن دحضها».

ويقول الشيخ صالح الأطرم ـ حفظه الله ـ: «كانت عقيدة الشيخ عبد الرزاق في أسماء الله وصفاته وتوحيد العبادة عقيدة السلف الصالح؛ فيفسر «لا إلٰه إلا الله» بلا معبود بحق إلا الله، وهٰذا التفسير هو الحق، وكان ـ رحمه الله ـ في الأسماء والصفات على طريقة السلف الصالح؛ فهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، على حد قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير﴾ [الشورى: ١١].

وكان كثيراً ما ينبهنا على دقائق ولطائف؛ فمن ذٰلك أن أحد مدرسي التفسير أثنى على تفسير الفخر الرازي، وكان عند أحد الكتبيين في الرياض منه نسختان، فسارعت لشراء واحدة وقرأت فيها، ثم ذهبت إلى الشيخ عبدالرزاق وأثنيت على ذٰلك التفسير، وقلت له: لٰكني لم أسمع مشايخنا يذكرونه أو يقرؤنه على الناس! فقال لي بغضب: ألا تدري لماذا؟! ألا تعرف منهجه؟! ثم قال: مشايخك مشايخ عقيدة سلفية، وتفسير الفخر الرازي فيه شوك لا يصلح أن يُقرأ على العامة، ولا يصلح للمبتدئين في التعليم؛ فاستفدت من هٰذه اللفتة من الشيخ: اختلاف المنهجيات، وبيان المراد بها».

وقد كتب ـ رحمه الله ـ عدة مباحث في العقيدة؛ منها:

١| مبحث في مذهب المعتزلة

كان واصل بن عطاء تلميذاً للحسن البصري، وبينما هو جالس في درسه سأل سائل الحسن البصري عن مرتكب الكبيرة: أهو كافر كما يقول وعيدية الخوارج، أو مؤمن لا يضره مع الإيمان ذنب كما يقول مرجئة الأمة؟فتعجل واصل في الجواب وقال: لا هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، وخالف بذلك أهل السنة من السلف؛ فإنهم لا يحكمون بخروج المؤمن من الإيمان بارتكابه الكبيرة، واعتزل مجلس الحسن، وجلس إلى أسطوانة يقرر مذهبه، واجتمع إليه التلاميذ؛ فقال الحسن: اعتزلنا واصل؛ فسمي من تبعه في ذلك المعتزلة، وقيل: سموا بذلك لاعتزالهم رأي الفريقين الخوارج والمرجئة، وليس صحيحاً؛ فإن أهل السنة توسطوا بين الفريقين ولا يسمون بذلك.

الأصول المشتركة بين فرق المعتزلة في الجملة: للمعتزلة أصول اشتركت فيها فرقهم، ولكل فرقة مسائل تميزت بها عن غيرها؛ فمن أصول المعتزلة المشتركة بين طوائفهم:

قولهم: إن أخص أوصاف الله القدم، وبذلك نفوا عنه الصفات خشية تعدد القدماء فقالوا: الله عالم لذاته، قادر لذاته... إلى آخره، أو عالم بعلم هو عين ذاته، وقادر بقدرة هي ذاته لا يعني قائم بالذات.

وقالوا: إن كلام الله مخلوق في محل.

وقالوا بأن الله لا يرى بالأبصار يوم القيامة، وتأولوا كل ما ورد في ذلك، وردوا ما ورد في إثبات صفات قائمة بذات الله وفي إثبات رؤيته من النصوص أو تأولوه على ما يوافق أصلهم، وأخضعوا في ذلك الشرع

للعقل، وبذٰلك خالفوا أهل السنة في الرؤية وإثبات الصفات، وكأنهم أخذوا ذٰلك عن الفلاسفة والجهم بن صفوان زعيم المعطلة، وسموا ذٰلك التعطيل توحيداً.

ومن أقوالهم نفي القدر بمعنى إنكار عموم مشيئته وشمول قدرته سبحانه؛ فالعبد مريد لفعل نفسه الاختياري، خالق له بقدرته التي أودعها الله فيه.

وقال: إن الله حكيم؛ فلا يفعل إلا الصلاح، وأوجبوا عليه بالعقل رعاية ذٰلك، أما الأصلح؛ فقد اختلفوا في وجوبه وسموا ذٰلك عدلاً، وكأنهم أخذوا هٰذا الأصل عن زعماء القدرية؛ كمعبد الجهني وغيلان، وبذٰلك خالفوا أهل السنة أيضاً الذين يثبتون القدر بجميع مراتبه.

ومن أصولهم أن الله يجب عليه عقلاً أن يدخل من مات على الإيمان والطاعة والتوبة مما قد يكون فرط فيه من الذنوب الجنة، ويجب عليه عقلاً أن يدخل من ارتكب كبيرة النار ويخلده فيها، وسموا هٰذا وعداً ووعيداً، وكأنهم أخذوا هٰذا عن الخوارج.

ومن أصولهم أن العقل يدرك حسن الحسن وقبح القبيح؛ فيمكنه معرفة ذٰلك قبل ورود الشرع، ويوجب ذٰلك، ويوجب شكره، ويحرم الكذب والكبر ونحو ذٰلك.

وقالوا: إرسال الرسل بالشرائع إلى العباد إلطاف من الله بهم ليختبرهم؛ فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، ولو لم يرد الشرع؛ لوجب بالعقل فعل الحسن وترك القبيح.

أما فرق المعتزلة؛ فكثيرة، أذكر منها الفرق المشهورة وما تتميز به

كل منها عن الأخرى باختصار:

الواصلية هم اتباع أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال، وكان في أيام عبد الملك وابنه هشام، وكان من الموالي، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ ومات سنة ١٣١هـ، وقرأ كثيرا من العلوم على الحسن البصري، وإليه تنسب الـواصلية (الـذي أسس مذهب الاعتـزال)، ومن بدعهم أنهم تهجمـوا على خيار الصحابة؛ فقالوا في عثمان وقاتليه: أحد الفريقين مخـطيء فاسق، وكـذا قالوا في علي ومقاتليه طلحة والزبير في واقعة الجمل، ومعاوية وعمرو وغيرهما في واقعة صفين، وبنوا على ذلك أن عليّا لو شهد ومعه رجل من أتباعه ردت شهادته، وكذلك قالوا برد شهادة طلحة والزبير ولو على شيء تافه كالمتلاعنين.

٢ مبحث تقديم نصوص الكتاب والسنة على العقل

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

فإن نبينا محمداً ﷺ قد أيده الله بروح من عنده، أيده في التشريع بالوحي، وعصمه في الأخبار عن الكذب؛ فلا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وما كان منه عليه الصلاة والسلام عن اجتهاد أقره الله تعـالى عليه إن أصاب فيه، وكشف له عن الحق وأبان له الصواب إن أخطأ؛ فكان بفضل الله وتوفيقه على بينة وبصيرة من أمره على كل حال، لم يكِله الله لنفسه ولم يدعه لحصن تفكيره، بل هداه سبحانه في كل شؤونه إلى سواء السبيل.

لقـد أنـزل الله عليه القـرآن هدى للنـاس وبينـات من الهـدى والفـرقـان، وأوحى إليه من الأحاديث ما فيه بيان لما أجمل في القرآن

وتفصيل لقواعده وشرح للعقائد والشرائع؛ فضلاً من الله ورحمة والله عليم حكيم.

قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٤]؛ فوجب تصديق ما جاء في كتاب الله وما صح من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وتحكيمها في كل شأن من الشؤون، والرضا والتسليم لحكمها دون حرج أو ضيق في الصدور؛ تحقيقاً للإيمان، وتطهيراً للقلوب من درن الشرك والنفاق.

قال الله تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ [النساء: ٦٥].

ولا يغترن إنسان بما آتاه الله من قوة في العقل وسعة في التفكير وبسطة في العلم؛ فيجعل عقله أصلاً، ونصوص الكتاب والسنة الثابتة فرعاً، فما وافق منهما عقله قبله واتخذه ديناً، وما خالفه منها لوى به لسانه وحرفه عن موضعه وأوله على غير تأويله إن لم يسعه إنكاره، وإلا؛ رده ما وجد في ظنه إلى ذٰلك سبيلاً؛ ثقة بعقله، واطمئناناً إلى القواعد التي أصَّلها بتفكيره، واتهاماً لرسول الله ﷺ، أو تحديداً لمهمة رسالته وتضييق الدائرة لما يجب اتباعه فيه، واتهاماً لثقات الأمة وعدولها وأئمة العلم وأهل الأمانة الذين نقلوا إلينا نصوص الشريعة ووصلت إلينا عن طريقهم قولاً وعملاً؛ فإن في ذٰلك قلباً للحقائق، وإهداراً للإنصاف، مع كونه ذريعة إلى تقويض دعائم الشريعة؛ مما يؤدي إلى القضاء على أصولها؛ إذ طبائع الناس مختلفة، واستعدادهم الفكري متفاوت، وعقولهم متباينة، وقد تتسلط عليهم الأهواء ويشوب تفكيرهم الأغراض؛

فلا يكادون يتفقون على شيء ـ اللهم ـ إلا ما كان من الحسيّات أو الضروريات.

فأي عقل من العقول يجعل أصلاً يحكم في نصوص الشريعة؛ فترد أو تنزل على مقتضاه فهماً وتأويلاً؛ أعقل الخوارج في الخروج على الولاة وإشاعة الفوضى وإباحة الدماء؟! أم عقل الجهمية في تأويل نصوص الأسماء والصفات وتحريفها عن موضعها وفي القول بالجبر؟! أم عقل المعتزلة ومن وافقهم في تأويل نصوص أسماء الله وصفاته ونصوص القضاء والقدر وإنكار رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة؟! أم عقل الغلاة في إثبات الأسماء والصفات والغلاة في سلب المكلفين المشيئة والقدرة على الأعمال؟! أم عقل من قالوا بوحدة الوجود. . . إلخ.

ولقد أحسن العلاّمة أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ رحمه الله ـ؛ إذ يقول: «ثم المخالفين للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتناولين لهٰذا الباب في أمر صريح؛ فإن من ينكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها وأنه مضطر فيها إلى التأويل، ومن يحيل أن لله علماً وقدرة وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذٰلك؛ يقول: إن العقل أحال ذٰلك فاضطر إلى التأويل، بل من ينكر حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقيين في الجنة يزعم أن العقل أحال ذٰلك وأنه مضطر إلى التأويل، ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش؛ يزعم أن العقل أحال ذٰلك وأنه مضطر إلى التأويل.

ويكفيك دليلاً على فساد قول هٰؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوز وأوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله؛ فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة؟! فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس؛ حيث قال: «أوكلما جاء

رجـل أجـدل من رجـل تركنـا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هٰؤلاء؟!». انتهى.

هٰذا وإن فريقاً ممن قدسوا عقولهم، وخدعتهم أنفسهم، واتهموا سنة نبيهم؛ قد أنكروا رفع الله نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء وحياً بدناً وروحاً ونزوله آخر الزمان حكماً عدلاً، لا لشيء سوى اتباعِ ما تشابه من الآيات دون ردها إلى المحكم منها؛ اتباعاً لما ظنوه دليلاً عقليّاً وما هو إلا وهم وخيال.

وردوا ما ثبت من سنـة النبي ﷺ نزولاً على ما أصلوه من عنـد أنفسهم من أن العقائد لا يُستدل عليها بأحاديث الآحاد، واتهاماً لبعض الصحابة ومن إليهم فيما نقلوا من الأحاديث في ذٰلك؛ جرأة منهم على الثقات الأمناء من أهل العلم والعرفان دون حجة أو برهان، وتطاولوا على علماء الحديث وتناولوا رجال الجرح والتعديل بألسنة حداد؛ جهلاً منهم بما قدموه من خدمة للدين وحفظ الأصل الثاني من أصول الإسلام وهو السنة النبوية، وعجزاً منهم عن أن يهضموا ما دوَّن أولئك الأئمة الأخيار من كتب في قواعد علوم الحديث ودواوين في تاريخ رواة الحديث وبيان درجاتهم ومراتبهم في الرواية وطبقاتهم ومواليدهم ووفياتهم ولقاء بعضهم بعضـاً أو سمـاعـه تمييزاً لمن تقبل روايته ممن ترد روايته وما يقبل من الأحاديث وما يرد وذبّاً عن السنة النبوية وحفاظاً عليها.

ومع هٰذا اغتر بعض الناشئة من طلبة العلم بهٰؤلاء المتهمين للسنة الصحيحة برواتها، المعتدين على سلف الأمة وأئمتها.

وتردد آخرون وتساءلوا بينهم؛ فكتبوا إلى الرئاسة العامة لإدارات

البحوث العلمية والإفتاء يستفسرون عما أشكل عليهم من ذٰلك؛ فأجابتهم اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بما يناسب الحال ويقضي حاجة السائلين، وفيما يلي ذكر ما يرد منهم إلى اللجنة من الأسئلة المتعلقة برفع عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام حيّاً إلى السماء، ونزوله آخر الزمان حكماً عدلاً، وإيمان جميع أهل الكتاب بدعوته، وما أجابت به اللجنة عن هٰذه الأسئلة.

٣| بحث في الحكم بغير ما أنزل الله

قال الله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم إن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً . يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذٰلك خير وأحسن تأويلاً**﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

أمر الله جل شأنه جميع الناس أن يرد كل منهم ما لديه من أمانة إلى أهلها أيّاً كانت تلك الأمانة؛ فعم سبحانه بأمره كل مكلف وكل أمانة؛ سواء كان ما ورد في نزول الآية صحيحاً أم غير صحيح، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم أوصى سبحانه من وكل إليه الحكم في خصومة أو الفصل بين الناس في أمر ما أن يحكم بينهم بالعدل؛ سواء كان محكماً أو ولي أمر عام أو خاص، ولا عدل إلا ما جاء في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ؛ فذٰلك الهدى والنور والصراط المستقيم.

ثم أثنى على ما أسداه إلى عباده من الموعظة؛ إغراءً لهم بالقيام

بحقها والوقوف عند حدودها، وختم الآية بالثناء على نفسه بما هو أهله من كمال السمع والبصر؛ ترغيباً في امتثال أمره ورجاء ثوابه، وتحذيراً من مخالفة شرعه خوف عقابه.

ثم أمر تعالى المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ مطلقاً؛ لأن الوحي كله حق، وأمر بطاعة أولي الأمر فيما وضح أمره من المعروف؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما دلت عليه النصوص الثابتة الصريحة في ذلك، فإن اشتبه الأمر ووقع النزاع؛ وجب الرجوع في بيان الحق والفصل فيما اختُلف فيه إلى الكتاب والسنة؛ لقوله سبحانه:

﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ [النساء: ٨٩].

وقوله: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾.

وأمثال ذلك من نصوص الكتاب والسنة؛ فإن الرجوع إليها عند الحيرة أو النزاع خير عاقبة وأحسن مآلاً، وهذا إنما يكون فيما فيه مجال للنظر والاجتهاد، فمن بذل جهده ونظر في أدلة الشرع وأخذ بأسباب الوصول إلى الحق؛ فهو مأجور أجران إن أصاب حكم الله، ومعذور مأجور أجراً واحداً إن أخطأه، وله أن يعمل بذلك في نفسه، وأن يحكم به بين الناس ويعلمه الناس مع بيان وجهة نظره المستمدة من أدلة الشرع على كلتا الحالتين؛ بناءً على قاعدة التيسير ودفع الحرج، وعملاً بقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن: ٦١].

وبقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر؛ فأتوا منه ما استطعتم».

وبقوله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب؛ فله أجران، وإذا

حكم فاجتهد فأخطأ؛ فله أجر واحد». رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه.

ومن لم يبذل جهده في ذلك، ولم يسأل أهل العلم، وعبد الله على غير بصيرة، أو حكم بين الناس في خصومة؛ فهو آثم ضال مستحق العذاب إن لم يتب ويتغمده الله برحمته، قال الله تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولٰئك كان عنه مسؤولاً﴾** [الإسراء: ٣٦].

وكذا من علم الحق ورضي بحكم الله، لٰكن غلبه هواه أحياناً؛ فعمل في نفسه أو حكم بين الناس في بعض المسائل أو القضايا على خلاف ما علمه من الشرع؛ لعصبية أو لرشوة مثلاً؛ فهو آثم، لٰكنه غير كافر كفراً يُخرج من الإسلام إذا كان معترفاً بأنه أساء ولم ينتقص شرع الله ولم يسىء الظن به، بل يحز في نفسه ما صدر منه، ويرى أن الخير والصلاح في العمل بحكم الله تعالى.

روى الحاكم عن بريدة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: قاضٍ عرف الحق فقضى به؛ فهو في الجنة، وقاضٍ عرف الحق فجار متعمداً، أو قضى بغير علم؛ فهما في النار».

ثانياً: من كان منتسباً للإسلام عالماً بأحكامه، ثم وضع للناس أحكاماً وهيأ لهم نظماً ليعملوا بها ويتحاكموا إليها وهو يعلم أنها تخالف أحكام الإسلام؛ فهو كافر خارج من ملة الإسلام، وكذا الحكم فيمن أمر بتشكيل لجنة أو لجان لذٰلك.

ومن أمر الناس بالتحاكم إلى تلك النظم والقوانين أو حضهم على التحاكم إليها وهو يعلم أنها مخالفة لشريعة الإسلام، وكذا من تولى الحكم بها وطبقها في القضايا، ومن أطاعهم في التحاكم إليها باختياره مع علمه بمخالفتها للإسلام؛ فجميع هٰؤلاء شركاء في الإعراض عن حكم الله، لٰكن بعضهم يضع تشريعاً يضاهي به تشريع الإسلام ويناقضه على علم منه وبينة، وبعضهم بالأمر بتطبيقه أو حمل الأمة على العمل به أو ولي الحكم به بين الناس أو تنفيذ الحكم بمقتضاه، وبعضهم بطاعة الولاة والرضا بما شرعوا لهم مما لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطاناً؛ فكلهم قد اتبع هواه بغير هدى من الله، وصدق عليهم إبليس ظنه؛ فاتبعوه وكانوا شركاء في الزيغ والإلحاد والكفر والطغيان، ولا ينفعهم علمهم بشرع الله واعتقادهم ما فيه مع إعراضهم عنه وتجافيهم لأحكامه واستبداله بتشريع من عند أنفسهم وتطبيقه والتحاكم إليه؛ كما لم ينفع إبليس علمه بالحق واعتقاده إياه مع إعراضه عنه وعدم الاستسلام والانقياد إليه، وبهٰذا قد اتخذوا هواهم إلٰهاً؛ فصدق فيهم قوله تعالى:

﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾[الجاثية: ٢٣].

وقوله: **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾** [الشورى: ٢١].

وقوله: **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً**

قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولٰئك هم الكافرون. . .﴾ الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. . .﴾ إلى قوله: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٤٤ - ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يُضلَّهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. . .﴾ إلى قوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

إن هٰؤلاء قد صدوا عن تحكيم شرع الله؛ انتقاصاً له، وإساءة للظن بربهم الذي شرعه لهم، وابتغاء الكمال فيما سولته لهم أنفسهم وأوحى به إليهم شياطينهم، وكان لسان حالهم يقول: إن شريعة الكتاب والسنة نزلت لزمان غير زماننا ليعالج مشاكل قوم تختلف أحوالهم عن أحوالنا، وقد يجدي في إصلاحهم ما لا يناسب أهل زماننا؛ فلكل عصر شأنه ولكل قوم حكم يتفق مع ظروفهم ونوع حضارتهم وثقافتهم؛ فكانوا كمن أمر الله رسوله أن ينكر عليهم ويسكتهم بقوله: ﴿أفغير الله أبتغي حَكَماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً. . .﴾ إلى قوله: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾[الأنعام: ١١٤ - ١١٥].

وكانوا ممن حقت عليهم كلمة العذاب، وحكم الله عليهم بأن لا خلاق لهم في الآخرة بقوله: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** [آل عمران: ٨٥].

لقد استهوى الشيطان هٰؤلاء المغرورين؛ فزين لهم أن يسنُّوا قوانين من عند أنفسهم ليتحاكموا إليها ويفصلوا بها في خصوماتهم، وسول لهم أن يضعوا قواعد بمحض تفكيرهم القاصر وهواهم الجائر لينظموا بها اقتصادهم وسائر معاملاتهم؛ محادة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانتقاصاً لتشريعهما؛ زعماً منهم أن تشريع الله لا يصلح للتطبيق والعمل به في عهدهم، ولا يكفل لهم مصالحهم، ولا يعالج ما جدَّ من مشاكلهم حيث اختلفت الظروف والأحوال عما كانت عليه أيام نزول الوحي واتسع نطاق المعاملات وكثرت المشكلات؛ فلا بد لتنظيم المعاملات والفصل في الخصومات من قوانين وقواعد جديدة يضعها المفكرون من أهل العصر والواقفون على أحوال أهله، المطلعون على المشاكل، العارفون بأسبابها وطرق حلها؛ لتكون مستمدة من واقع الحياة، فتتناسب مع أحوال الناس وظروفهم الحاضرة ومع مستوى ثقافتهم وحضارتهم.

فهٰؤلاء قد طغى عليهم الغرور؛ فركبوا رؤوسهم، ولم يقدروا عقولهم قدرها ولم ينزلوها منزلتها، ولم يقدروا الله حق قدره ولم يعرفوا حقيقة شرعه ولا طريق تطبيق منهاجه وأحكامه، ولم يعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علماً؛ فعلم ما كان وما سيكون من اختلاف الأحوال وكثرة المشاكل، وأنه أنزل شريعة عامة شاملة وقواعد كلية محكمة وقدرها بكامل علمه وبالغ حكمته؛ فأحسن تقديرها، وجعلها صالحة لكل زمان

ومكان؛ فمهما اختلفت الطبائع والحضارات وتباينت الظروف والأحوال؛ فهي صالحة لتنظيم معاملات العباد وتبادل المنافع بينهم، والفصل في خصوماتهم وحل مشاكلهم، وصلاح جميع شؤونهم في عباداتهم ومعاملاتهم.

إن العقول التي منحها الله عباده ليعرفوه بها وليهتدوا بفهمها لتشريعه إلى ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل قد اتخذوا منها خصماً لدوداً لله؛ فأنكر حكمته وحسن تدبيره وتقديره، وضاق صدره ذرعاً بتشريعه، وأساء الظن به؛ فانتقصه ورده، وقد يصابون بذلك وهم لا يدرون؛ لأنهم بغرورهم بفكرهم عميت عليهم معالم الحق والعدل، فكانوا من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وكانوا ممن بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار.

إن الله سبحانه كثيراً ما يذكّر الناس في القرآن بأحوال المعتدين الهالكين، ويحثهم أن يسيروا في الأرض لينظروا ما كانوا فيه من قوة ورغد عيش وحضارة وبسطة في العلم نظر عظة واعتبار؛ ليتنكبوا طريقهم اتقاءً لسوء سيرهم، ولفت النظر في بعض الأمور إلى جريمة الغرور الفكري لشدة خطره، وبين أنه الفتنة الكبرى التي وقعوا بها في سور الرسل وردوا بها دعوتهم؛ ليعرفنا بقصور عقول البشر أنها لا تصلح لمقاومة دعوة الرسل، وليحذرنا من خطر الغرور الفكري الذي هلك به من قاوم المرسلين، قال تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوةً وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما**

عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

وله ـ رحمه الله ـ مباحث أخرى في العقيدة؛ منها:

١ ـ مبحث في «أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وأنهما باقيتان لا تفنيان».

٢ ـ مبحث في «العرش والكرسي وما يتعلق بهما»، وهي رسالة مخطوطة من ستة صفحات.

٣ ـ رسالة في «وجوب الإيمان بالبعث، وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان»[1].

وسيأتي إن شاء الله في مؤلفاته ذكر رسائل أخرى.

● ثانياً: سعة معرفته في علم التفسير:

تفسير كتاب الله ليس بالأمر السهل، ولا يقدم عليه إلا من حباه الله علماً في شتى الفنون، ولأن الشيخ عبدالرزاق كان موسوعي

---

(١) انظر صورة للصفحة الأولى من هذه الأبحاث في الملحق، وهي بخط الشيخ رحمه الله.

المعرفة؛ فقد أثر ذلك إيجاباً على تفسيره لكلام الله سبحانه؛ فقد كان يفسر القرآن بأسلوب شيق يأخذ الألباب ويستهوي النفوس دون أن تكل أو تمل، وكان يبقى مع الآية الواحدة الوقت الطويل يستنبط الحكم والعبر والعظات في منهج يظهر منه بلاغة القرآن وإعجازه، ومن استمع إلى أشرطته؛ وجد مصداق ما قلته.

قال الدكتور محمد لطفي الصباغ: «كان مفسراً عظيماً، وإن أنسَ؛ فلا أنسَ دروسه الرائعة في تفسيره القرآن التي كان يلقيها في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ في دخنة في الرياض، وكنت ملازماً لها، وذلك من فضل الله عليّ.

لقد كان يغوص في المعاني العميقة في الآية، ويذكر ارتباطها بما قبلها وبما بعدها، ويصل بين تلك المعاني وبين حياة الناس، ويشير إلى أسرار البلاغة ونواحي الإعجاز فيها، وكان لا يرضى تأويل المتأخرين ولا المعاصرين المفتونين بحضارة الغرب، الذين تزعزعت عندهم الغيبيات؛ فراحوا يؤولون النصوص تأويلاً متكلفاً بعيداً».

يقول شيخنا العلامة عبدالله بن جبرين ـ حفظه الله ـ: «وعرفته ـ رحمه الله ـ في أحد الأعوام يفسر سورة سبأ في مسجد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ؛ فكان يبقى في تفسير الآيتين نحو ساعة أو أكثر، ويستنبط من الآيات فوائد وأحكاماً وأقوالاً وترجيحات يظهر منها عظمة القرآن وما فيه من الاحتمالات والفوائد، وذلك مما يدل على توسع

الشيخ وسعة اطلاعه وكثرة معلوماته» اهـ.

من تفسير الشيخ ـ رحمه الله ـ: فسر ـ رحمه الله ـ سوراً كثيرةً ومنها سورة الكوثر؛ فقد فسرها باختصار في أحد جلساته التي تعقد في منزله رحمه الله، وإتماماً للفائدة انقل ما ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ في تفسير هٰذه السورة.

قال تعالى: **﴿إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر﴾** [الكوثر: ١ ـ ٣].

قال ـ رحمه الله ـ: «هٰذه السورة أنزلها الله جل شأنه على رسوله عليه الصلاة والسلام حينما رماه قومه المشركون بأنه أبتر، وذٰلك أن الله جل شأنه ابتلاه في أولاده الذكور فماتوا جميعاً؛ فقالوا: إنه أبتر لانقطاع نسله، وكانوا يعتبرون الذكور هم النسل وهم الأساس وهم العصبة الذين يحيون ذكره بعد وفاته، والذين قالوا هٰذا عدةٌ من كبار المشركين ووجهائهم؛ كأبي لهب، والعاص بن وائل، وكعب بن الأشرف، وغير هٰؤلاء، القصد أنهم جملة اتفقت كلمتهم على أن ذكرى رسول الله ﷺ ستموت بموته؛ لأنه لم يُعقد ابناً، بل ماتوا جميعاً؛ فالله سبحانه وتعالى كذبهم في هٰذا، وبشره بأنه قد أعطاه فضلاً منه وإحساناً الخير الكثير الذي منه الكوثر الذي ذكره في الأحاديث الصحيحة، ومنها النبوة، ومن ذٰلك ذكره عليه الصلاة والسلام في الأذان والإقامة، ذكره بالرسالة كذكر الله سبحانه بالوحدانية، وأعطاه غير ذٰلك من الخيرات التي لا تحصى ولا تعد، منها ما عجّله له في الدنيا؛ من نصر وتأييد، وكثرة أتباع، وانتشار دينه وبقائه حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ فكذبهم بما أعطاه

من البشـريات العـديدة العـاجلة والآجلة، وأمره أن يشكر هٰذه النعمة بإخلاص العبادة له؛ فلا يصلي إلا له، ولا ينسك النسك إلا له وحده لا شريك له.

وبين له أيضاً أنه إلى جانب هٰذه البشريات وإلى ما أمره به من الشكر وإخلاص القربات له؛ أن أعداءه وخصومه هم البتر الذين تنقطع ذكراهم ويخسرون الدنيا والآخرة.

فأما البشرى بالخير الكثير في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾، والكوثر: هو الخير الكثير، ومنه الحوض المورود الذي يُعطاه النبي ﷺ يوم القيامة، وأما الشكر على نعمة هٰذه البشريات التي بشره الله بها؛ فقد تضمنتها الآية الوسطى من هٰذه الآيات الثلاث، وهي قوله تعالى: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾.

وأما النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليه؛ فهي العقوبة التي عاقب بها خصومه مثل أبي جهل وأبي لهب والعاص بن وائل وكعب بن الأشـرف وعقبـة بن أبي معيط وأمثالهم من الذين جرت على ألسنتهم الكلمة الرديئة والخبيثة، وأنه سيقطع ذكره بوفاته؛ فذكر الله جل شأنه أن شانئه ومبغضه هو الأبتر المنقطع ذكره في الدنيا الخاسر في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾.

فالآيات: آية بالبشـرى بالخير الكثير، وآية فيما أوجبه الله عليه من الشكر بالإخلاص في القربات له سبحانه وتعالى قوله: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾، والآية الثالثة هي ما أصيب به خصومه من انقطاع الذكريات بعد وفاتهم وخسرانهم الدنيا والآخرة: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾، وهٰذا أمر

عام وسنة الله في خلقه؛ القائم بالحق ينصره الله وتحيا ذكراه وإن لم يكن له أولاد، والذكرى المعتبرة ترجع إلى الإصلاح في الدنيا وإلى السعادة في الآخرة».

وله ـ رحمه الله ـ أشرطة في تفسير بعض الآيات القرآنية، منها تفسير سورة «الفاتحة» وغيرها.

● ثالثاً: سعة معرفته في علوم الحديث:

سنة النبي ﷺ هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، ولا غرو أن نرى اهتمام العلماء من عهد النبي ﷺ ومن بعده بالحديث، وتمييز الصحيح من الضعيف، وقد قام العلماء بجهود عظيمة في خدمة الحديث وعلومه، ولهٰذا السبب جدّ الشيخ عبدالرزاق بن عفيفي ـ رحمه الله ـ في هٰذا الفن حتى برَّز فيه، وكان له عناية فائقة بعلم العلل، وهو علم عظيم لا يجيده إلا جهابذة العلماء.

قال شيخنا العلَّامة عبدالله بن جبرين: «عرفت الشيخ عبدالرزاق لأول مرة عام ١٣٧٤هـ، وكان يزور بعض المشايخ كالشيخ عبدالعزيز بن محمد الشثري، ونقرأ عليه في المجلس حديثاً من أول «صحيح البخاري»؛ فيشرحه شرحاً موسعاً، بحيث يستغرق شرح الحديث الواحد أكثر الجلسة».

قال الدكتور محمد لطفي الصباغ: «كان محدثاً كبيراً قل أن يخفى عليه حديث، وكانت له مقدرة متميزة في تخريج الحديث والحكم عليه، وقد يرى في بعض الأحاديث من الرأي الصحيح ما لا تجده عند غيره؛ سواء في تحديد درجته، أم في فهمه والوقوف على دلالته، وله عناية

خاصة بكتب الرجال، وقد بلغ من عنايته أنه فقد جزءً من كتب الرجال؛ فكتبه بخطِّه وجلَّده، ولما رآه بعض الولوعين بحفظ آثار عظماء العلماء؛ استهداه هٰذا الجزء؛ فأهداه إياه».

وله عدة مباحث تتعلق بعلم الحديث؛ منها شروح لبعض الأحاديث، ومنها دراسة لبعض الأسانيد مثل دراسة جمع فيها طرق قصة الغرانيق وما فيها من علل ختمها بقول ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ: «إن هٰذه القصة من وضع الزنادقة».

● رابعاً: سعة معرفته في الفقه وأصوله:

علم الفقه علم شريف ومهم، ولا يُنكر فضلَه وشرفه؛ إلا جاهل به؛ لأن الإنسان عدو لما يجهله.

وفي أهمية الفقه يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «الفقه عليه مدار العلوم... فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم؛ فليكن من الفقه؛ فإنه الأنفع».

كان للشيخ ـ رحمه الله ـ عناية خاصة بكتب الفقهاء ومعرفة تامة بأقوال العلماء، وهو من العلماء المعدودين في هٰذه البلاد الذين يفرقون في تدريسهم بين علم الفقه والحديث؛ فيقصرون درس الفقه على تصوير المسألة وتقرير المذهب وذكر الراجح بدليله، أمَّا في درس الحديث؛ فتأتي الخلافات وبيان المفردات والأدلة والاعتراضات، وهي من أنفع أساليب التعلم.

يقول الشيخ عبدالله الحكمي: «كان ـ رحمه الله ـ في علم الفقه سريع الاستحضار للأحكام الشرعية، محيطاً بأدلتها، عالماً بقواعدها

وأصـولهـا، مدركـاً لأشبـاه المسـائـل ونظائرها، سديد الرأي، صائب الاجتهاد، يفتي السائل حسب مستواه من الجهل والعلم».

يقول الدكتور محمد الصباغ: «كان ـ رحمه الله ـ فقيهاً مجتهداً، ومـا كان يرضى التعصب لمـذهب من المـذاهب مع إحاطة بها لم أرَ مثلها، بل كان يمشي مع الدليل، وقد تكونت لديه ملكة فقهية عظيمة.

وكـان ـ رحمه الله ـ إذا سُئل لا يتسرع بالإجابة، بل يسأل عن دقـائق المـوضوع المطروح حتى يستوعبه، ويقوم عنده تصور صحيح للموضوع ثم يجيب.

أما فهمه لعبارات الأقدمين في كتبهم؛ فقد كان شيئاً مدهشاً حقّاً، وبعض العبـارات بالغة التعقيد بسبب الرغبة عند هٰؤلاء المتقدمين في الفقـه تحميل الألفـاظ القليلة المعـاني الكثيرة... لقد كان ينظر في العبارة العويصة؛ فيحلها ويشير إلى مراميها ومقاصد كاتبها على نحو لا تجده إلا عند قليل من أهل العلم».

وللشيخ ـ رحمه الله ـ مجموعة من الأبحاث الفقهية، ومنها:

١ ــ «حكم البيع في البورصة»: مذكرة كتبها باسم اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

٢ ــ «وجهة نظر في تحديد نهاية ذبح هدي التمتع والقران»(١).

٣ ــ «الوقوف بعرفة والنزول بمزدلفة»(٢).

---

(١) وقد أثبتها في: (ص ٨٦).

(٢) انظر: الملاحق (ص ٣٦٤).

٤ ــ «عدد صلاة التراويح»[١].

وله تقارير عن بعض الكتب الفقهية، مثل:

١ ــ كتاب «الكافي» لابن عبدالبر[٢].

٢ ــ كتاب «فقه السنة» لسيد سابق[٣].

أما في أصول الفقه؛ فقد كان ـ رحمه الله ـ أصوليّاً متبحراً في هٰذا العلم العظيم (علم أصول الفقه)، واقفاً على دقائقه، مطلعاً على كتبه، مستحضراً لما فيها، فإذا سألته عن كتاب من كتب الأصول؛ ذكر لك خصائصه ومزاياه وطريقته، والمآخذ التي قد تؤخذ عليه، وقد كان معجباً بكتاب «المستصفى» للغزالي وبكتاب «الموافقات» للشاطبي[٤].

وقد كتب ـ رحمه الله ـ كلمة موجزة عن تاريخ أصول الفقه، جعلها في مقدمة كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» الذي قام بتحقيقه والتعليق عليه، يقول رحمه الله:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

كلمة موجزة عن تاريخ أصول الفقه:

أحمدك اللهم حمداً يليق بجلالك، وأشكرك شكراً يوافي نعمك ويكافىء مزيدك، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على

---

(١) انظر الملاحق: (ص ٣٦٢).

(٢) انظر: (ص ٢٤٤).

(٣) انظر: (ص ٣٧١).

(٤) رسالة الدكتور محمد لطفي الصباغ في ترجمة الشيخ.

نفسك، وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك؛ شهادة تكفر بها عنا السيئات، وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات، وأشهد أن محمداً عبدك المُرتضى، ونبيك المُجتبى، ورسولك المُصطفى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فأصول الفقه من العلوم التي عم نفعها، وعظمت فائدتها؛ فقد استطاع به المجتهدون فطرة واستعداداً أو دراسةً واكتساباً أن يستثمروا نصوص الشريعة، وأن يستنبطوا بها الأحكام من أدلتها التفصيلية على أكمل وجه وأتقنه وأوضح طريق وأبينه، ووقف من عُني بدراسته من العلماء المقلدين على مآخذ الأئمة المجتهدين ومداركهم، وعرفوا طريقهم في اجتهادهم ومذاهبهم في استنباطهم؛ فطبقوا قواعدهم على ما جد من أقضية، واستخرجوا على أصولهم أحكاماً في كثير من المسائل نسبوها إليهم تخريجاً؛ حيث لم يثبت عنهم فيها حكم نصّاً.

وقد يبلغ من يُعنى بعلم الأصول ويأخذ نفسه بدراسة قواعده استدلالاً عليها وتطبيقاً لها على نهج من تقدمه من الأئمة أن يكون مجتهداً مطلقاً، يعتمد في بحثه على أصول الشريعة، ويرجع إلى أدلتها ويستنبط منها الأحكام، وربما كان هٰذا أيسر له وأعم نفعاً وأسلم عاقبة من اجتهاده في المسائل على مقتضى أصول إمام معين واستخراج الفروع على أصوله.

وقد كانت العربية سليقة للصحابة رضي الله عنهم، وبلغتهم نزل القرآن، وبها بيَّنه النبي ﷺ؛ فكانوا يعرفون مقصد الكلام ومغزاه من لحن القول وفحواه، وقد شهدوا عهد الوحي والتنزيل، ولزموا النبي ﷺ في سفره وإقامته، وكانوا مع ذٰلك على جانب عظيم من الفطنة والذكاء

وسلامة الذوق ونور البصيرة والحرص على التشريع علماً وعملاً؛ فوقفوا على أسرار الشريعة ومقاصدها، ولم يجدوا في أنفسهم حاجة إلى دراسة قواعد يستعينون بها في استثمار نصوص الشريعة، ولا ضرورة تلجئهم إلى تدوين أصول يُرجَع إليها في استنباط الأحكام من الأدلة.

وقد سار التابعون على مدرجتهم وسلكوا سبيلهم؛ فاستغنوا غناهم لقرب العهد بالوحي، وقوة الصلة بالصحابة، وكثرة الأخذ عنهم والمخالطة لهم، وغلبة السلامة على اللغة العربية من الكلمات الدخيلة.

ولما بعد العهد بزمن النبوة، وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الفرس والروم، وترجم كثير من الكتب اليونانية وغيرها إلى اللغة العربية أيام الدولة العباسية؛ استعجم كثير من العرب في لغتهم وأساليب كلامهم، وتأثرت أذواقهم، واختلفت مناهجهم، وتغيرت أغراضهم في نثرهم وشعرهم، واللغة العربية لغة الكتاب والسنة أسلوباً ومنهجاً، ومقصداً ومغزى؛ فهي الطريق إلى فهمهما، والعمدة في إدراك أسرارهما، وعليها يتوقف معرفة كثير من وجوه إعجاز القرآن، فلذا عُني العلماء بحفظها في جوانبها المختلفة بشتى الوسائل، وتوسعوا في تدوين قواعدها، وبدؤوا يضعون قواعد أصول الفقه، وساعدهم على ذلك ما وقفوا عليه في الكتب المترجمة من صناعة التأليف ونظام التقعيد وحسن التبويب والترتيب.

وزاد تدوين أصول الفقه سهولة أن قواعده عند علماء الحديث في الحجاز وعلماء الرأي في العراق بدأت تتمايز في نقاش المجتهدين من الفريقين، وتظهر في حجاجهم واستدلالهم وإن لم تكن مدونة لديهم.

وكان أول من عني بتدوين أصول الفقه فيما اشتهر بين العلماء أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي؛ فأملى كتابه المعروف بـ «الرسالة»، وكتبه عنه الربيع بن سليمان المرادي، وقد جمع في إملاء الرسالة بين أمرين إجمالاً:

الأول: تحرير القواعد الأصولية، وإقامة الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وإيضاح منهجه في الاستدلال، وتأييده بالشواهد في اللغة العربية.

الثاني: الإكثار من الأمثلة لزيادة الإيضاح، والتطبيق لكثير من الأدلة على قضايا في أصول الشريعة وفروعها، مع نقاش للمخالفين تزيده جزالة العبارة قوة، وتكسبه جمالاً؛ فكان كتابه قاعدة محكمة بنى عليها من جاء بعده، ومنهجه فيه طريقاً واضحاً سلكه من ألف في هٰذا العلم وتوسع فيه.

وقد تبعه في الأمرين أبو محمد علي بن حزم في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام»، بل كان أكثر منه سرداً للأدلة النقلية مع نقدها، وإيراداً للفروع الفقهية مع ذكر مذاهب العلماء فيها وما احتجوا به عليها، ثم يوسع ذٰلك نقداً ونقاشاً ويرجح ما يراه صواباً.

غير أن أبا محمد ـ وإن كان غير مدافع في سعة علمه واطلاعه على النصوص، وتمييز صحيحها من سقيمها، والمعرفة بمذاهب العلماء وأدلتها، وإيراد ذٰلك في أسلوب رائع وعبارات سهلة واضحة ـ؛ لم يبلغ مبلغ الشافعي؛ فقد كان الشافعي أخبر منه بالنقل، وأعرف بطرقه، وأقدر على نقده، وأعدل في حكمه، وأدرى بمعاني النصوص ومغزاها، وأرعى لمقاصد الشريعة وأسرارها وبناء الأحكام عليها، مع

جزالة في العبارة تذكِّر بالعربية في عهدها الأول، ومع حسن أدب في النقد، وعفة لسان في نقاش الخصوم والرد على المخالفين.

ولو سلك المؤلفون في الأصول بعد الشافعي طريقته في الأمرين تقعيداً واستدلالاً وتطبيقاً وإيضاحاً بكثرة الأمثلة، وتركوا الخيال وكثرة الجدل والفروض، واطرحوا العصبية في النقاش والحجاج، ولم يزيدوا إلا ما تقتضي طبيعة النماء في العلوم إضافته من مسائل وتفاصيل لما أصّل في الأبواب، وإلا ما تدعو إليه الحاجة من التطبيق والتمثيل من واقع الحياة للإيضاح كما فعل ابن حزم؛ لسهل هٰذا العلم على طالبيه، ولانتهى بمن اشتغل به إلى صفوف المجتهدين من قريب.

ولٰكن اختلفوا؛ فأخذ كلٌّ جانباً؛ فمنهم من عني بالقواعد وإثباتها بالأدلة عقلاً ونقلاً مع بسط القول ووضوح العبارة في سوق الأدلة ونقاشها وضوحاً لا يعوز القارىء إلى شرح أو بيان.

غير أنهم قصروا في جانب الأمثلة والتطبيق؛ فلا يوجد في كتبهم من ذٰلك إلا النزر اليسير، ثم هو تقليدي يرثه الآخر عن الأول؛ فلا تنوع ولا تجديد، ولا تطبيق لما جدَّ من القضايا في العهود المختلفة، وأكثروا مع ذٰلك من الجدل والخيال والفروض وألوان الاحتمال، وذكر مسائل لا تدعو لها الحاجة، وقد عُرفت هٰذه الطريقة بطريقة علماء الكلام، وممن نسج على منوالها في تأليفه: أبو الحسين محمد بن علي البصري المعتزلي الشافعي في كتابه «المعتمد»، وأبو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني الأشعري الشافعي الشهير بإمام الحرمين في كتابه «البرهان»، وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي الأشعري الشافعي في كتابه «المستصفى»؛ فهٰؤلاء ومن سلك سبيلهم لم يراعوا في تأليفهم

فروع مذهب معين، إنما همهم تفصيل القواعد الأصولية وإيضاحها بالأمثلة، وذكر خلاف العلماء فيها والاستدلال عليها، ومناقشة الأدلة وترجيح ما يرونه.

وقد جمع ما في هٰذه الكتب فخر الدين محمد بن عمر الرازي الأشعري الشافعي في كتابه «المحصول»، وأبو الحسن علي بن أبي علي محمد بن سالم السيف الآمدي الأشعري الشافعي في كتابه «الإحكام»، مع بسط في القول ووضوح في العبارة.

ومنهم من أكثر من المسائل الفقهية، وعني فيها بالانتصار لمذهب معين، وقرر إلى جانبها قواعد أصولية على ضوء ما حكم به إمامه في هٰذه المسائل؛ فكان صنيعه مجتهد المذهب أشبه بصنيع في تأليفه[1] الذي يعنى بمعرفة أصول إمامه من الفروع التي نص على حكمها، لا صنيع المجتهد المطلق أو العالم الأصولي المنصف الذي يعنى ببحث القواعد الأصولية على ضوء أصول الشريعة والاستدلال عليها بالكتاب والسنة دون ميل إلى نصرة مذهب معين في الفروع الفقهية.

وتسمى هٰذه الطريقة طريقة الحنفية لشيوعها فيهم، وممن نهج سبيلها: أبو زيد عبيدالله بن عمر الدبوسي، ومحمد بن أحمد السرخسي، وعلي بن محمد البزدوي.

ولو سلك هٰؤلاء طريق الاستقراء، فأكثروا المسائل الفقهية من أبواب شتى، على أن يجمعها وحدة أصولية كما فعل ذٰلك الشاطبي

---

(١) كذا في الطبعة الأولى، وقد صححها الشيخ رحمه الله بخطه على نسخته: «فكان صنيعه في تأليفه أشبه بصنيع مجتهد المذهب».

أحياناً في كتاب «الموافقات»، وقصدوا بذلك الشرح والإيضاح والإرشاد إلى ما بينهـا من معنى جامـع يقتضي اشتـراكها في الحكم دون تقيد بمـذهب معين ليخلصـوا إلى القـاعدة الأصولية، وأتبعوا ذلك ما يؤيد الاستقراء من أدلة العقل والنقل؛ لكان طريقاً طبيعيّاً تألفه الفطر السليمة وتعتمده عقول الباحثين المنصفين، ولأكسبوا من قرأ في كتبهم استقلالاً في الحكم، وفتحوا أمامهم باب البحث والتنقيب، ويسروا لهم تطبيق القواعد الأصولية على ما جدّ ويجدّ من قضايا في مختلف العصور.

واكتفى من جاء بعد هؤلاء باختصار كتب من سبقهم وتلخيصها على إحدى الطريقين؛ كالبيضاوي في «المنهاج»، وربما جمع بعضهم في مختصره بين الطريقين؛ كابن الهمام في «تحريره»، وقد بلغ كثير من المختصرات حد الألغاز؛ فاضطر من يقرؤها أن يرجع إلى الأصول التي منها اختصرت ليتمكن من فهمها أو شرحها.

وخير لمن يريد فهم علم الأصول على وجهه ويرسخ فيه أن يرجع في قراءتـه إلى كتب الأوائـل؛ فإنهـا أقعـد، وعبـارتهـا أدق وأوضح، وتحريرهم لمحل النزاع وحكايتهم للخلاف أوفق؛ لأنهم بذلك أعرف، ونقاشهم للأدلة جار على أصول النقد وقواعد الجدل والمناظرة عند العلماء.

● **خامساً: سعة معرفته في علوم اللغة العربية.**

علم اللغة العربية من علوم الآلة التي يُستعان بها على فهم كلام الله وكـلام رسـوله ﷺ، ولهذه العلاقة الوطيدة بينها وبين الوحيين؛ جدَّ الشيخ في علوم اللغة حتى برَّز فيها جميعها، ولكن مع ذلك لم يصرف

فيها جلَّ وقته، ولما استشاره أحد تلاميذه في أن يتخصص في علم اللغة أشار عليه بأن يطلب العلم الشرعي لأنه الأصل وذٰلك فرع.

يقول الدكتور الصباغ واصفاً نبوغ الشيخ في هٰذا الفن: «كان في علوم العـربية متمكناً؛ فقد كان في النحو مرجعاً، تراه يورد في حديثه القاعدة النحوية إذا اقتضاه التوضيح أن يوردها وكأنه من المتخصصين في النحو، وكان ذواقة للنصوص الجميلة، وهٰذا يدل على موهبة بيانية أكرمه الله بها، وعلى تمكنه من علوم البلاغة.

وكان في الكتابة ذا أسلوب متين جزل بليغ، لا يقل عن أساليب كبار الكتَّاب والأدباء، تتصف عبارته بالإيجاز والإحكام والبيان والوضوح والجزالة، ولدي عدد من رسائله الشخصية إليَّ، وهي نماذج على ذاك الأسلوب العالي.

وكان ـ رحمه الله ـ ذا بيان مشرق متدفق إذا تكلم أو درَّس؛ لا يتلعثم، ولا يتوقف، ولا يلحن.

وكان ـ رحمه الله ـ مناظِراً قوي الحجة، مستحضر الدليل، يحيط بأطراف الموضوع الذي يناقشه.

وكانت إحاطته ـ رحمه الله ـ بمفردات اللغة العربية تكاد تكون إحاطة شاملة؛ فلقد كان يصحب القاموس المحيط، وقد حدثني أنه يجد في قراءة مواده، والناس عادة لا يرجعون إلى القاموس إلا عندما يريدون معرفة معنى الكلمة، أما الشيخ ـ رحمه الله ـ؛ فقد كان يقرأ فيه كما يقرأ أي كتاب من الكتب.

* * * * *

الفصل الخامس
نماذج من فتاوى الشيخ رحمه الله

● منهج الشيخ رحمه الله في الفتوى :

كان ـ رحمه الله ـ حريصاً على التثبت ومراعاة الدقة وفهم المسألة من السائل بشكل صحيح، حدث ذات مرة أن تناقش شخصان، أحدهما يقول: إن الأصل في الإسلام هو الزواج من أربع، ويقول الآخر: بل الأصل الزواج من واحدة، واحتد النقاش بينهما، فلجأ إلى الشيخ الذي لم يزد في جوابه على أن قال: «إن الأصل في الإسلام مشروعية النكاح»؛ فسكت الاثنان، واقتنعا بما قاله الشيخ رحمه الله رحمة واسعة.

● اتباعه للدليل :

«وكان ـ رحمه الله ـ متبعاً للدليل في فتواه، وينتقد من يتعصب لمذهب معين مع إمكانه أن يتبع الدليل، وكان إذا سأله أحد طلبة العلم؛ ذكر له القولين أو الأقوال في المسألة، فإذا ما سأله الطالب عن الراجح؛ قال له: تريد أن تقلدني؟!»[1].

---

(١) من رسالة خاصة للشيخ علي اليحيى.

وإليك بعض النماذج من فتاويه رحمه الله:

١ ـ فتوى في القراءات[١]:

١ ـ أراد أبو بكر بن مجاهد أن يجمع المشهور من قراءات قراء العراقين والحرمين والشام؛ لأنهم الذين عنوا أكثر من غيرهم بنصوص الشريعة؛ حفظاً لها، وفهماً لفقهها، وإعداداً للوسائل التي يتوقف فهمها عليها؛ فجمع على رأس المئة الثالثة ببغداد قراءات سبعة من أئمة القراءة المشهورين بهٰذه الأمصار ليوافق عدد الحروف التي في حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[٢]، وكان أول من جمع قراءة هٰؤلاء ولم يعتقد هو ولا غيره أن هٰذه القراءات هي الأحرف السبعة، ولا منع أحد إذ ذاك القـراءة بغير قراءتهم، بل قال بعض أئمـة القراءات: لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة؛ لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قرائها في زمانه في رأس المئتين، بل يجوز لمن ثبت عنده قراءة الأعمش شيخ حمـزة الـزيات، أو قراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي ونحوهما، كما ثبتت لديه قراءة حمزة؛ أن يقرأ بها بلا نزاع من العلماء المعتبرين، بل أكثر العلماء الذين أدركوا قراءة حمزة؛ كأحمد بن حنبل، وسفيان بن عيينة؛ كانوا يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع ونحوه من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥ / ١١٤) والطبراني (١ / ١٥) عن أبي بن كعب، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٤٢) ترتيب ابن بلبان، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٩٦ ـ ٣٩٧).

(٢) هٰذه الفتوى والتي تليها تشمل مجموعة الأجوبة هي من ضمن الرسائل التي دفع بها إليَّ ابن الشيخ الأخ محمود، ولم نتمكن من الحصول على السؤال الموجه، لٰكن الإجابة تدل عليه.

أهل المدينة وقراءة يعقوب الحضرمي ونحوه من أهل البصرة على قراءة حمزة، وكان الأئمة من قراء العراق الذين ثبت لديهم قراءة العشرة يجمعون ذلك في الكتب تأليفاً ويقرؤون (بها)[1] في الصلاة وفي غيرها وهذا متفق عليه بين العلماء، وإنما ينكر على من قرأ بقراءة لم تثبت عنده أو لم يكن عالماً بها؛ فإن القراءة سنة متبعة؛ فمن علم منها شيئاً قرأ به، وليس لأحد أن ينكر عليه ذلك، ومن جهل منها شيئاً حرم عليه القراءة به؛ «سواء»[1] كان السبعة أو غيرها.

٢ ـ إن الأحرف السبعة لا تتناقض بل تتحد في أصل معناها أحياناً، وتختلف اختلاف تنوع أحياناً لا اختلاف تضاد؛ فتفيد كل آية حكماً، وتكون كل قراءة بالنسبة للأخرى كالآية بالنسبة لآية أخرى، والجميع حق فيما أفاد من الأحكام، لا يجوز لأحد أن ينكره أو يترك العمل به.

٣ ـ مصحف عثمان رضي الله عنه هو أحد الأحرف السبعة، وهو موافق للعرضة الأخيرة، وقال طوائف من القراء والفقهاء وعلماء الكلام: إن مصحف عثمان مشتمل على الأحرف السبعة؛ إذ لا يجوز أن تهمل الأمة نقل شيء من هذه الأحرف، وحيث اتفقوا في خلافة عثمان على نقل المصحف دون سواه؛ دل ذلك على أنه مشتمل على الأحرف السبعة، وأيضاً لو كانت خارجة عن رسم المصحف؛ لنهي عن القراءة بها، لكن لم يُنه عن القراءة بأي حرف منها؛ فكان داخلاً في رسم المصحف.

---

(١) ما بين القوسين زيادة للإيضاح.

وأجيب عن ذٰلك بما ذكره ابن جرير في مقدمة «تفسيره» من أنه ليس من الواجب نقل كل حرف من الأحرف السبعة، بل يكفي حفظ القرآن في حرف منها، وقد اختير الحرف الموافق للعرضة الأخيرة، ولم تكن القراءة بالأحرف السبعة واجبة على كل واحد من الأمة، ولا على كل الأمة، بحيث لا يفوتها في جملتها حرف منها؛ فإن القراءات نزلت رخصة لهم وتسهيلاً عليهم، فلما سهلت عليهم القراءة بحرف واحد؛ اتفقوا على حرف منها؛ دفعاً لخطر الفرقة.

٤ ــ ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً بل كان باجتهاد الصحابة، بخلاف ترتيب الآيات في السورة؛ فإنه توقيفيّ.

٥ ــ أمثلة للقراءات:

أ ــ والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والذكر والأنثى.

ب ــ إن كانت إلا زقية واحدة.

ج ــ فصيام ثلاثة أيام متتابعات.

ثلاثتها عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٦ ــ الخلاف في القراءة بما خرج عن رسم المصحف العثماني:

رُوي عن كل من مالك وأحمد روايتان:

ــ جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها؛ لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرؤون بها في الصلاة.

ــ [١]والمنع؛ لأنها ليست من الحروف السبعة؛ لأنها لم تثبت

---

(١) القول الثاني.

متواترة، وبتقدير ثبوتها متواترة؛ فهي منسوخة بالعرضة الأخيرة التي روعيت في مصحف عثمان رضي الله عنه.

ونُقل عن أبي البركات بن تيمية المنع من القراءة بها في القراءة الواجبة، والجواز في غير الواجبة، وبذلك تعرف الرد على من يدعي الاتفاق على المنع من القراءة بما خرج عن رسم المصحف.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: يجب القطع بنفي قرآنية ما لم يثبت من القراءات أنه من الأحرف السبعة، وجمهور العلماء على أنه لا يجب القطع بالنفي، ولذلك جوزوا القراءة بها في الصلاة مطلقاً أو في غير الواجب، ولم يكفر من أثبت البسملة قرآناً بين كل سورتين للفصل، أو على أنها آية أو بعض آية من كل سورة.

٢ ـ توافق يوم الجمعة والعيد:

ما العمل إذا كان يوم العيد هو يوم الجمعة بالنسبة لصلاة الجمعة[١]؟

اختلف العلماء فيما إذا كان العيد يوم جمعة؛ فقال جماعة: من صلى العيد مع الإمام؛ سقطت عنه الجمعة ولا ظهر عليه أيضاً ذلك اليوم، واستدلوا بما رواه النسائي في «سننه المجتبى» بسنده عن وهب بن كيسان؛ قال: «اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير، فأخَّر الخروج حتى تعالى النهار، ثم خرج فخطب فأطال الخطبة، ثم نزل فصلى، ولم يصلِّ للناس يومئذ الجمعة، فذكر ذلك لابن عباس رضي الله عنهما؛

(١) انظر بحث المسألة في: «المغني» (٢ / ٢٤٢).

فقال: أصاب السنة»[1].

وبما رواه أبو داود في «سننه» بسنده عن عطاء بن أبي رباح؛ قال: «صلى بنا ابن الزبير في يوم عيد في يوم جمعة أول النهار، ثم رحنا إلى الجمعة فلم يخرج إلينا؛ فصلينا وحداناً، وابن عباس بالطائف، فلما قدم ذكرنا ذٰلك له؛ فقال: أصاب السنة»[2].

وبما رواه أبو داود أيضاً عن عطاء؛ قال: «اجتمع يوم جمعة ويوم فطر على عهد ابن الزبير رضي الله عنهما، فقال: عيدان اجتمعا في يوم واحد؛ فجمعهما جميعاً، فصلاهما ركعتين بكرة، لم يزد عليهما حتى صلى العصر»[3]. اهـ؛ فترك ابن الزبير صلاة الجمعة ذٰلك اليوم، وهو الإمام إذ ذاك.

وقول ابن عباس: «أصاب السنة»، وعدم إنكار أحد من الصحابة عليه، وعدم خروجه ذٰلك اليوم عند الزوال لصلاتها أو صلاة الظهر بالناس؛ دليل على سقوطها وسقوط الظهر يومئذ عنه وعمن صلى العيد معه، بل دليل على سقوطها عنهم وعن غيرهم ممن لم يصل معه العيد ذٰلك اليوم.

ثم إن هٰذه المسألة من مسائل العبادات، والعبادات مبنية على التوقيف في مثل ذٰلك؛ فكان عمل ابن الزبير رضي الله عنهما في حكم

---

(١) أخرجه النسائي في (العيدين، باب الرخصة في التخلف عن الجمعة لمن شهد العيد).

(٢) رواه أبو داود في (الصلاة، باب إذا وافق يوم الجمعة يوم عيد).

(٣) رواه أبو داود في (الصلاة، باب إذا وافق يوم الجمعة يوم عيد، ٢ / ٢٨٦).

المرفوع، لٰكن قال أبو البركات ابن تيمية في «المنتقى» عقب ذكر عمل ابن الزبير: «قلت: وجه هٰذا أنه رأى تقدمة الجمعة قبل الزوال فقدمها، واجتزأ بها عن العيد». اهـ.

ويقال أيضاً: إن إسقاط صلاة الجمعة في الظهر عمن صلى العيد خارج عن الأصول التي فرضت على المكلفين خمس صلوات في كل يوم وليلة، وعن الأصول التي دلت على إقامة كل من الصلوات في جماعة، وهٰؤلاء قد صلوا الجمعة أو الظهر وحداناً حينما لم يخرج لهم ابن الزبير، وكان المشروع لهم على مقتضى دليلهم ألا يصلوها اكتفاءً بصلاتهم العيد، أو أن يصلوها جماعة بمقتضى دليل مشروعية الجماعة من الفرائض.

وقال أكثر الفقهاء: لا يرخص لمن صلى العيد في ترك الجمعة ذٰلك اليوم ولا لغيرهم، بل يجب على من توفرت فيه شروط وجوبها أن يصليها؛ لأن أدلة وجوبها عامة، لم تفرق بين من صلى العيد ذٰلك اليوم ومن لم يصله، والأصل بقاء ذٰلك حتى يثبت من أدلة الشرع ما يدل على خلافه.

٣ ــ فتوى في الكرامة وحقيقتها:

ما هي الكرامة؟ وما مدى صحتها أثابكم الله؟

الكرامة: خارقة عادة يجريها الله تعالى على يد من شاء من الصالحين؛ إكراماً له، أو إنقاذاً له من موقف كريه ورحمة به، وهي غير المعجزة؛ لأن المعجزة خارقة عادة يظهرها الله على يد نبي من أنبيائه أو رسول من رسله؛ بياناً لرسالته، وتأييداً له في دعوته، وإقامة للحجة

على قومه لإثبات أنه رسول من عند الله ونبي من أنبياء الله.

والكرامة قد تظهر على يد الأنبياء أيضاً؛ فالتي ظهرت على يد رسول الله ﷺ وهي لا يراد بها إقامة حجة على كافر لأنها حصلت بين المؤمنين؛ مثل تكثير الطعام في غزوة الخندق، وهٰذا أيضاً يسمى معجزة، لٰكن لا يراد به إقامة الحجة في مثل هٰذا[1].

٤ ــ هل يصح بعد دعاء القنوت أو أي دعاء أن يمسح الرجل وجهه بيديه[2]؟

الجواب: ليس هٰذا من السنة؛ لأنه ما ورد مسح الوجه باليدين عقب الدعاء في حديث صحيح؛ فعلى ذٰلك لا يمسح، وقد ورد فيه حديث ضعيف، تنظرونه في كتاب «الجامع الصغير» وأمثاله.

٥ ــ بعض الأئمة لا يتركون فرصة للمأمومين لقراءة الفاتحة بعد قراءتهم للفاتحة خاصة في صلاة التراويح؛ فهل يجب قراءتها؟

الجواب: يجب قراءة الفاتحة، ولم يرد نص في أن الإنسان يخص قراءة الفاتحة بسكتة من السكتات، إنما يجب عليه أن يقرأ الفاتحة وهو يتحين لها الفرصة، يقرأها في قراءة الإمام للفاتحة، أو في قراءة الإمام للسورة، وهم يطولون في التراويح في قراءة القرآن؛ فيقرأها مع قراءة الإمام للفاتحة، أو في قراءته للسورة، أما أن يجعل لها سكتة خاصة بين الفاتحة والسورة؛ هٰذا لم يثبت في حديث، ورد فيه شيء؛

(١) نقلت السؤال وبعض الإجابة من شريط تفسير سورة الفاتحة.

(٢) هٰذه الأجوبة لم تحرر كتابة، لذا؛ فإن فيها تكرار وعدم ترتيب، ولٰكن لأهميتها نشرتها.

لٰكنه لم يثبت.

والذين قالوا بوجوب قراءة الفاتحة ما عينوا لها زمناً، لٰكن بعض الناس يتحين الفرصة بوجود سكتة بين السورة والفاتحة ليجمع بين قراءة الفاتحة وسماع الإمام في قراءة الإمام للسورة والفاتحة ليجمع بين الأمرين، هٰذا اجتهاد من المأمومين، أما قراءة الفاتحة؛ فليس لها زمن معين في وقفة الإمام؛ فليقرأ الفاتحة حين قراءة الإمام لها، أو ليقرأها حين قراءة الإمام للسورة أو الآيات التي يقرأها.

٦ ــ هل كثرة العمرة في رمضان سنة أو أمر مستحب؟

الجواب: كلمة سنة أو مستحب كلها قريبة من بعض، وهي اصطلاحات بين الفقهاء؛ فالعمرة في رمضان خير، وإن تكررت لا حرج فيها، ولم أجد إلا قليلاً من العلماء هم الذين يكرهون تكرار العمرة في السنة، عند المالكية مثلاً تكرار العمرة في رمضان وفي غيره في شهر أو في السنة مرتين مكروه عندهم وليس لديهم دليل.

٧ ــ هل يجب طواف الوداع على المعتمر؟

الجواب: ليس بواجب، إن طاف؛ فهو خير، ولم يعرف عن النبي ﷺ لما اعتمر العمرات التي قبل حجة الوداع، لم يعرف عنه أنه طاف طواف الوداع، إنما طواف الوداع واجب في الحج على الرأي الصحيح.

٨ ــ هل يجب طواف الوداع للخارج من مكة عموماً؟

الجواب: يجب في الحج على الصحيح، وفيه من يوجبه على كل من خرج من مكة، ولٰكن الحديث ظاهره الذي يُسْتدَل به على وجوب

طواف الوداع في الحج موجه فيه الخطاب للحجاج يقول: «لا ينفرن أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت»[1]، أمر الحجاج بأن يكون آخر عهدهم بالبيت هٰذا الذي ورد؛ فالخطاب خطاب للحجاج ليس خطاب لسكـان مكة؛ لأن سكان مكة ما ينفرون منها، إنما يخاطب الحجاج الذين وفدوا إلى مكة للحج فيقول: «لا ينفرن» ـ يخاطب من ينفر ممن جاء حاجاً إلى بيت الله الحرام ـ؛ فالخطاب لهٰؤلاء، فلذٰلك كان الرأي الصحيح إيجاب طواف الوداع على الحجاج ليس على كل ساكن في مكة إذا أراد الخروج منها، ما خوطبوا إنما خوطب من ينفر ممن وفد في الحج.

٩ ـ يوجد في بعض الدول غير الإسلامية أفراد ذكور وإناث أسلموا، وتكون الفتاة مسلمة ووالدها كافر وتريد الزواج من مسلم؛ فماذا يشرع في العقد لها؟

الجواب: الدولة الكافرة والولي كافر، وهي تريد رجل مسلم؛ فمن تكون له الولاية؟

الولي في حكم القاضي هو الذي يتولى عقد الزواج؛ لأن أبوها كافر وهي مسلمة، ولا يتولى عقدها أبوها.

١٠ ـ إذا ألبست الأم البنت فستاناً قصيراً وعمرها ثمان سنوات،

---

(١) رواه مسلم في (الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، ١٣٢٧)، وأبو داود في (المناسك، باب الوداع، ٢٠٠٢)، وابن خزيمة (٢٩٩٩ و٣٠٠٠)، والدارمي (٢ / ٧٢)، والبيهقي (٥ / ١٦١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٨٩٧).

ورآها الأب ولم يتكلم؛ مع العلم أنه لا يرضى بلبس القصير؛ فهل يأثم في ذٰلك؟

الجواب: كلاهما آثم، الأب مسؤول عن البيت كله؛ عن الزوجة وعن البنت؛ فهو آثم، ويجب أن ينصح زوجته أم البنت، وأن ينصح البنت، والأم آثمة؛ لأنها راعية على بناتها ورضيت بهٰذا لبنتها؛ فكلاهما متعاون على الإثم والعدوان، ومهمة الرجل أوسع من مهمة المرأة في هٰذا؛ لأنه قيم على البيت كله؛ على زوجته وعلى بنته، أما الأم فمهمتها ضيقة؛ لأنها راعية في بيتها على بناتها وعلى أولادها الذكور؛ فدائرة رعاية الأم أضيق من دائرة رعاية الأب، والقصد أن كليهما آثم؛ لتعاونهما على الإثم والعدوان، وتعويد البنت على الشر من صغرها.

١١ ــ هل هناك حرج في قولة: أدامك الله؟ وهل هٰذه اللفظة تعارض قوله تعالى ﴿كل من عليها فان﴾ أم لا؟

الجواب: لا حرج في أن يقول الإنسان لأخيه أدامك الله، والدوام ليس معناه أن لا يموت، الدوام يطلق على طول المدة؛ مثل: أطال الله بقاءك؛ فالمراد بأدامك الله: أطال الله بقاءك؛ فالمراد بها هٰذا، ولو قال: أطال الله بقاءك؛ لكان خيراً منها حتى لا يحتاج إلى تأويل فيما يتكلم فيه، يعني الكلام الذي لا يحتاج إلى تأويل متكلف حتى يستقيم، الكلام الذي لا تكلف فيه ولا يحتاج إلى تأويل وإلى تكلف خير من الكلام الذي يحتاج إلى تأويل وجواب ودفاع عن نفسه.

١٢ ــ هل جناح الذباب الذي فيه دواء موافق لهٰذا الداء الذي في الجناح الآخر، أو داء لغيره من أمراض وعلة؟ وهل يثبت من فقه

الحديث ما يبين من قوله ﷺ؟ وهل الذباب المذكور في الحديث هو الذباب المعروف؟

الجواب: هٰذه نقط ليست واحدة:

أولاً: المعروف بالذباب في لغة العرب هو هٰذا الذباب الذي يتساقط على الطعام أو على الأوساخ، وهو الذي فهمه الأطباء أيضاً، يقصدون بالذباب هٰذا النوع الذي يسقط على القاذورات والأوساخ والذي يسقط في الطعام أو في الشراب، المراد به هو هٰذا. هٰذه نقطة من السؤال، وليس عاماً في كل ما يطير بجناحيه.

الأمر الثاني: الرسول ﷺ أخبرنا بهٰذا، والجملة التي أخبر بها فيها تعريف يقول في أحد جناحيه، هٰذا يدلنا على أن المراد بالجناح جناح هٰذا الذباب الذي ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام، والرسول ﷺ لم يخبر عن كونه دواءً لغير هٰذا الداء؛ لأنه يعلل ما ذُكِر في كلامه، يعني: لم يضع هٰذا تعليلاً عامّاً لعلاج كل داء، إنما ذكره بمناسبة الداء الذي في جناح الذبابة، يقول: «فإن في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاءً»، وهو يتحدث عن داء في الجناح هو دواء للداء الذي ينزل من الجناح الآخر، ولا يصح إن يقال إن هٰذا يتعدى إلى علاج داء آخر إلا بدليل، يعني أن الأصل أن يخص ما ذُكِر في الخبر ولا يجوز تعديه إلى غيره، مثل أي دكتور يقول: هٰذا الدواء دواء لهٰذا الداء؛ فلا يأخذه لداء آخر، لو وقفت عند صيدلية مملوءة بالأدوية كل ما فيها يقال إنه دواء، لٰكن لا يستعمل كل دواء في الصيدلية لكل داء أيّاً كان، بل الأدوية التي في الصيدلية موزعة على الأدواء والأمراض تبع خاصية الداء وخاصية الدواء؛

فيقف الإنسان عندما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام دون أن يتجاوز بجعل هٰذا الدواء دواءً لكل داء.

١٣ ـ كيف نجمع بين هٰذا الدرس في حديث الذباب وبين قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» لما سُئِل عن حديث النخل؟

الجواب: الرسول عليه الصلاة والسلام كان في أرض عربية، والبلاد بلاد نخيل، وهو يعرف شيئاً ما عن هٰذا في الجملة، لا أقول يعرف كمعرفة الزراع أو أرباب النخيل والثمار، لٰكنه في الجملة.

والرسول عليه الصلاة والسلام ما قال: أنا أعلم بأمور دنياكم، هو نفى أنه أعلم بأمور الدنيا منهم، نفى هٰذا في مسألة النخيل وفي غيرها؛ فالشؤون التي تتصل بالدنيا هم فيها أعلم، وإنما يعلم منها ما أوحى الله به إليه.

ولم يثبت لنا أنه رجع في مسألة الذباب وقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، ولم يعترض عليه أحد، قصدي أن أقول: إن الشيء الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وأشباهه مما رجع عنه مثل الأمور الاجتهادية هٰذا يدلنا على أنه قال فيها باجتهاده لهٰذا رجع عنها، أما الذي لا مدخل للاجتهاد فيه مثل حديث الذباب؛ إنما مثله يقال من طريق الوحي بدليل التعليم الذي أشعر بذٰلك كما قدمت لكم في السؤال السابق، ولم يقل فيه: أنتم أعلم بأمور دنياكم، ولم يرجع عنه، ولم يعارضه أحد؛ فهٰذا محمول على أنه وحي من الله، أما ما كان في مسألة النخيل؛ فهو من الأمور التي تُؤخَذ بالتجارب، وكذٰلك مسألة النزول على

غير ماء في بدر؛ فقالوا: هٰذا الرأي أو هو من الله؟ فقال: «هٰذا هو الرأي». قالوا: لا، الرأي أن ننزل على الماء. فتحوَّل إليهم؛ فهو لما سألوه بين أنه أمر اجتهادي.

فالأمور التي فيها مجال للاجتهاد ـ ومنها تأبير النخل ـ ممكن أن يقول فيها باجتهاده، فإذا أخطأ؛ قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، والأمور التي لا مجال لمثله للاجتهاد فيها يتبين لنا أنها وحي من الله، ويؤيد هٰذا التعليل، فأميٌّ يذكر هٰذا ولا عهد لأمته بالطب الذي من هٰذا الجنس ولا تجارب عندهم في هٰذا؟

ثم قال: «فإن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر دواء»، وهٰذا أمر لا يُعلم إلا عن طريق تحليل جناح الذباب؛ فمن أجل هٰذا قلت: إنَّ هٰذا وحي من السماء، وأن مسألة تأبير النخل كما ورد من حديث النخيل السابق فيها نوع من الاجتهاد قد أخطأ فيه؛ فيخطىء في الأمور الاجتهادية من شؤون الدنيا، ويهيىء الله له من يتكلم معه ويناقشه، فيرجع عن خطئه إلى ما هم عليه من صواب؛ فمن أجل ذٰلك قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» في الأمور التي تكتسب بالخبرة وغيرها.

من جهة أخرى مسألة الذباب لم ينته الأطباء فيها إلى رأي واحد، بل ما زالت إلى اليوم محل بحث ومحل تجربة، وأكثر ما فيها الاستقذار من سقوط الذباب على الأوساخ وعلى الأذى والوسخ، وأن النفس تعاف الطعام أو الشراب الذي سقط فيه، أكثر ما فيه هو هٰذا الجانب، والرسول عليه الصلاة والسلام ما قال كُلّ أو اشرب.

هناك من لا تعافه نفسه مهما سقط فيه من ذباب وغمسه فيه لا تعافه

نفسـه، وفيه واحد تعاف نفسه هٰذا وكل الطعام الذي حضر إلى جانب هٰذا، وممكن أن يتقيأ إن سقط الذباب ويترك الطعام نهائيّاً، ما قال: كل منه؛ فلم يأمر، ولٰكن قال: «اغمسه؛ فإنَّ فيه كذا»؛ فبين الفائدة.

أمـا أن يأكله أو أن يطعمه غيره؛ فهٰذا إليه أقول إن هٰذا موضع اجتهـاد، وعُـرف بالتجربة، وعُرِف أنه سبب عادي عُرِفت خواصه في الحيوانات، لٰكِن الذباب لم يُنْته فيه إلى الاتفاق والإجماع على رأي من أهل الاختصاص من جهة، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام وأمته لم يدخلوا في هٰذه التجارب، وأنه علل؛ فدل هٰذا على أنه وحي من الله.

١٤ ــ ما حكم من ابتلع من شرب الشراب أو من الأكل الذي وقع عليه الذباب ثم قاءه مع إيمانه بالحديث؟

الجواب: هٰذا أشرت إليه في الجواب السابق وقلت: إن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أمر أحداً بأن يأكله، إنما بين لهم الفائدة في غمسه، وأن ما فيه من داء يُعالَج بما فيه من دواء، ولم يأمر من غمسه بأكله؛ فهٰذا إليه، إن استقذره فهو غير ملزم بأكله، لٰكنه يعطيه من يطعمه ولا يستقذره ولا يضيع ماله.

١٥ ــ هل كتاب «النبوات» لابن تيمية صحيح أم لا؟

الجواب: في نظري أنه لابن تيمية، والأسلوب أسلوبه، أما كوني أعـرف من أنه ثابت نسبته لابن تيمية بخطوط؛ فهٰذا لا أستند إليه ولا أجعله دليلاً لي؛ لأني لا أعرف الخطوط، لا أعرف خط ابن تيمية حتى أطبق، وكذٰلك من جهة السلسلة، سلسلة موثوق بها من عهد ابن تيمية إلى يومي هٰذا ما عندي في ذٰلك السند، إنما الذي أستند إليه في هٰذا

معرفتي بأسلوب ابن تيمية، أنا عندي إذا قرأت في كتاب «الطبري» لابن جرير الطبري أو كتب ابن تيمية؛ أعرف طريقته في الاستدلال، وأعرف لفه وجدله حول الموضوع؛ بكثرة قراءتي أعرفه، وأنا قرأت كتاب «النبوات» وأعرف أن الأسلوب أسلوبه، وأن كثيراً منه موجود في كتب أثق بأنها كتب ابن تيمية.

١٦ ـ وجهة نظر في تحديد نهاية ذبح هدي التمتع والقران.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وبعد:

ففي الدورة الثامنة لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة بمدينة الرياض في النصف الأول من شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٦هـ بحث المجلس موضوع ذبح هدي التمتع والقران من جميع نواحيه، واتخذ في ذلك قراراً، وأنا أوافق على جميع ما جاء فيه من الأحكام ما عدا تحديد آخر وقت للذبح بغروب شمس اليوم الثالث من أيام التشريق؛ فأرى أن من أخر ذبح هدي التمتع والقران عن أيام التشريق يجزئه ولا يأثم بذلك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي**﴾ بالنسبة لزمن الذبح.

ولم يثبت في الكتاب ولا السنة ما يخصص هذا العموم من حيث نهاية وقت الذبح، وغاية ما يدل عليه ذبح النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في يوم العيد وأيام التشريق أن ذلك سنة، لا فرض ولا شرط صحة في الذبح.

وقد جاء ما يخصص هذا العموم بالنسبة لتقديم ذبح هدي التمتع والقران، وهو امتناع النبي ﷺ عن ذبح هديه بعد أن أدى العمرة حتى يبلغ

محله، ثم ذبح هديه يوم العيد؛ فدل على أنه لا يصح تقديم ذبحه عن يوم العيد، وكان هٰذا من البيان العملي والقولي في قوله تعالى: ﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلُغ الهدي محله**﴾، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

١٣ / ٤ / ١٣٩٦هـ

كتبه عبد الرزاق عفيفي

* * * * *



الفصل السادس
نماذج من رسائله وآثاره العلمية

كتب الشيخ ـ رحمه الله ـ مجموعة من المقالات وحرَّر بعض المسائل العلمية، وهي كتابات نافعة، وقد اخترت بعضاً منها، ورتبت على النحو التالي:

أولاً: مقالات متنوعة.

ثانياً: المسائل العلمية.

ثالثاً: تقريرات عن بعض الكتب المطبوعة.

رابعاً: تقريرات عن بعض الأشخاص ذكرت واحداً منهم.

خامساً: التراجم.

سادساً: الرسائل، وقد اخترت منها رسالة واحدة أرسلها للأديب سعد أبي معطي.

• أولاً: مقالات متنوعة

١ ـ «فضل العلم».

الحمد لله مولي النعم، واسع الجود والكرم، وأشهد أن لا إله إلا

الله وحـده لا شريك له، دافـع النقم، وكـاشف الغمم، بيده ملكوت السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، وبعد:

فالعلم نور يتبين به الضـار من النـافـع، ويتميز به الخبيث من الطيب؛ فمن أخذ به أخذ بحظ وافر، سيما علوم الدين التي تفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال؛ فتبصر العبد بربه، وتعرفه بحقه سبحانه وحق عبـاده، تكسبه رشداً بعد غي، وتفتح منه أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وبذٰلك ينعم في دنياه، ويسعد السعادة الأبدية في أخراه، ولا يكاد يعرف إنسان ناجح في الحياة العملية من عبادة أو دراسة أو كتابة أو سياسة أو صناعة أو زراعة أو غير ذٰلك؛ إلا من كان على بينة وبصيرة بالوسائل العلمية التي يتوقف عليه عمله.

من هٰذا كان للعلم مزيتـه وفضيلتـه ومكـانته في الحياة العاجلة والآجلة، ولهٰذا سارع في طلبه العقلاء، وتنافس فيه المتنافسون، وبه تفـاوت الكثير من النـاس في منـازلهم ودرجـاتهم حسب تفـاوتهم في مداركهم وتحصيلهم وإنتاجهم، وبه انتظم الكون ونهضت الأمم، وكان لمن برز فيه القدح المعلى والمقام الأسمى.

وإنما يكون ذٰلك لمن سدد الله خطاه، وبصّره بشؤون دينه ودنياه؛ فعلم وعلَّم، وكان مثالاً يُحتذى في قوله وعمله وسيرته وخلقه.

قال تعالى: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾** [الزمر: ٩].

وقال: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور**﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

وقال: ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانيةً ويدرؤون بالحسنة السيئة أولٰئك لهم عقبى الدار. . .**﴾ الآيات [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

وليست منافع العلم وآثاره وأجره وثوابه وقفاً على من علم وعلَّم وألف ودوَّن، بل ينال ذٰلك بفضل الله ورحمته من أعان عليه بوسائله المتنوعة وأسبابه الكثيرة؛ من طبع الكتب النافعة والرسائل المفيدة، ونشرها بين طلَّاب العلم، وتيسير طريق وصولها إلى أيديهم، وإنشاء المباني المناسبة لدراستهم وسكناهم، وبذل ما يلزم لفقرائهم من النفقات، والسخاء بما يكفل لهم راحة بالهم وتفرغهم لما قصدوا إليه ليتوفروا على الدراسة والتحصيل، ويتمكنوا من التأليف والتبليغ؛ فإن للوسائل حكم مقاصدها، والساعي في الخير كفاعله، و«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وفي العتق، باب الخطأ والنسيان، وفي مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى

وفي الحـديث: «لا حسـد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً؛ فسلطه على هلكتـه بالخير، ورجـل آتاه الله الحكمة؛ فهو يقضي بها ويعلمها الناس»[1].

٢ ـ «الحكمة من إرسال الرسل».

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المتقين، وأشهـد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً ليخرج النـاس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد،

= المـدينـة، وفي النكـاح، باب من هاجـر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى، وفي الطلاق، باب الطلاق في الإعلان، وفي الإيمان، باب النية في الإيمان، وفي الإكراه، وفي باب ترك الحيل).

رواه مسلم في (الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، ٣ / ١٥١٥، ١٥١٦).

ورواه أبو داود في (الطلاق، باب فيما عني به الطلاق والنيات، ١ / ٥١٠).

والنسائي في (الطهارة، باب النية في الوضوء، وفي الطلاق، باب الكلام إذا قصد به فيما يحتمل معناه، وفي الإيمان، باب النية في اليمين).

وابن ماجه في (الزهد، باب النية ٢ / ١٤١٣).

والترمذي في (فضائل الجهاد، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا).

والإمام أحمد (١ / ٢٥، ٤٣).

(١) رواه البخـاري في (العلم، باب الاغتبـاط في العلم والحكمـة، وفي الاعتصام، باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى).

ومسلم في (صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه).

وابن ماجه في (الزهد، باب الحسد).

وأحمد في «السنن» (١ / ١٤٤).

وللحديث عدة روايات.

صلى الله وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله تعالى وسع كل شيء رحمة وعلماً ـ سبحانه ـ، له الحكمة البالغة والقدرة الشاملة والإرادة النافذة، لم يخلق عباده عبثاً، ولم يتركهم سُدى، بل بعَدْله قامت السماوات والأرض، وبحكمته وتشريعه وإرسال رسله قامت الحجة، وسعد من اتبعهم وسلك طريقهم في الدنيا والآخرة، وخاب وخسر من سلك غير سبيلهم، واتبع هواه بغير هدى من الله.

قال الله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدىً**﴾ [القيامة: ٣٦].

وقال: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم**﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وقال: ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذٰلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٩].

لا يليق بعاقل رشيد عرف كمال حكمة الله وسعة رحمته، وعرف واقع الناس وما هم فيه من هرج ومرج وفساد وضلال؛ أن ينكر حاجة البشر إلى قيادة رشيدة، عمادها وحي الله وشريعته، تعتصم به، وتدعو الناس

إليه، وتهديهم إلى سواء السبيل.

فإن الإنسان؛ قد يقصر عقله في كثير من أحواله وشؤونه عن التمييز بين الحسن من الأفعال وقبيحها ونافعها وضارها، وقد يعجز عن العلم بما يجب عليه علمه؛ لأنه ليس في محيط عقله ولا دائرة فكره، مع ما في علمه به من صلاحية وسعادة؛ كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلاً؛ فكان في ضرورة إلى معين يساعده في معرفة ما قصر عنه إدراكه أو عجز عنه فهمه، ويهديه الطريق في أصول دينه.

وقد يتردد الإنسان في أمر من شؤون حياته وتملكه الحيرة فيه؛ إما لعارض هوى وشهوة، وإما لتزاحم الدواعي واختلافها؛ فكان في أشد الحاجة إلى من ينقذه من الحيرة، ويكشف له حجاب الضلالة بنور الهداية، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويكمله بمعرفة ما عجز عنه فكره وفهمه، ويوقفه على حقيقة ما تردد فيه أو عجز عنه عقله، ويدفع غائلة الألم والحيرة ومضرة الشكوك والأوهام.

إن تفاوت العقول والمدارك وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذلك مما يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، والاعتداء على الأعراض، وانتهاك الحرمات، وبالجملة ينتهي بالناس إلى تخريب وتدمير، لا إلى تنظيم وحسن تدبير، ولا يرتفع هذا إلا برسول يبعثه الله بفصل الخطاب؛ ليقيم به الحجة، ويوضح به المحجة؛ فاقتضت حكمة الله أن يرسل رسله بالهدى ودين الحق؛ رحمة منه بعباده، وإقامة للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم وحقوق أنفسهم وإخوانهم، وإعانة لهم على أنفسهم، وإعذاراً إليهم؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله،

من أجل ذٰلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب.

فقد ثبت في الحديث الصحيح؛ أن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي؛ لضربته بالسيف غير مصفح (أي: بحده لا بصفحته). فبلغ ذٰلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «تعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذٰلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذٰلك مدح نفسه ووعد من مدحه الجنة»[1].

بهٰذا يتبين أن إرسال الله الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين هو مقتضى حكمته، وموجب فضله وإحسانه ورحمته بعباده، والله عليم حكيم، ولم يخرج على هٰذا ـ فيما ذكره العلماء ـ إلا البراهمة؛ فإنهم تطرفوا؛ فأحالوا أن يصطفي الله رسولاً من عباده، ويرسل إليهم رسولاً، وزعموا أن إرسالهم عبث؛ إما لعدم حاجة الناس إليهم اعتماداً على العقل في التمييز بين المصالح والمفاسد واكتفاءً به في إدراك ما يحتاجه الناس في المعاش والمعاد، وإما لاستغناء الله عن عباده لعدم حاجته إلى أعمالهم إن كان خيراً وعدم تضرره بها إن كانت شراً؛ إذ هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا يتضرر بمعصيتهم.

ومن شاهد أحوال الناس وعرف واقعهم المرير الصاخب، وعرف أن الله لم يرسل الرسل لمصلحة تعود إليه أو مضرة يدفعها عن نفسه،

---

(١) رواه البخاري في (التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله»، ١٣ / ٣٣٧)، وأخرجه مسلم في (اللعان، ١٤٩٩)، وأحمد (٢١٣١).

تعالى الله عن ذٰلك علوّاً كبيراً، بل أرسلهم لمصالح البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة ـ أقول ـ، من عرف ذٰلك؛ عرف فساد مذاهب البراهمة لمناقضته مقتضى الحكمة والرحمة، ومجافاته لواقع الناس.

إن إرسال الله للرسل ليس مستحيلاً في نفسه، ولا عبثاً حتى يجافي حكمة الله، بل هو جائز عقلاً، داخل في نطاق قدرة الله الشاملة وإرادته النافذة؛ فإنه سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا رادّ لما قضى، وهو على كل شيء قدير، يشهد لهٰذا سنة الله في تدبيره لشؤون خلقه وتصريفه لأحوالهم في عقولهم ومداركهم، وفي أبدانهم وأرزاقهم، وفي وجاهتهم ومراكزهم في الحياة.

فإنا نشاهد أن الله سبحانه خلق عباده على طرائق شتى في أفكارهم ومذاهب متباينة في مداركهم؛ فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه حتى وصل بثاقب فكره وانتهت به تجاربه إلى أن اخترع للناس ما رفع أولو الألباب إليه أبصارهم من أجله؛ إعجاباً به، وشهادة له بالمهارة، وأنكره عليه صغار العقول؛ فعدوه شعوذة وكهانة، أو ضرباً من ضروب السحر، ولا يزالون كذٰلك حتى يستبين لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفي عليهم؛ فيذعنوا له ويوقنوا بما كانوا به يكذبون، ومنهم من ضعف عقله، وضاقت مداركه؛ فعميت عليه الحقائق، واشتبه عليه الأمر الواضح؛ فأنكر البديهيات، ورد الآيات البينات، بل منهم من انتهى به انحراف مزاجه وضعف عقله إلى أن ينكر ما تدركه الحواس كالسوفسطائية.

وكما ثبت التفاوت بين الناس في العقول والأفهام؛ ثبت التفاوت

بينهم أيضاً في قوة الأبدان وضعفها، وسعة الأرزاق وضيقها، ونيل المناصب العالية، والاستيلاء على زمام الأمور، وقيادة الشعوب، والحرمان من ذٰلك؛ إما للعجز أو القصور ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وإما لحِكم أخرى علمها مدبر الكائنات، وربما كشف عن كثير منها الغطاء لمن تدبر القرآن، وعرف سيرة الأنبياء، وعرف تاريخ الأمم وما جرى عليها من أحداث.

فمن شاهد ما مضت به سنة الله في عباده من التفاوت بينهم في مداركهم وإراداتهم وسائر قواهم وغير ذٰلك من أحوالهم؛ لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع دون جدل أو مراء، ويستيقن بأن الله ـ الواهب النعم، المفيض للخير ـ إن يختص بعض عباده بسعة الفكر ورحابة الصدر وكمال الصبر وحسن القيادة وسلامة الأخلاق؛ ليعدهم بذٰلك لتحمل أعباء الرسالة، ويكشف لهم عما أخفاه عن غيرهم، ويوحي إليهم بما فيه سعادة الخلق وصلاح الكون؛ رحمة للعالمين، وإعذاراً إلى الكافرين، وإقامة للحجة على الناس أجمعين؛ فإنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء، لا يُرد قضاؤه، ولا يُمنع عطاؤه، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

قال الله تعالى: **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾** [القصص: ٦٨].

وقال: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** [النساء: ١٦٥].

وقال سبحانه: **﴿وقالوا لولا نزل هٰذا القرآن على رجل من**

القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

إن الفطر السليمة التي فطر الله عليها الناس لا تستبعد أيضاً ما مضت به سنة الله في عباده، وقضت به حكمته وعدله في خلقه من إرساله سبحانه رسلاً مبشرين ومنذرين، بل أذعنت له وأيقنت به؛ استجابة لمقتضى العقول الرشيدة، بل اعترف الكفار بذٰلك مع انحرافهم وسلوكهم غير المنهج القويم، ولم ينكروا الرسالة نفسها، ولم يستبعدوا حاجتهم إلى الهداية من الله عن طريق روح طيبة يختارها الله لوحيه أو نفس طاهرة يصطفيها الله لتبليغ شرعه، لٰكنهم استبعدوا أن يكون الرسل من البشر، وظنوا خطأً أنها إنما تكون من الملائكة؛ زعماً منهم أن البشرية تنافي هٰذه الرسالة؛ فإنه مهما صفت روح الإنسان، وسمت نفسه، واتسعت مداركه؛ فهو في نظرهم أقل شأناً من أن يوحي الله إليه، وأحقر في زعمهم من أن يختاره الله لتحمل أعباء رسالته وإبلاغ شريعته.

ومن نظر في الكتب المنزلة، وتصفح ما رواه علماء الأخبار؛ اتضح له اعترافهم بإمكان الوحي وحاجتهم إليه، حتى الكفار؛ فإنهم إنما استبعدوا أن يختار الله لوحيه رسولاً من البشر.

قال الله تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾** [هود: ٢٥ - ٢٧].

وقال تعالى: ﴿كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسُعُر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ الآيات [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزَّزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمٰن من شيء إن أنتم إلا تكذبون﴾ الآيات [يٓس: ١٣ ـ ١٥].

وقال الله تعالى: ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنَا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولٰكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [إبراهيم: ١٠ ـ ١١].

وقال الله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذينَ ظلموا هل هٰذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم﴾ [الأنبياء ٢ ـ ٤].

إلى غير ذٰلك من الآيات والأخبار التي تدل على أن إنكار الاسم لم يكن لأصل الرسالة ولا لحاجتهم إليها، إنما كان لبعث رسول إليهم من جنسهم.

ولو قال قائل: إن أئمة الكفر وزعماء الضلالة كانوا يوقنون في قرارة أنفسهم بإمكان أن يختار الله رسولاً إليهم من البشر؛ غير أنهم جحدوا ذٰلك بألسنتهم؛ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وتمويهاً على الطغام من الناس، وخداعاً لضعفاء العقول وتلبيساً عليهم خشية أن يسارعوا لمقتضى الفطرة ويستجيبوا لداعي الدين ومتابعة المرسلين، لو قال ذٰلك قائل ما كان بعيداً عن الحقيقة، ولا مجافياً للصواب، بل بدت منهم البوادر التي تؤيد ذٰلك وتصدقه، وسبق إلى لسانهم ما يرشد البصير إلى ما انطوت عليه نفوسهم من الحسد والاستكبار؛ أن يؤتى الرسل ما أوتوه دونهم، وينالوا من الفضيلة وقيادة الأمم إلى السعادة والإصلاح ما لم ينل هٰؤلاء.

قال الله تعالى: **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** [الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: **﴿وقالوا لولا نُزِّل هٰذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** [الزخرف: ٣١].

وقال تعالى: **﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هٰذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [النمل: ١٣ ـ ١٤].

وقال تعالى: **﴿ود كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد**

إيمـانكم كفـاراً حسـداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾** [البقرة: ١٤٦].

وليس بدعاً أن يختار الله نبيّاً من البشر، ويبعث في الناس رسولاً منهم يتلو عليهم آياتـه ويزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة، بل ذٰلك مقتضى الحكمة وموجب العقل، وما جرت به سنة الله في أنبيائه؛ فإن الله سبحـانه قد مضت سنته في خلقه أن يجعلهم أنواعاً مختلفة على طرائق شتى وطبائع متباينة، لكل نوع غرائزه وميوله أو خواصه ومميزاته التي تقضي بالأُنس والتآلف بين أفراده، وتساعد على التفاهم والتعاون بين الجماعات؛ ليقوم الوجود، وينتظم الكون؛ فكان اختيار الرسول من الأمة أقرب إلى أخذها عنه، وأدعى إلى فهمها منه وتعاونها معه لمزيد التناسب ومكان الألف بين أفراد النوع الواحد، ولو كان عمار الأرض من الملائكة؛ لاقتضت الحكمة أن يبعث الله إليهم ملكاً رسولاً.

وقد أرشد الله إلى ذٰلك في رده على من استنكر أن يرسل الله إلى البشـر رسولاً منهم، قال تعالى: **﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً﴾** [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

ولٰكن شاء الله أن يكـون سكـان الأرض من البشـر؛ فاقتضت حكمتـه أن يكون رسوله إليهم من جنسهم، بل اقتضت حكمته ما هو

أخص من ذلك وأقرب إلى الوصول للغاية وتحصيل المقصود من الرسالة؛ فكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه، قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾** [إبراهيم: ٤].

ولو قدر أن الله أجاب الكفار إلى ما اقترحوا من إرسال ملك إليهم؛ لأرسل سبحانه الملك في صورة رجل ليتمكنوا من أخذ التشريع عنه والاقتداء به فيما يأتي ويذر، وليخوض معهم ميادين الحجاج والجهاد، وبذلك يعود الأمر سيرته الأولى كما لو أرسل سبحانه إليهم رسولاً من البشر، ويقعون في لبس وحيرة؛ جزاءً وفاقاً.

قال تعالى: **﴿وقالوا لولا أُنزِل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقُضِي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾** [الأنعام: ٨، ٩].

ومن نظر في آيات القرآن، وعرف تاريخ الأمم؛ تبين له أن سنة الله في عباده أن يرسل إليهم رسلاً من أنفسهم.

قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾** [النحل: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال تعالى: **﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾** [الفرقان: ٢٠].

هٰذا وأرجو أن أكون قد بينت بهٰذه الكلمة الموجزة بعض الدواعي التي تقتضي إرسال الرسل، وجوانب من حكمة الله في إعدادهم

واصطفائهم لتلقي الوحي عنه وتحمل أعباء البلاغ، وقيادتهم الأمم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

كما أرجو أن أكون قد أوضحت الحكمة في اختيار الرسل إلى البشر من جنسهم وبلسان أممهم، والرد على من يخالف في أصل إرسال الرسل، أو يمنع أن يكون رسل الله إلى البشر من جنسهم، ويخيل إليه اختصاص ذلك بالملائكة، والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وإخوانه النبين والمرسلين ومن اهتدى بهديهم وسلك منهجهم القويم.

٣ ـ «منهج الرسل في الدعوة إلى الله».

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وآلهم أجمعين، وبعد:

فلم يكن الله سبحانه ليدع عباده سدى ويتركهم هملاً دون أن يأمرهم وينهاهم ويجزيهم على ما كسبت أيديهم.

قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إلٰه إلا هو رب العرش الكريم**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منيٍّ يمنى . ثم كان علقةً فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذٰلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

فأرسل سبحانه الرسل وشرع الشرائع؛ رعاية لمصالح عباده في معاشهم ومعادهم فضلاً منه ورحمة، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأبان الدليل، وأوضح السبيل، وبشر وأنذر؛ إقامةً للحجة عليهم، وإعذاراً إلى من حقت عليه كلمة العذاب منهم فاتبع هواه بغير هدى من الله؛ حكمة منه وعدلاً.

قال تعالى: ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿**وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى . ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى**﴾ [طه: ١٣٣ - ١٣٤].

وفي «الصحيح»؛ أن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «تعجبون من غَيْرة سعد؟! والله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله؛ حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة»(١).

ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم، وكمال حكمته في إقامة الحجة والإعذار إلى من سبق عليه القول منهم؛ أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته، جامعة لما يصلح شأنها

---

(١) سبق تخريجه.

وينهض بهـا في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أودها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلى في جميع شؤونها، سعيدة في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «ما بُعث نبي؛ إلا كان حقّاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم».

بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات على خير حال وأقوم طريق.

قال تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣].

وقال: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ [النحل: ٨٩].

وعن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً؛ فأحسنه وأجمله؛ إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[1].

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً».

---

(١) أخرجه البخاري في (الأنبياء، باب خاتم النبيين ﷺ، ٦ / ٤٠٨)، ومسلم في (الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ٢٢٨٦).

وقال عمر رضي الله عنه: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً؛ فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه».

وقال مالك بن أنس: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣]، ثم قال: «فما لم يكن يومئذ ديناً؛ فلا يكون اليوم ديناً».

ولا عجب في أن يشرع الله شريعة عامة دائمة لعالم يطول عهده ويتحدد خلقه وتتطور أحواله، ويكون التدرج في شرعها أيام رسولها ثم تستقر بعد وفاته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فإن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً، ووسع كل شيء رحمة وإحساناً وحكمة وعدلاً، وخلق كل شيء فقدره تقديراً؛ فهو عليم بكل شؤونه الظاهرة والباطنة، وما يصلح حاله في عاجله وآجله ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ [الملك: ١٤]، ﴿**وما كان ربك نسيّاً**﴾ [مريم: ٦٤].

إنما يستنكر ذلك من البشر ونحوهم من المخلوقات؛ لأن أفكارهم محدودة، ومداركهم قاصرة، مع استيلاء الهوى عليهم وتمكن العصبية منهم... إلى غير ذلك مما يوجب كثرة اللغط في آرائهم والاضطراب والتناقض في مذاهبهم؛ في أصول التشريع وفروعه، عن قصد وغير قصد، وخاصة تفاصيل التوحيد والمعاد والعبادات والمعاملات.

قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢].

الأمم الماضية لما كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وكان الوحي مستمراً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرج في الأحكام، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً؛ فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئة للأمة، وتربية لها، وسدّاً لحاجتها، أو عقوبة لها على ظلمها وتمردها على شرائع ربها.

قال تعالى في رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرِّم عليكم**﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال تعالى في محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزِل معه أولٰئك هم المفلحون**﴾ [الأعراف: ١٥٦- ١٥٧].

وقال: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلَّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

أما هٰذه الأمة المحمدية؛ فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها

خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا نبي بعده؛ فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلى يوم القيامة، كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، مُنظِّمة لنواحي حياتهم المختلفة، مُغْنية لهم عما سواها في جميع أمورهم وشؤونهم، ولو طال بهم الأمد، واختلفت أحوالهم على مر الأيام والعصور حضارة وثقافة، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوة، وحالتهم قوة وضعفاً وغنى وفقراً.

وجاءت تكاليف هٰذه الشريعة جملتها وتفصيلها قواعدها وجزئياتها بتحقيق مقاصد التشريع الضرورية التي لا بد منها في قيام مصالح العباد الدينية والدنيوية، ولا تستقيم أحوالهم إلا بها، وذٰلك يرجع إلى ما يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وأنسابهم وعقولهم وأموالهم، وبتحقيق مقاصده الحاجية التي تيسر عليهم طريق العمل للوصول للغاية المنشودة، وتجعلهم في سعة وسهولة، وتدفع عنهم المشقة والحرج، وبتحقيق ما يجمل حالهم، ولو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وصحيفة الوجود وواقع الحياة في تاريخ الأمم أصدق شهيد بذٰلك؛ فمن ابتغى الهدى في غير شريعة الله من النظم والقوانين الوضعية؛ أضله الله، ومن حكّم غيرها في عقيدته أو عبادته أو معاملاته؛ فهو مبتدع، فيه جاهلية، سيىء الظن بربه، معجب بفكر نفسه أو أفكار من اتخذهم من زعمائه. أرباباً في التشريع يشرعون له ما يضاهي به شريعة الله، بل يؤثر قوانينهم مع قصورهم وتقصيرهم على شريعة أحكم الحاكمين، وكفى بذٰلك زيغاً وضلالاً وكفراً وطغياناً.

قال تعالى: ﴿**وأن هٰذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿اتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلًا ما تذكرون﴾ [الأعراف: ٣].

وقال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلًا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ [الأنعام: ١١٥، ١١٦].

وقال: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولٰكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولٰئك هم الراشدون﴾ [الحجرات: ٧].

إلى غير ذٰلك من النصوص التي حثت على العمل بكتاب الله وهدي رسوله عليه الصلاة والسلام، وحذرت من الحيدة عن ذٰلك والإعراض عنه اتباعاً للآراء ونحاتة الأفكار دون بينة من الله أو حجة عن المعصوم ﷺ.

وإليك كلمات في أركان الشريعة والسياسة في البلاغ، وأمثلة من نصوص الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين؛ يتبين لك منها سعة الشريعة، وغناها بالنصوص والقواعد العامة، والجزئيات الخاصة التي تشرح حق الله على عبده وحق العبد على ربه وحق الراعي والرعية، وتحدد موقف الدولة من الدولة في السلم والحرب، والعلاقة بين أفراد

الشعب وجماعاته، بل بينت حقوق الحيوانات والعجماوات على راعيها وحَـدَّتْ من تسخيره لها وتسلطه عليها على وجه من العدالة يكفل لها البقاء، وحل جميع ما يَجِدُّ من المشاكل العامة والخاصة على أقوم طريق وأهدى سبيل.

للشريعة أصول إليها ترجع، ودعائم عليها تقوم؛ فشريعة الصلاة والصيام والزكاة ونحوها من العبادات لا يستقيم أداؤها ولا التنسك بها إلا إذا عرف العابد أن من يتقرب إليه غني كريم، قوي متين، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد... إلى غير ذٰلك من صفات الجلال والإنعام وقوة البأس وشدة الانتقام؛ فإنه إذا عرفه العباد بذٰلك؛ أشربت قلوبهم حبه، واستشعرت كمال الذل له والخوف منه؛ فأسلموا وجوههم إليه، وعبدوه عبادة من يعلم أنه يسمعه ويراه ويراقبه في كل شؤونه وأحواله؛ رجاء رحمته، وخشية عذابه.

وشـريعـة المعاملات لا تعدو ذٰلك النهج؛ نهج العبادات؛ فإن استقامة الناس في أخلاقهم، وعدلهم في رضاهم وغضبهم، وإنصافهم لأوليائهم وأعـدائهم، ونصحهم في بيعهم وشرائهم وجميع معاملاتهم يتوقف على شعور القلب بهيمنة قوة غيبية فوق قوى العالم، قوة رب قادر يخفض ويرفع ويعطي ويمنع على سنن قويم من الحكمة والعدالة، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادَّ لما قضى، بذٰلك الشعور يستقيم حال الإنسان، وينتظم أمره في سره وعلنه؛ فيرعى الحقوق لعذابه ونقمته، وبذٰلك الشعور وحده يجتمع شمل العالم ويعم الأمن والسلام جميع مرافق الحياة.

أضف إلى ذٰلك ثبوت الشريعة في ذاتها عند المكلفين، والإيمان

بها يتوقف على معرفة مصدرها والثقة بطريق بلاغها؛ فيجب إذن على العباد أن يعلموا أولاً أن لهم ربّاً خلّاقاً عليماً حكيماً، بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجعون. . . إلى غير ذٰلك مما تفرد به من صفات الربوبية، ويؤدوها على وجهها؛ استمداداً لفضل الله ورحمته، ودفعاً للتي استوجبت إخلاص العبادة منه؛ ليسلموا وجوههم إليه كوناً وشرعاً، ويعبدوه مخلصين له الدين رغبة ورهبة، وأن يعلموا ثانياً أنه تعالى يرسل رسله ليبلغوا عنه شريعته رحمة منه وفضلاً، ويؤيدهم بالمعجزات، ويعصمهم في البلاغ؛ حكمة منه وعدلاً؛ ليميز الكاذب من الصادق، والمبطل من المحق؛ فيثق العباد بشريعة ربهم، ويأمنوا عليها من الدخل والافتراء، وتقوم عليهم بها الحجة.

قال تعالى: ﴿**ولو تَقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

لهٰذا بدأت الرسل دعوتها بالتوحيد وإثبات الرسالة والجزاء يوم المعاد؛ فجرت على موجب العقل ومقتضى الفطرة.

وكان لزاماً على الدعاة أن يبدؤوا بما بدأ به الرسل، ويتبعوا ذٰلك القول في الفروع وتفاصيلها وسائر ما يكمل الأصول ويحمي حماها حسب الأهمية، وما يشعر به الدعاة من حاجة المدعوين شعوباً وأفراداً.

سلكت الرسل في إثبات وجود الله وتوحيده وصدقهم في دعوى الرسالة وخبرهم عن اليوم الآخر مسلك الإقناع بالحجة والبرهان وضرب الأمثال، وجمعت في ذٰلك بين مناجاة العقل والتأثير على العاطفة،

والتـذكير بمـا جبلت عليه النفوس وفطر عليه الخلق من الإقرار بالحق والميل إلى العدل والإنصاف، مع لين الجانب، والرفق في الخطاب، والصفح الجميل في غير ذلة نفس ولا مواربة أو مداهنة في الحق؛ فلا عَنَت في القول ولا تعسف، ولا فرض لحكم على الأمة دون بينة من الله وسلطان.

ففي إثبات وجود الله اكتفوا في الاستدلال عليه بالإشارة مع دقة المأخذ وسهولة العبارة؛ لقلة من أنكر وجوده تعالى ممن مسخت فطرهم ووضح للعقلاء جهلهم ومجافاتهم الحق وتنكبهم طريق الصواب.

قال تعالى: ﴿**أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون**﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]؛ فأنكر تعالى أن يكونوا خُلِقوا بلا خالق، ضرورة أن الأثر يحتاج في حدوثه إلى مؤثر، كما شهد بذٰلك العقل والفطرة والحس، وأنكر أن يكونوا خالقين لأنفسهم لما يلزمه من التناقض، وأنكر أن يكونوا خالقين للسماوات والأرض؛ لشهادة تاريخ وجود الأمم والكونيات الأخرى بأن خلق السماوات والأرض قد كان قبل خلق ما بينهما من الإنس والجن ونحوهم؛ فكيف يخلق المتأخر في الوجود شيئاً قد سبقه وتقدم عليه؟!

وقد أخذ جماعة من العلماء هٰذا الدليل الخبري العقلي، وأدخلوا عليه شيئاً من التكلف والصناعة الكلامية؛ فقالوا: إن نسبة الممكن إلى طرفيه: الوجود والعدم؛ على السواء، فلو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته؛ لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، ولو أوجد نفسه؛ لزم مع ذٰلك أن يكون متقدماً على نفسه باعتباره خالقاً لها، متأخراً عنهـا باعتباره مخلوقاً لها، وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها باطل

بالضرورة؛ لما فيه من التناقض الواضح؛ فثبت أن العالم لا بد له من موجد غير ذاته وحقيقته، ولا بد أيضاً أن يكون واجب الوجود لذاته مختلفاً عن العالم في خواصه وصفاته ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: ١١]، ذلك ليصح أن يستند إليه العالم في وجوده بَدْءً ودواماً؛ إذ لو كان مستحيلاً؛ لما صح أن يكون منه خلق أو تقدير؛ لأن المستحيل عدم محض، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولو كان ممكناً؛ لافتقر إلى من يرجح وجوده على عدمه كما سبق بيانه، فإن استمرت الحاجة، فاستند كل في حدوثه إلى نظير له من الممكنات؛ لزم إما الدور القبلي، وإما التسلسل في المؤثرات، وكلاهما باطل باتفاق العقلاء.

وإذا انتفى عنه الإمكان والاستحالة؛ ثبت له وجوب الوجود لذاته، ضرورة أن أقسام الحكم العقلي ثلاثة: الوجوب، والإمكان، والاستحالة، وقد انتفى اثنان؛ فتعين الثالث، وهو وجوب الوجود.

قال تعالى: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**﴾ [الحديد: ٣].

وفي الحديث: «اللهم أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر؛ فليس بعدك شيء».

ومن نظر فيما ترشد إليه الآيات نظراً ثاقباً، وفكّر فيما توحي به سنن الله في المخلوقات ـ من عجائب خلقها، وحسن تنسيقها، وشد أسرها ـ تفكيراً عميقاً، وبحث في أحكامها وبديع صنعها بحثاً بريئاً من الهوى والحمية الجاهلية، وأنصف مناظره من نفسه ـ فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق والإذعان له كبر يرديه، ولا عناد يطغيه ـ؛ اتضح له الهدى، واضطره ذلك أن يؤمن من أعماق قلبه بأن للعالم ربّاً خلّاقاً

فاعلًا مختاراً حكيماً في تدبيره وتقديره، أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير.

ومع قيام الدليل ووضوح السبيل تعامى بعض الناس عن الحق، ومن أولئك فرعون موسى؛ فإنه أنكر بلسانه ما استيقنت به نفسه وشهدت به الفطرة، وقام عليه الدليل من وجود واجب الوجود سبحانه؛ فأقام موسى عليه الحجة بدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع - فوجود الخلق وعظم شأنه دليل على وجود الخالق وعظِمَ قدرته وقدره وسعة علمه وكمال حكمته -؛ فألقمه الحجر، وذٰلك بَيِّن فيما حكاه الله عنهما من الحوار والسؤال والجواب.

قال تعالى: **﴿قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾** [الشعراء: ٢٣ - ٢٩].

فانظر كيف وقف موسى موقف من يصدع بالحق ويقيم عليه الحجة والبرهان، وكيف وقف فرعون من موسى موقف السفهاء، لا يملك إلا الشتم والسباب والسخرية والاستهزاء والتهديد بأليم العذاب.

وقال تعالى: **﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك**

يا فرعون مثبوراً﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

وقال تعالى: **﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هٰذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [النمل: ١٢، ١٣].

فبين تعالى أنه آتى موسى الآيات البينات التي تنير البصائر وتجلو الشكوك، وأن موسى ثبت في ميدان الدعوة ثبات مؤمن بما جاء به موقن بنصر ربه؛ فلم يرهبه جبروت فرعون، ولم يأخذ من نفسه مأخذاً مع وحدته وضعف قومه.

أما فرعون؛ فقد بهرته الآيات، وأخذت عليه صولة الحق الطريق؛ فلم يجد لديه سلاحاً يحفظ به ملكه في زعمه ويدافع به عن باطله؛ إلا الخداع والتمويه على قومه، وإنذار موسى ومن آمن به أن يذيقهم أليم عذابه، وأنَّى له ذٰلك! والله من ورائهم محيط، وقد كتب على نفسه أن يجعل العاقبة للمتقين، **﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾** [الإسراء: ١٠٣، ١٠٤].

ومن ذٰلك أيضاً قوله تعالى: **﴿قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾** [طه: ٤٩، ٥٠]؛ إلا أنه أجمل وأوجز في الاستدلال بهٰذه الآيات، وفصَّل في تلك.

وقد ورث ذٰلك الزيغ والإلحاد أناس ظهروا في عصور متعاقبة بأسماء مختلفة واشتهروا بألقاب متنوعة؛ فتارة يسمون بالدهريين، وأخرى برجال الحقيقة ووحدة الوجود، وأحياناً بالشيوعيين، وآونة

بالبهائيين. . . إلى غير ذٰلك من العبارات التي اختلفت حروفها ومبانيها وائتلفت مقاصدها ومعانيها؛ فكلها ترمي إلى غرض واحد، وتدور حول مِحْورٍ واحد هو أنه ليس للعالم رب يخلق ويدبر ولا له إلٰه يقصد ويعبد، وقد تبين بما تقدم وأمثاله فساد مذهبهم، وخروجه عن مقتضى العقل والفطرة، وما أيد ذٰلك وصدَّقه بعد أدلة السمع.

فإن زعم بعد ذٰلك زاعم أن وجود العالم وليد الصدفة والاتفاق، أو أنه نشأت أطواره عن تفاعل عناصر المادة، فتفرقت إلى وحدات بعد اجتماع أو اجتمعت بعد تفرق واختلاف، وصار لتلك الوحدات أو المركبات من الخواص ما لم يكن لها قبل ذٰلك من التفاعل، وبذٰلك تجددت الظواهر، وحدث ما نشاهد من تغير وآثار مع جريانها على سنة لا تتبدل وناموس لا يختلف ولا يتغير؛ قيل له:

من الذي أودع تلك المادة طبيعتها وأكسبها خواصها، فإنها إن كانت لها من ذاتها ومقتضى حقيقتها؛ لم تقبل التغير والزوال؛ لأن ما بالذات لا يتغير ولا يزول، وقد رأيناها تتغير وتزول؛ فلا بد لها إذن من واهب يهبها، وفاعل مختار عليم حكيم يوجدها، ويدبرها ويضعُها مواضعها، وليس ذٰلك المادة أو خواصها وطبيعتها؛ فإنها مع حدوثها وحاجتها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة وعظم القدرة ما ينتظم معه الكون، مع ما نشاهده من إحكام تبهر العقول دقته وجماله، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب ما فيه من شدة الأسر وقوة الرباط بين وحداته وكمال التناسب بين أجزائه، وقيام كل من الآخر مقام الخادم من سيده والراعي من رعيته.

إلا أن الطبيعة صماء لا تسمع، بكماء لا تنطق، عمياء لا تبصر،

جاهلة لا تعلم، مُسخرة لمن أودعها المادة، خاضعة لتصريفه وتقديره، سائرة على ما رُسم لها من سنن لا تعدوها ونواميس لا تخرج عنها؛ فأنى يكون لها خلق وإبداع! أو إليها تنظيم وتدبير! أو منها وحي وتشريع! إنما ذٰلك إلى الله الذي شهد العقل والفطرة؛ بوجوب وجوده، وكمال علمه وحكمته، وغناه، وقدرته... إلى غير ذٰلك من صفات جلاله، تعالى الله عما يقول الملحدون علوّاً كبيراً.

وقال تعالى: **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾** [الملك: ١ - ٥].

ولا يعيب الحق بعد ذٰلك أن يقلَّ من سلك طريقه، وأن يزيغ عنه من انتكسْت بصيرته وفسدت فطرته، فاتخذ إلٰهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غِشاوة، ولا يضير الدعاةَ إليه أن عدل عن الصراط المستقيم من انحرف مزاجه أو غلبته شهوته؛ فخشي أن تَحُدَّ الشريعة من نزعاته الخبيثة، وتحول دون نزواته الدنيئة، أو أطغاه كبره وسلطانه، وخاف أن تذهب الشريعة بزعامته الكاذبة وسلطانه الجائر؛ فوقف في سبيلها، وصد عنها، ولجَّ في خصامها بغياً وعدواناً؛ فإن الله ناصر دينه ومؤيد رسله وأوليائه.

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز﴾ [الحج: ٤٠].

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد: ٧].

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

يحكى عن أبي حنيفة رحمه الله أن جماعة من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير الربوبية؛ فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هٰذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب؛ فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيرهما بنفسها، وتعود بنفسها فترسو بنفسـها، وتفرغ وترجع، كل ذٰلك من غير أن يديرها أحد؟ فقالوا: هٰذا محال، لا يكون أبداً. فقال لهم: إذا كان هٰذا محالاً في سفينة؛ فكيف في هٰذا العالم كله علوه وسفله؟!

وقد قال مثل هٰذه المقالة جماعة معه من العلماء، وقولهم ليس حجة؛ لصدوره عنهم، بل لصحته في ذاته، وشهادة الواقع له.

شهدت الفطرة بأن الله وحده خالق كل شيء ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله من التصريف والتدبير؛ فهو الذي يُحيي ويميت، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو الذي يرسل الرسل، ويشرعُ الشرائع؛ ليحق الحق بكلماته، ويقيم العدل بين عباده شرعاً وقدراً... إلى غير ذٰلك مما لا يحصيه العدُّ، ولا تحيط به العبارة، وقام على ذٰلك أيضاً دليل السمع، وأقرَّ به كلُّ مكلَّف حتى المشركون.

قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماءً بقدَر فأنشرنا به بلدةً ميتاً كذٰلك تُخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفُلك والأنعام ما تركبون﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمَّا يشركون . أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . . .**﴾ إلى أن قال: ﴿**أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

فأنكر سبحانه أن يكون معه إله فعل شيئاً من ذلك، وقررهم بتفرده بكل شيء من الخلق والتدبير والتصريف والتقدير؛ ليجعل من ذلك ونحوه دليلاً على توحيد العبادة الذي هو المقصود الأول من بعثة الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع ـ كما سيجيء ـ، ونظائر ما ذكر من الآيات كثير، ولم يُعرف عن طائفة بعينها القول بوجود خالقين متكافئين في الصفات والأفعال، ومن نقل عنهم من طوائف المشركين نسبة شيء من الآثار والحوادث إلى غير الله كقوم هود، حيث قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾ [هود: ٥٤]؛ فإنما نسبوه إلى آلهتهم لزعمهم أنها وثيقة الصلة بالله، وأنها تملك الشفاعة عنده سبحانه لمن عبدها وتقرب إليها بالقرابين؛ فهي في زعمهم تملك لهم جلب النفع ودفع الضر، لكن عن طريق الشفاعة لهم عند الله.

ومن أجل هذه الشائبة من الشرك؛ نبه الله سبحانه على بطلانه، وأنكر على من زعمه؛ فقال تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

فبين سبحانه أنه لو كان معه إلٰه يشركه في استحقاق العبادة؛ لكان له خلق وتقدير وملك وقهر وتدبير؛ إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذٰلك ليرجى خيره ونفعه؛ فيطاع أمره، ويقصد قصده، ويخشى بأسه، فلا يعتدى على حدوده، ولا ينتهك حماه، ولو كان له خلق وتقدير وملك وتدبير؛ لعلا على شريكه وقهره إن قوي على ذٰلك ليكون له الأمر وحده، ولذهب كلٌّ بما خلق وتفرد بتدبير ما ملك إن لم يكن لديه من القوة ما يفرض بها سلطانه على الجميع؛ فإن من صفات الرب: كمال العلو والكبرياء، والقهر، والجبروت.

وفي معنى هٰذه الآية قوله تعالى: **﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً . سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً﴾** [الإسراء: ٤٢ ـ ٤٣]؛ على تقدير أن المراد: لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته وقهره، أو الخروج عليه والتفرد عنه بما خلقوا وملكوا، أما إن كان المعنى المراد: لاتخذوا سبيلاً إلى عبادته والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه؛ فالآية في توحيد الإلهية؛ كقوله تعالى: **﴿أولٰئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾** [الإسراء: ٥٧].

وقد استخلص بعض العلماء من ذٰلك دليلاً سموه دليل التمانع، وجعلوا جلَّ همهم إثبات توحيد الربوبية به، قالوا: لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره؛ لأمكن أن يختلفا، بأن يريد أحدهما وجود شيء ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد الآخر سكونه، وعند ذٰلك إما أن ينفذ مرادهما وذٰلك محال؛ لما يلزمه من الجمع بين الضدين، وإما أن لا ينفذ مراد كل منهما، وذٰلك محال؛ لما

يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر؛ فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون رباً.

ولو أن هٰؤلاء عُنُوا بتوحيد الإلهية، وصرفوا همتهم إلى بيان تفاصيله، وأجملوا القول في توحيد الربوبية والاستدلال عليه اكتفاءً بشهادة الفطرة وإقرار العباد به وعلمه بالضرورة، وجعلوا البحث فيه وسيلة إلى توحيد العبادة ودليلاً عليه؛ لكانوا بذٰلك قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقصارى القول أن انتظام العالم علوه وسفله، وإحكام صنعه، وحسن تنسيقه، وشدة الأسر، وقوة التماسك بين أجزائه ووحداته؛ دليل واضح على تفرد الله سبحانه بالربوبية ووحدانيته في أفعاله، وبرهان قاطع على إثبات ما أثبته لنفسه من كمال الأسماء والصفات أو أثبتته له الرسل عليهم الصلاة والسلام من ذٰلك إثباتاً صريحاً مفصلاً، لم يدع مجالاً للشك أو التأويل ولا سبيلاً إلى الريب أو التعطيل؛ فزالت به الشبهة، وحصل به اليقين.

وعلى ذٰلك اجتمعت شهادة الفطرة والعقل الصريح والنقل الصحيح، وصدَّق كل منهما الآخر.

وقد ذكر ابن القيم في «مدارج السالكين» هٰذين الطريقين: طريق الوحي والخبر، وطريق الحس والعقل، وإليك نبذة من ذٰلك:

فمن الأول قوله: ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة؛ علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها من حقائقها؛ فإنها وردت

على وجـه لا يحتمل معه التأويل بوجه؛ فانظر إلى قوله تعالى: **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾** [الأنعام: ١٥٨]، هل يحتمل هٰذا التقسيم والتنويع تأويل إتيان الله جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هٰذا السياق شبهة أصلاً أنه إتيان بنفسه؟

وكذٰلك قوله: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده...﴾** إلى أن قال: **﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾** [النساء: ١٦٣ - ١٦٤]؛ ففرق بين الإيحاء العام والتكليم الخاص، وجعلهما نوعين، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون.

وكذٰلك قوله: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾** [الشورى: ٥١]؛ فنوع تكليمه إلى تكليم بواسطة، وتكليم بغير واسطة.

وكذٰلك قوله لموسى عليه السلام: **﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** [الأعراف: ١٤٤]؛ ففرق بين الرسالة والكلام، وإنما تكون الرسالة بكلامه.

وكذٰلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب»(١).

والاحتراز ينافي إرادة التأويل، ولا يرتاب في هٰذا من له عقل ودين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ٣٣، برقم ٥٥٤)، ومسلم (١ / ٤٣٩، برقم ٦٣٣).

ثم قال: الطريق الثاني لإثبات الصفات هو دلالة الصنعة عليها؛ فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وقدرته، وعلى علمه ومشيئته؛ فإن الفعل الاختياري يستلزم ذٰلك استلزاماً ضرورياً وما فيه من الإتقان والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه وإحسانه ووجوده، وما فيه من آثار الكمال يدل على أن خالقه أكمل منه؛ فمعطي الكمال أحق بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات أحق بأن يكون هو كذٰلك في نفسه؛ فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء على إرادة الرب سبحانه ومشيئته وحكمته التي اقتضت التخصيص. . .

إلى أن قال: والإحسان إلى المطيعين والقرب إليهم بالإكرام وإعلاء درجاتهم؛ يدل على محبته ورضاه، وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب والسخط والإبعاد والطرد، والإقصاء يدل على المقت والبُغْض؛ فهٰذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل.

ولهٰذا دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذٰلك على صفاته؛ فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهودة، والقرآن مملوء بذٰلك؛ فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم. . .

إلى أن قال: وهٰكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في

خلقه وأمره، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله؛ فالخلق والأمر من أعظم شواهـد أسمائه وصفاته، وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته؛ فكيف لا تُعرف صفات من هٰذا العالم العلوي والسفلي وهٰذه المخلوقات من بعض صنيعه؟!

وإذا اعتبـرت المخلوقـات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة، ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة، كمـا قال تعـالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١]؛ فالمـوجودات بأسرها شواهد صفات الرب جلَّ جلاله ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتنادي عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمـل سطور الكـائنـات فإنهـا ... من الملك الأعلى إليك رسـائل
وقـد خط فيهـا لو تأملت خطهـا ... ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطـل
تشير بإثبـات الصفـات لربهـا ... فصـامتهـا يهـدي ومن هو قائـل

فلست ترى شيئاً أدلَّ على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه.

وقـد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها؛ فهي تدل عقلاً وحسّاً وفطرةً ونظراً واعتباراً، وفي هٰذا المعنى قال الشاعر:

تأمـل في نبـات الأرض وانـظر ... إلـى آثـار ما صنـع الـمـليك
عيون من لجـين شاخـصـات ... بأحـداق هي الـذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وإذا ثبت بدلالة الصنعة على الصانع وبأدلة السمع والفطرة وجود الله، ووجوب وجوده وتفرده بكمال الصفات والأفعال؛ وجب على العباد أن يخلصوا له العبادة، وأن يسلموا وجوههم إليه في السراء والضراء، وأن يدعوه وحده رغبة ورهبة خفية وجهرة؛ فهٰذا هو مقتضى الفطرة، وموجب العقل السليم، وبه جاء النقل الصحيح.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ فجعل سبحانه تفرده بالربوبية خلقاً للحاضرين والسابقين، ووضعه الأرض للأنام وتذليله إياها ليمشوا في مناكبها وينعموا برزقه، ورفعه السماء بغير عمد يرونها، وإنزاله الأمطار من السماء لُيحيي بها الأرض بعد موتها ويُخرج بها من الثمرات رزقاً لعباده؛ باباً إلى توحيد الإلهية، وآية بينة على استحقاقه وحده العبادة، وهٰذا هو الطريق الفطري في الحجاج (أعني: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية)؛ فإن قلب الإنسان يتعلق أولاً بمصدر خلقه ومنشأ نفعه وضره، ثم ينتقل بعد ذٰلك إلى الوسائل التي تقربه إليه وترضيه عنه وتوثق صلته به.

فتوحيد الربوبية باب إلى توحيد الإلهية، ومن أجل ذٰلك احتج الله به على المشركين وقررهم به، وأرشد إليه رسله وأمرهم أن يدعوا به أممهم.

قال تعالى: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تُسحَرون﴾** [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٩]؛ فاستدل بتفرده بالربوبية وكمال التصرف وحمايته ما يريد أن يحميه على استحقاقه وحده العبادة ووجوب تفرده بالإلهية.

وهٰذا النوع من التوحيد هو المقصود الأهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، وهو الذي بدأت به الرسل دعوتها ووقعت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم، وهو الذي شُرع من أجله الجهاد وقامت الحرب على ساقها بين الموحدين والمشركين.

وقال تعالى: **﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** [النحل: ١]؛ فأخبر أن البعث آتٍ لا محالة، ونزه نفسه عما زعمه المشركون من الشركاء، ثم استدل على ذٰلك بآياته الكونية؛ فقال:

﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. . .﴾ الآيات إلى قوله: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيَّان يُبعثون . إلٰهكم إلٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾** [النحل: ٤ ـ ٢٢]؛ فأخبر سبحانه عن البعث والتوحيد، ثم أقام على ذٰلك الحجة بآياته الكونية التي لا يشاركه فيها أحد باعترافهم، ثم ختم البحث بنتيجة الاستدلال وهو

التوحيد والقدرة على البعث، وذٰلك قوله: ﴿**إلٰهكم إله واحد...**﴾ الآية [النحل: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿**قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار...**﴾ إلى قوله: ﴿**فما لكم كيف تحكمون**﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٥]؛ فقررهم سبحانه بما لا يسعهم إنكاره، ولا مخلص لهم من الاعتراف به من تفرده بالرزق والملك والتدبير والإحياء والإماتة والبدء والإعادة والإرشاد والهداية؛ ليقيم به عليهم الحجة في وجوب طاعته دون سواه، وينكر عليهم حكمهم الخاطىء وشركهم الفاضح وعكوفهم على عبادة من لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وكذٰلك ما تقدم من قوله: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون . أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً...**﴾ إلى قوله: ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤]؛ فأنكر سبحانه أن يكون معه من خلق ودبَّر وصَرَّف وقدر، أو من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، أو يولي ويعزل وينصـر ويخذل، أو ينقذ من الحَيْرة ويهدي من الضلالة، أو من يبدأ الخلق ثم يعيده ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر... إلى غير ذٰلك مما استـأثـر الله به، وهٰذا مما استقر في فطرهم، واستيقنت به أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم، وقامت به عليهم الحجة فيما دعت إليه الرسل من توحيد العبادة.

وقال: ﴿**قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عمـا تعملون...**﴾ إلى أن قال: ﴿**كلا بل هو الله العزيز الحكيم**﴾

[سبأ: ٢٤ ـ ٢٧]؛ فأمره سبحانه أن يسلك في دعوته لقومه طريق الفطرة والعقل؛ فيستدل بتفرد الله بالآيات الكونية على توحيد الإلهية، وأن يلين لهم الجانب في غير ذلة ولا مداهنة، ويتلطف معهم في الدعوة والاستدلال من غير كذب ولا خداع، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم، وذٰلك بين في قوله: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾ [سبأ: ٢٤، ٢٥]؛ فهٰذا من منهج القرآن والرسل في الدعوة: حجاج، واستدلال، ورفق في القول، وأمر بالعرف، وحسن في السياسة من غير مداراة تذهب بالحق.

وفي معنى هٰذه الآية كثير؛ كمناظرة إبراهيم ونوح وموسى وإخوانهم من النبيين لأممهم عليهم الصلاة والسلام.

ومن سلك طريق القرآن في الدعوة والاستدلال، واهتدى بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الحجاج وحسن السياسة؛ قوي يقينه، وخصم مناظره؛ فإن في ذٰلك الحجة والبرهان من جهتين:

الأولى: الخبر عن المعصوم.

والثانية: أنه موجب الفطرة ومقتضى العقل الصحيح.

٤ ـ «الرسالة».

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الدين؛ فلا يستقيم لأحد دين ولا يُقْبلُ منه عمل؛ إلا إذا أيقن برسالتهم، وأذعن لكل ما جاؤوا به من الشرائع، كل حسب طاقته وبقدر ما بلغه من ذٰلك إجمالاً أو تفصيلاً.

قال تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أُنزِل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ**

آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي الحديث أن جبريل سأل النبي - عليهما الصلاة والسلام - عن الإيمان؛ فبينه بقوله: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»(١).

ومن زعم أنه آمن ببعض الرسل دون بعض؛ لن يقبل منه ذٰلك، وكان في حكم من كفر بالجميع، وذٰلك لأمرين:

الأول: أن من تقدم من الرسل قد بشر بمن تأخر منهم، وأخذ عليه وعلى من تبعه العهد والميثاق إن أدركهم أن يؤمنوا به وينصروه، وأن من تأخر منهم مصدق لمن بين يديه منهم، فمن كفر بواحد منهم تقدم أو تأخر؛ فهو كافر بجميعهم.

الثاني: أن الأمر الذي ثبتت به رسالة من آمن به منهم ومن أجله صدقه - وهو المعجزة - قد أجرى الله مثله على يد من كفر به من الأنبياء؛ تصديقاً لهم في دعوى الرسالة.

قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في (الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، ١ / ١٠٦)، ومسلم في (الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ٨).

(٢) أخرجه البخاري في (فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ٩ / ٤)، ومسلم في (الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس).

فكان إيمانه بمن آمن به وكفره بغيره منهم اتباع للهوى لا لدليل النبوة، وإلا لآمن بالجميع، ومن كان إيمانه تبع هواه ولو تغير هواه؛ لتغير إيمانه؛ فليس بمؤمن في حكم الشريعة.

قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذٰلك سبيلاً. أولٰئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

والقول في رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام يتشعب شعباً كثيرة، ويرجع إلى مباحث عدة؛ يرجع إلى إمكان أن يوحي الله إلى بعض من يصطفيه من عباده بشريعة ليهدي بها أمته سواء السبيل، ثم إلى حاجة العالم إلى هٰذه القيادة الرشيدة والشريعة المستقيمة ليكون إرسالهم على مقتضى الحكمة وموجب العدالة الإلهية، ثم إلى بيان ما يؤيدهم الله به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي تدل على صدقهم فيما ادعوه من الرسالة والبلاغ عن الله لتقوم بذٰلك الحجة وينقطع العذر، ثم إلى بيان ما يتعلق بذٰلك من تنوع الفوارق بين المعجزات والسحر والكهانة، وبيان ما يُعِدُّ الله به رسله قبل الرسالة من السيرة الحميدة والأخلاق الفاضلة؛ ليكون ذٰلك أقرب إلى أن تستجيب لهم أممهم، وتتقبل عنهم ما دعوهم إليه.

وقد تكفل الله ببيان ذٰلك كله خبراً وعقلاً وفطرة فيما أنزل على رسله؛ فعلمهم سبحانه طريق الحجة والبرهان التي يخضع لها العقل الصريح، وسلك بهم الطريقة المثلى التي لا يرتاب فيها إلا من سفه نفسه وأنكر فطرته.

وإليك تفصيل ذٰلك؛ لتعلم أن الشرائع الإلهية تعتمد في أصولها الحجة والإقناع، وإن جاء في فروعها وتفاصيل أصولها ما قد يعجز العقل عن إدراك حكمته؛ فطريق ثبوت مثل هٰذا الخبر عن المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

١ ـ إمكان الوحي والرسالة.

لا يبعد في نظر العقل ولا يستحيل في تقدير الفكر أن يختص واهبُ النعم ومفيض الخير ـ سبحانه ـ بعض عباده بسعة في الفكر، ورحابة في الصدر، وحسن قيادة، وكمال صبر، وسلامة في الأخلاق؛ ليعدهم بذٰلك لتحمل أعباء الرسالة، ويكشف لهم عما أخفاه عن غيرهم، ويوحي إليهم بما فيه سعادة الخلق وصلاح الكون؛ رحمة للعالمين، وإعذاراً إلى الكافرين، وإقامة للحجة على الناس أجمعين؛ فإنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء وهو الفاعل المختار، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وهو على كل شيء قدير.

وآية ذٰلك أنا نشاهد الله سبحانه خلق عباده على طرائق شتى في أفكارهم ومذاهب متباينة في مداركهم؛ فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه واطلع من الكون على كثير من أسراره، حتى وصل بما منحه الله من ثاقب الفكر ويسر له من التجارب إلى أن اخترع للناس ما رَفَع إليه من أجله أولو الألباب رؤوسهم إعجاباً به وشهادة له بالمهارة، وأنكره عليه صغار العقول، وعدوه شعوذة وكهانة أو ضرباً من ضروب السحر، ولم يزالوا كذٰلك حتى استبان لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفي عليهم؛ فأذعنوا له وأيقنوا بما كانوا به يكذبون، ومنهم من ضعف عقله، وضاقت مداركه؛ فعميت عليه الحقائق، واشتبه عليه الواضح منها؛

فأنكر البديهيات، ورد الآيات البينات، ومنهم من انتهى به انحراف مِزاجه واضطراب تفكيره إلى أن أنكر ما تدركه الحواس كطوائف السوفسطائية.

وكما ثبت التفاوت بين الناس في العقول والأفكار بضرورة النظر وبديهة العقل؛ ثبت التفاوت بينهم ـ أيضاً ـ في قوة الأبدان وضعفها، وسعة الأرزاق وضيقها، ونيل المناصب العالية، والاستيلاء على زمام الأمور، وقيادة الشعوب، والحرمان من ذٰلك؛ إما للعجز، وإما للقصور أو التقصير، وإما لحكم أخرى يعلمها بارىء الكائنات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وربما كُشِفَ الغطاءُ عن الكثير منها لمن تدبر القرآن وعرف سيرة الأنبياء وتاريخ الأمم وما جرى عليها من أحداث.

فمن شاهد ما مضت به سنة الله في عباده من التفاوت بينهم في مداركهم وقواهم وإرادتهم وغير ذٰلك من أحوالهم؛ لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع، ويستيقن أن الله ينبىء من شاء من خلقه ويصطفي من أراد من عباده.

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ [القصص: ٦٨].

﴿وقالوا لولا نُزِّل هٰذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك

خير مما يجمعون﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

بل هٰذا الحوار وأمثاله مما دار بين الرسل وأممهم يدل على أنهم لم يكونوا ينكرون أصل الرسالة، ولم يكونوا يستبعدون أن يصطفي الله روحاً طيبة لوحيه، أو يختار نفساً طاهرة لتبليغ رسالته وهداية خلقه، لكنهم استبعدوا أن يكون ذٰلك الرسول من البشر، وظنوا خطأً أنه إنما يكون من الملائكة؛ زعماً منهم أن البشرية تنافي الرسالة؛ فمهما صفت روح الإنسان، وسمت نفسه، واتسعت مداركه؛ فهو في نظرهم أقل من أن يكون أهلاً لأن يوحي الله إليه، وأحقر من أن يختاره سبحانه لتحمل أعباء رسالتهم.

وقد ذكر الله عنهم هٰذه الشبهة، وردها بما لا يسع العاقل إلا قبوله والإذعان له، ومن نظر في الكتب المنزلة وتصفح ما رواه علماء الأخبار مما دار بين الأنبياء وأممهم من الجدال والحجاج؛ اتضح له ذٰلك.

قال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . . .﴾** الآيات إلى قوله: **﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾** [هود: ٢٥ ـ ٣٣]؛ فانظر كيف فروا من ميدان المناظرة إلى استعجال الهلاك، وطلبوا ذٰلك من نوح؛ فبين لهم أن ذٰلك إلى الله لا إليه، إن عليه إلا النصح والبلاغ المبين وإقامة الحجة والبرهان.

وقال تعالى: ﴿كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسُعر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشِر﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٦]؛ فذكر شبهتهم ثم ردها بما آتاه من المعجزة الدالة على صدقه، وبنصره وإهلاكهم؛ فإن العاقبة للمتقين.

وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمىً قالوا أن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولٰكن الله يمُن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [إبراهيم: ١٠ - ١١].

إلى غير ذٰلك من الآيات التي دلت على أن إنكار الأمم لم يكن لأصل الرسالة، إنما كان لبعث رسول إليهم من جنسهم.

ولو قال قائل: إن أئمة الكفر وزعماء الضلالة كانوا يوقنون بإمكان أن يرسل الله رسولاً من البشر؛ غير أنهم جحدوا ذٰلك بألسنتهم؛ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وتمويهاً على الطغام من الناس، وخداعاً لضعفاء العقول، وتلبيساً عليهم خشية أن يستجيبوا إلى مقتضى الفطرة ويسارعوا إلى داعي الدين ومتابعة المرسلين، لو قال ذٰلك

قائـل ما كان بعيداً عن الحقيقـة ولا مجافياً للصواب، بل بدرت منهم البوادر التي تؤيد ذٰلك وتصدقه، وسبق إلى لسانهم ما يرشد البصير إلى ما انطوت عليه نفوسهم من الحسد والاستكبار أن يؤتى الرسل ما أوتوا دونهم وأن ينالوا من الفضيلة وقيادة الأمم إلى الإصلاح ما لم ينل هٰؤلاء.

قال تعالى: **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل اللهِ اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته﴾** [الأنعام: ١٢٤].

﴿وقـالـوا لولا نُزِّل هٰذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال: **﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهٰذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هٰذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا أُلقِي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾** [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

هٰذا وليس بدعاً أن يختار الله نبيّاً من البشر، ويبعث إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بل ذٰلك هو مقتضى الحكمة وموجب العقل.

فإن الله سبحانه قد مضت سنته في خلقه أن يكونوا أنواعاً مختلفة على طرائق شتى وطبـائع متباينة، لـكل نوع غرائزه وميوله، أو خواصُّه ومميزاته التي تقتضي الأنس والتآلف بين أفراده، وتساعد على التفاهم والتعاون بين جماعاته؛ ليستقيم الوجود، وينتظم الكون؛ فكان اختيار الرسول من الأمة أقرب إلى أخذها عنه وأدعى إلى فهمها منه وتعاونها معه؛ لمزيد التناسب، ومكان الإلف بين أفراد النوع الواحد، ولو كان

عمار الأرض من الملائكة؛ لاقتضت الحكمة أن يبعث الله إليهم ملكاً رسولاً، وقد أرشد الله إلى ذلك في رده على من استنكر أن يُرْسَلَ إلى البشر رسول منهم.

قال تعالى: **﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾** [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

ولكن شاء الله أن يجعل عمار الأرض من البشر؛ فاقتضت حكمته أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، بل اقتضت حكمته ما هو أخص من ذلك ليكون أقرب إلى الوصول للغاية وتحصيل المقصود من الرسالة؛ فكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه.

قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليُبين لهم فيُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾** [إبراهيم: ٤].

ولو قدر أن الله أجاب الكفار إلى ما طلبوا من إرسال ملكٍ إليهم؛ لجعل ذلك الملك في صورة رجل ليتمكنوا من أخذ التشريع عنه والاقتداء به فيما يأتي ويذر، ويخوض معهم ميادين الحجاج والجهاد، وإذ ذاك يعود الأمر سيرته الأولى كما لو أرسل الله رسوله من البشر، ويقعون في لبس وحيرة؛ جزاءً وفاقاً.

قال تعالى: **﴿وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقُضيَ الأمرُ ثم لا يُنظَرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾** [الأنعام: ٨، ٩].

ومن نظر في آيات القرآن، وعرف تاريخ الأمم؛ تبين له أن سنة الله

في عباده أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم.

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي ذٰلك الرد الواضح على من زعم منافاة البشرية للرسالة ببيان سنة الله في رسله، وحكمته في اختيارهم على نحو يكفل المصلحة وينتهي بالأمة إلى المقصود.

٢ ــ حاجة العالم إلى الرسالة.

الأفعال الاختيارية منها ما تحمد عاقبته؛ فيجمل بالعاقل فعله والحرص عليه، ولو ناله في سبيل تحصيله حرج ومشقة، وأصابه منه في عاجل أمره كثير من الآلام.

ومنها ما تسوء مغبته؛ فيجدر بالعاقل أن يتماسك دونه، وأن يتنكب طريقه خشية شره، وطلباً للسلامة من ضره وإن كان فيه ما فيه من اللذات العاجلة التي تغري الإنسان بفعله وتخدعه عما فيه سلامته؛ غير أن العقل قد يَقْصر في كثير من شؤونه عن التمييز بين حسن الأفعال وقبيحها ونافعها وضارِّها؛ فلا بدَّ له من معين يساعده على إدراك ما قصر عنه إدراكه، وقد يعجز كليّاً عن العلم بما يجب عليه علمه؛ لأنه ليس في محيط عقله، ولا دائرة فكره، مع ما في علمه به من صلاحه وسعادته، وذٰلك كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلاً، فكان في ضرورة

إلى من يهديه الطريق في أصول دينه.

وقد يتردد في أمر؛ إما لعارض هوى وشهوة، أو لتزاحم الدواعي واختلافها؛ فيحتاج إلى من ينقذه من الحَيْرة، ويكشف له عن حجاب الضلالة بنور الهدى؛ فبان بذٰلك حاجة العالم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويكملهم بمعرفة ما قصرت عنه أفهامهم، ويوقفهم على حقيقة ما عجزوا عنه، ويدفع عنهم آلام الحيرة ومضرة الشكوك.

أضف إلى ذٰلك أن تفاوت العقول وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذٰلك يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات، وبالجملة ينتهي إلى تخريب وتدمير لا إلى تنظيم وحسن تدبير، ولا يرتفع ذٰلك إلا برسول يأتي بفصل الخطاب، ويقيم الحجة، ويوضح المحجة، وينشر العدل؛ فاقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل، وينزل الكتب؛ رحمة بعباده، وإقامة للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم، وإعانةً لهم على أنفسهم، وإعذاراً إليهم؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذٰلك أرسل الرسل وأنزل الكتب.

ففي الحديث أن سعد بن عبادة؛ قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذٰلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «تعجبون من غيرة سعد؟! لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذٰلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من

الله، ومن أجل ذٰلك وعد الجنة»[1].

ومما تقدم يُعلم أن إرسال الله للرسل مما يدخل في عموم قدرته، وتقتضيه حكمته فضلاً من الله ورحمة، والله عليم حكيم، وهٰذا هو القول الوسط والمذهب الحق.

وقد أفرط المعتزلة؛ فقالوا: إن بعثة الرسل واجبة على الله؛ إبانة للحق، وإقامة للعدل، ورعاية للأصلح، وهٰذا مبني على ما ذهبوا إليه من القول بالتحسين والتقبيح العقليين وبناء الأحكام عليهما ـ ولو لم يرد شرع ـ، وهو أصل فاسد.

وتطرف البراهمة؛ فأحالوا أن يصطفي الله نبيّاً ويبعث من عباده رسولاً، وزعموا أن إرسالهم عبث؛ إما لعدم الحاجة إليهم اعتماداً على العقل في التمييز بين المصالح والمفاسد واكتفاءً بما يدركه مما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد، وإما لاستغناء الله عن عباده وعدم حاجته إلى أعمالهم؛ خيراً كانت أو شرّاً؛ إذ هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم، ولا يتضرر بمعصيتهم.

وقد سبق بيان عدم كفاية العقل في درك المصالح والمفاسد، وحاجة العالم إلى الرسالة تحقيقاً لمصالحهم، مع غنى الله عن الخلق وأعمالهم؛ فليس إرسالهم عبثاً، بل هو مقتضى الحكمة والعدالة.

٣ ـ طريقة الرسل في إثبات العبادة.

لم يَدْعُ الأنبياء أممهم إلى الإيمان بما جاؤوا به من الشرائع دون

---

(١) سبق تخريجه.

بينة أو برهان يكون شاهدَ صدقٍ على إثبات أن ما دعوهم إليه وحي من الله وشرعه الذي ارتضاه لعباده ديناً، ولم يلزموهم بذلك دون إقناع تقوم به الحجة ويسقط به العذر، بل تحدى كل رسول أمته بما آتاه الله من الآيات البينـات والمعجـزات الباهرات التي يخضع لها العقل السليم وتتصاغر أمامها قوى البشر، وطلب منهم أن يأتوا بمثل ما ظهر على يده من خوارق العادات ـ وأنى لهم ذلك وهو من اختصاص واهب القوى والقدر ـ، فلما عجزوا عنه؛ كان دليلاً واضحاً على صدقهم في دعوى الرسالة، وأن ما جاؤوا به شرع الله ودينه الحق.

فإن لله سبحانه من كمال الحكمة والعدالة وسعة الرحمة والجود وسابغ الكرم والإحسان ما يمتنع معه أن يؤيد متنبئاً كذاباً يخدع العباد ويفسـد عليهم أمـر دينهم ودنياهم، بل يستحيل في حكمـه وعدله أن يبقي عليه أو يهمله؛ لما في ذلك من التلبيس والتضليل، وفساد الكون وتخـريبه، وهو شر محض، والشر ليس إليه سبحانه؛ ففي الحديث: «الخير كله بيديك، والشر ليس إليك».

وقد بين سبحانه أنه بالمرصاد لمن افترى عليه كذباً، أو قال أُوحِي إليّ ولم يوحَ إليه بشيء؛ فقال تعالى: ﴿**ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخـذنـا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وإذا أبت حكمة الله وسعة رحمته أن يترك عباده سدى؛ فلا يرسل إليهم رسـولاً يأمرهم وينهاهم، ويبين لهم معالم الهدى وشرائع الحق ليهلك من هلك عن بينة ويحيا مـن حَيَّ عن بينة؛ فأولى في حكمه العدل

ورحمته الواسعة أن يقضي على المتنبئين كذباً وافتراءً، وأن يعاجلهم بالعقوبة والهلاك؛ رحمة للعالمين، وتمييزاً بين رسله الصادقين والمتنبئين الكاذبين.

٤ ــ الفرق بين المعجزة والسحر.

كل ما لم تبلغه طاقة البشر ولم يقع في دائرة قدرتهم؛ فهو معجز، وقد تطلق المعجزة على ما خرج من طاقة العامة من الخلق دون الخاصة؛ كبعض المسائل العلمية المشكلة، واختراع بعض الآلات والأجهزة الحديثة، ونحوها مما لا يقوى عليه إلا الخواص من الناس؛ كالغوص، والسباحة، وحمل الأثقال، وهٰذا عجز نسبي يكون في مخلوق دون آخر.

والمراد من المعجزة: هٰذا الأمر الخارق للعادة الخارج عن سنن الله العامة في خلقه، الذي يظهره الله على يد مدعي النبوة؛ تصديقاً له في دعواه، وتأييداً له في رسالته، مقروناً بالتحدي لأمته ومطالبتهم أن يأتوا بمثله، فإذا عجزوا؛ كان ذٰلك آية من الله على اختياره إياه وإرساله إليهم بشريعته.

أما السحر: فهو في اللغة: كلّ ما دق ولطف وخفي سببه؛ فيشمل قوة البيان وفصاحة اللسان؛ لما في ذٰلك من لطف العبارة ودقة المسلك، ويشمل النميمة؛ لما فيها من خفاء أمر النمَّام وتلطفه في خِداع من نَمَّ بينهما ليتم له ما يريد من الوقيعة، ويشمل العزائم والعقد التي يعقدها الساحر وينفخ فيها مستعيناً بالأرواح الخبيثة من الجن ليصل بذٰلك ـ في زعمه ـ إلى ما يريد من الأحداث والمكاسب.

فيتلخص الفرق بين المعجزة والسحر فيما يأتي:

أ ــ المعجزة ليست من عمل النبي وكسبه، إنما هي خلق محض من الله على خلاف سننه في الكائنات، وقد طُلِب من محمد ﷺ آية؛ فقال بإرشاد مولاه: ﴿إنما الآيات عند الله﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقال لمن استعجلوا ما توعدهم به بأمر ربه: **﴿ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين. قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقُضيَ الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾** [الأنعام: ٥٧، ٥٨].

أما السحر؛ فمن عمل الساحر وكسبه، سواء أكان تعويذات أم بياناً أم تميمة أم غير ذٰلك، وله أسبابه ووسائله التي قد تنتهي بمن عرفها ومهر فيها وعمل بها إلى مسبباتها؛ فليس خارقاً للعادة ولا مخالفاً لنظام الكون في ربط الأسباب بمسبباتها والوسائل بمقاصدها.

ب ــ المعجزة تظهر على يد مدعي النبوة لتكون آية على صدقه في دعوى الرسالة التي بها هداية الناس من الضلالة وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والأخذ بأيديهم إلى ما ينفعهم في عقائدهم وأخلاقهم وأبدانهم وأموالهم، والسحر خلق ذميم أو حرفة أو صناعة يموه بها الساحر على الناس ويضللهم ويخدعهم بها عن أنفسهم وما ملكت أيديهم، ويتخذها وسيلة لكسب العيش من غير حِلِّه، ويفرق بها بين المرء وزوجه والصديق وصديقه، وبالجملة يفسد بها أحوال الأمة في خفاء، والناس عنه غافلون.

ج ــ سيرة من ظهرت على يده المعجزة حميدة وعاقبته مأمونة؛

فهو صريح في القول والفعل، صادق اللهجة، حسن العشرة، سخي، كريم، عفيف عما في أيدي الناس، يدعو إلى الحق وينافح[1]عنه بقوة وشجاعة، أما الساحر؛ فسيرته ذميمة، ومغبته وخيمة، خائن خدّاع سيىء العشرة، يأخذ ولا يعطي، يدعو إلى الباطل، ويسعى جهده في ستره خشية أن يفتضح أمره ويكشف سره؛ فلا يتم له ما أراد من الشر والفساد.

د ـ من ظهرت على يده المعجزة يقود الأمم والشعوب إلى الوحدة والسعادة، ويهديها طريق الخير، وعلى يده يسود الأمن والسلام وتفتح البلاد، ويكون العمران، والساحر آفة الوحدة، ونذير الفرقة والتخريب والفوضى والاضطراب.

٥ ـ تنوع المعجزة مع بيان الحكمة في ذلك.

آيات الأنبياء التي أيد الله بها رسله قد اختلفت أنواعها، وتباينت مظاهرها وأشكالها؛ إلا أنها تجتمع في أن كلًّا منها قد عجز البشر عن أن يأتوا بمثله منفردين أو مجتمعين؛ فكانت بذلك شاهدَ صدقٍ على الرسالة، وحجة قاطعة تخرس الألسنة وينقطع عندها الخصوم، ويجب لها التسليم والقبول.

ويغلب أن تكون معجزة كل رسول مناسبة لما انتشر في عصره وبرز فيه قومه وعُرفوا بالمهارة فيه؛ ليكون ذلك أدعى إلى فهمها، وأعظم في دلالتها على المطلوب، وأمكن في الإلزام بمقتضاها.

ففي عهد موسى انتشر السحر، ومهر فيه قومه حتى أثروا به على

---

(١) ينافح: يدافع.

النفوس، وسحروا أعين الناظرين، وأوجس في نفسه خيفة منه من شهده وإن كان عالي الهمة قوي العزيمة؛ فكان ما آتاه الله نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدر وما يدرك بالأسباب والوسائل، وقد أوضح الله ذٰلك في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى**﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٣].

ولهٰذا بهت السحرة، وبطل ما جاؤوا به من التمويه والتخييل، وامتاز الحق من الباطل.

قال تعالى في بيان ذٰلك في المباراة التي كانت بين موسى عليه السلام والسحرة: ﴿**فألقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون**﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨].

وفي عهد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام برع بنو إسرائيل في الطب؛ فكان مما آتاه الله أن يصور من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله. . . إلى غير ذٰلك من الآيات التي تثبت بها رسالته، وقامت بها الحجة على قومه.

وفي عهد محمد ﷺ كان العرب قد بلغوا الغاية في الفصاحة وقوة البيان، وجرت الحكمة على ألسنتهم حتى اتخذوا ذٰلك ميداناً للسباق والمباراة؛ فأنزل الله القرآن على رسوله عليه الصلاة والسلام؛ فكانت

بلاغته وبيانه وما تضمنه من الحكم والأمثال جانب ما كان من تأييد إعجازه.

قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

٦ ـ معجزات الأنبياء لا تنحصر فيما تحدى به كل نبي قومه.

وليست معجزات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام قاصرة على ما ذُكر، وإنما ذٰلك بيان لما تحدى به كل منهم قومه، وجعله قاعدة يبني عليها دعوته ويثبت بها شريعته، وإلا؛ فلهٰؤلاء وغيرهم من الأنبياء كثير من الآيات البينات والدلائل الواضحات التي دلت على صدقهم سوى ما تحدى به كل نبي قومه، منها ما يرجع إلى سيرتهم قبل الرسالة؛ فإن الله قد أعدهم لتحمل أعباء رسالته، ومنها ما يرجع إلى ثبات جأشهم وقوة بأسهم في مقام الدعوة والجهاد في سبيل الله؛ نصرة للحق، ونشراً له بنفسه وبمن آمن معه، وما أقلهم عدداً وأضعفهم جاهاً مع غنى خصومهم وكثرة عددهم وعُدَدِهم وقوة سلطانهم... إلى غير ذٰلك مما يدل على صدق الداعي في دعوته، وكمال يقينه بها، ومنها ما يرجع إلى سلامة الشريعة التي يدعون إليها، وحكمتهم في حمل الناس عليها، وقوة حجاجهم في الدفاع عنها وما شوهد من آثارها في صلاح من اهتدى بها من الأمم في الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب والسلم وغير ذٰلك من أحوال الشعوب؛ حتى إذا حرفوها عن مواضعها

---

(١) سبق تخريجه.

وتـأولـوهـا على غير وجههـا، أو أعرضوا عنها وتركوا العمل بها؛ زالت دولهم، وساءت حالهم؛ فإن العاقبة للمتقين، والخيبة والخسران على المفسدين.

ومن ذٰلك يتبين أن الرسالة ليست شعوذة ولا كهانة؛ فإن الرسل عُرفـوا بالصـدق والأمانة، والشياطين إنما تُتْرك على من يجانسهم في الكذب والافتراء والإفك والبهتان، قال تعالى: **﴿هل أنبئكم على من تنـزَّل الشياطين . تتنزَّل على كل أفَّاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾** [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

ولـو لمست الشياطين السمـاء استراقاً للسمع أو طلباً للوحي ما وجـدوا إلى ذٰلـك سبيلاً، قال تعالى في شأن القرآن: **﴿وما تنزلت به الشيـاطين . ومـا ينبغي لهم ومـا يستـطيعـون . إنهم عن السمـع لمعزولون﴾** [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

وليست الرسالة أيضاً من جنس ما تجود به قريحة الشعراء، وتمليه عليهم مشاعرهم مما تهواه نفوسهم؛ فإن الشعراء ـ إلا من عصم الله ـ يغلب عليهم أن يسلكـوا كل فج، ويضـربـوا في كل وادٍ، ومن سلك سبيلهم كان على شاكلتهم في الغي والفساد.

أما الرسل؛ فقد جاؤوا بالهدى ودين الحق، ومن سلك سبيلهم كان على بصيرة في عمله وبينة من أمره واستقامة في سيره، قال تعالى: **﴿والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقـولـون ما لا يفعلون . إلا الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات﴾** الآية [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

ومن المعجزات ما يرجع إلى آيات حسية أكرم الله بها رسله ومن آمن بهم ؛ من تفريج كربة وإزالة شدة، أو خوارق عادات طلبتها الأمة بغياً وعناداً كانشقاق القمر فأجيبت إليها ؛ دفعاً للحرج عن الرسل، وزيادة في التثبيت لهم، والإعذار إلى من كفر بهم، ومنها ما يرجع إلى تعليم الصناعات وتيسير طريقها ؛ كإسالة عين القطر، وإلانة الحديد لداود عليه السلام على خلاف السنة الكونية ؛ ليكون ذٰلك آية له وكرامة، وليكون سعة للعباد ورحمة لهم، وكتسخير الريح والطير والجبال والجن لسليمان عليه السلام . . . إلى غير ذٰلك مما لا يحصيه إلا الله .

ومن اطلع على قصص الأنبياء في القرآن وكتب السير وجد الكثير من ذٰلك، وسأذكر جملة منها بعد ترشد إلى ما وراءها مما لم يُذكر إن شاء الله .

بين سبحانه لرسوله محمد ﷺ في كثير من قصص القرآن الطريقة المثلى التي يثبت بها رسالته ويحاج بها أمته، وأرشده إلى كون ذٰلك القصص آية بينة توجب عليهم أن يستجيبوا لما دعاهم إليه ؛ من التصديق برسالته، والإيمان بسائر ما جاءهم به من عند الله، من ذٰلك قصة يوسف عليه الصلاة والسلام .

إن هٰذه القصة فيها كثير من العجائب والعبر والعظات والأحكام والأخلاق وألوان الابتلاء والامتحان والفضل والإحسان، والذي أقصد إليه من مباحثها أمرين لمزيد اتصالهما بما أنا بصدد الكلام عليه :

الأول : كيف كانت هٰذه القصة معجزة لرسول الله محمد ﷺ .

الثاني : كيف كانت دليلاً على أن الله يُعِدُّ رسله في حياتهم الأولى

قبل الرسالة لتحمل أعبائها حين إرسالهم إلى أممهم.

أما الأول؛ فإنه تعالى ذكر قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في القرآن مفصلة لتكون آية، بل آيات على نبوة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وبيان ذٰلك أنه كان أمياً لم يقرأ شيئاً من كتب الأولين، ولا درس شيئاً من تاريخهم، ولا خط من ذٰلك شيئاً بيمينه حتى يرتاب في أمره ويتهم بأنه تكلم بما قرأ أو درس، قال تعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون**﴾ [العنكبوت: ٤٨]، بل كان من الغافلين عن قصة يوسف وأمثالها، لم تخطر له ببال، ولم تقرع له سمعاً قبل أن يوحي الله بها إليه ويذكرها له في محكم كتابه.

قال تعالى في مطلع سورة يوسف: ﴿**تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون . نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هٰذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾ [يوسف: ١ - ٣].

وقال بعد ذكر يوسف لرؤياه وعرضها على أبيه ووصية أبيه له: ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾ [يوسف: ٧].

ولم تكن قصة يوسف بالأمر الذي اشتهر في العرب وتناولوه بالحديث فيما بينهم، بل كانت غيباً بالنسبة إليهم، ولا كان محمد مع يوسف وإخوته، ولا شهد مكرهم به ولا كيدهم له؛ فيتهم بأنه تكلم بأمر شهده أو انتشر بين قومه.

قال تعالى لنبيه محمد في ختام قصة يوسف عليهما الصلاة والسلام: ﴿**ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا**

أمرهم وهم يمكرون﴾ [يوسف: ١٠٢].

ولا يسع أحداً أن يقول إنه عرف تفاصيل القصة من اليهود؛ فإن السورة مكية، واليهود كانوا يعيشون بالشام والمدينة وما حولها، ولم يُعرف عنه أنه اتصل بهم قبل الهجرة، ولا دارسهم شيئاً من العلوم، ولو كان تم شيء من ذٰلك؛ لانكشف أمره لطول العهد وكثرة الخصوم، وحرج قومه من دعوته، وسعيهم جهدهم في الكيد له والصد عنه، وحرصهم على تشويه سمعته والقضاء عليه وعلى دعوته؛ حتى رموه بالسحر والكهانة والجنون، واتهموه زوراً بالكذب وهو في قرارة أنفسهم الصادق الأمين، وتبادلوا الرأي فيما يوقعونه به من حبسه أو طرده من بينهم وتشريده، وانتهى أمرهم بالاتفاق على قتله؛ فأنجاه الله من كيدهم، وكتب له الهجرة إلى المدينة حيث عز الإسلام وقامت دولته، قال تعالى: **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾** [الأنفال: ٣٠].

فقومٌ هٰذا شأنهم معه لا يخفى عليهم أمره وهو يعيش بين أظهرهم وهم له بالمرصاد، فلو وجدوا سبيلاً إلى الطعن عليه باتصاله باليهود والأخذ عنهم؛ لسارعوا إلى فضيحته والتشنيع عليه بذٰلك، ولم يضطروا إلى الافتراء عليه ولا إلى التفكير في قتله أو تشريده ولا إلى نشوب الحرب بينه وبينهم سنين طويلة، ولم يلجؤوا إلى اتهامه تهمة تحمل ردها في طيها؛ فقد اتهموه برجل أعجمي بمكة وادعوا أنه يعلِّمه؛ فسفه الله أحلامهم وألقمهم الحجر، قال تعالى: **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلِّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهٰذا لسان عربي مبين﴾** [النحل: ١٠٣].

وليست قصة يوسف خبراً مقتضباً عبر عنه بالجملة أو الجملتين، فيقال: إن صدقه في الحديث عنها وليد الصدفة والاتفاق، بل هي قصة كثيرة العجـائب، متشعبة الموضوعات، وقعت بين أطراف مختلفة في أزمان متباعدة؛ فمن رؤيا صادقة، إلى مؤامرة، ثم نجاة يتبعها بيع، ثم إيواء... إلى مراودة يتبعها هم، ثم عصمة من الفحشاء... إلى سجن فيه دعوة إلى التوحيد مع رفق وحسن سياسة وتأويل للرؤيا أصدق تأويل، يتبع ذٰلك خروجه عليه السلام من السجن بريئاً من التهمة، وتوليه شؤون الدولة، واجتماع إخوته به مع معرفته لهم وبإنكارهم إياه، وما أكثر ما دار بينه وبينهم من الأحاديث وما جرى من الأحداث... إلى أن انتهى ذٰلك بتعريفه لهم بنفسه وعفوه عنهم، وحضور أبويه على خير حال... إلى غير ذٰلك من التفاصيل التي يعرفها البصير بكتاب الله.

وقد سيقت القصة مفصلة في جميع نواحيها، مستوفاة في جميع فصولها في أدق عبارة وأحكم أسلوب؛ أفيعقل بعد ذٰلك أن يقال: إن صدقـه عليه الصلاة والسلام فيما سرده من قضاياها ووقائعها وعجائبها على هٰذا النهج الواضح والطريق السوي وليد الصدفة والاتفاق؟!

ختم سبحانه سورة يوسف بمثل ما بدأها به من الإرشاد إجمالاً إلى القصد الذي من أجله سيقت القصة، وهو أن تكون آية على نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما جاء به من التشريع، وأن قصة يوسف ونحوها مما نزل به الـوحي مستقى من المشكـاة التي أخـذ منها الأنبياء؛ فليس حديثاً مفترى، ولٰكنه تصديق لما بين يديه من كتب المرسلين، وتفصيل لما يحتاج إليه المكلفون من التشريع في معاشهم ومعادهم، وجماع الهداية والرحمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أفيمكن أن تكون هٰذه القيادة الرشيدة بهٰذا التشريع المستقيم من إنسان أمي عاش في أمة أمية من عند نفسه دون وحي من الله؟!

كلا، إنها العناية الربانية والرسالة الحقة والوحي الصادق المبين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون رحمة للعالمين ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولٰكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ [يوسف: ١١١].

وأما الثاني: فإن في تفاصيل القصة كثيراً من الأسرار والعجائب التي يعد الله بها رسله ويهيىء بها أنبياءه لقيادة الأمم وسياسة الشعوب؛ من أخلاق سامية، وآداب عالية، وحكمة بالغة، وقوة عزيمةٍ، وعقائد صحيحة، وبيان ذٰلك من وجوه كثيرة:

أ ــ منها صفاء روح يوسف ونقاء سريرته، وهٰذا واضح من الرؤيا الصادقة التي رآها في صغر سنه وأول نشأته؛ فتحقق تأويلها بسجود أبويه وإخوته له في كبر سنه وختام حياته، ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين...**﴾ [يوسف: ٤]، ﴿**ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّاً**﴾ [يوسف: ١٠٠].

ب ــ ومنها ما خصه الله به من الميزات التي زادت تعلق والده وحبه له، وحملت إخوته على التآمر عليه والكيد له؛ فأشار بعضهم بقتله ليخلو لهم وجه أبيهم وتطيب لهم الحياة مع أبيهم من بعده، ورأى آخرون أن في إبعاده عن أبيه الكفاية، فلما أجمعوا أمرهم على ذٰلك،

ورمـوه في غيابة الجب؛ أوحى الله إليه: لتنبئنهم بأمرهم هٰذا وهم لا يشعرون؛ إيناساً له، وإزاحة للغمة عن نفسه، وهيأ له من أخرجه من البئر، لٰكنهم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة؛ فرعاه الله وجعله عند من يكرم مثواه، ومكن له في الأرض، وعلمه من تأويل الأحاديث ﴿**والله غالب على أمره ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [يوسف: ٢١].

ج ـ ومنهـا الحلم والصفـح الجميل وسعة الصدر والصبر على البـلاء؛ فإنـه بعد أن مكن الله له وجعله على خزائن الأرض واجتمع بإخوته؛ لم ينتقم لنفسه، بل صفح عن الزلة، وعفا عنـد القدرة، واكتفى بالإشارة في إشعارهم بما سبق من سوء صنيعهم معه، ﴿**قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهٰذا أخي قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾ [يوسف: ٨٩ - ٩٢].

د ـ ومنها عفة فرجه ونزاهة نفسه، مع توفر دواعي الشـهوة وتهيؤ أسبـاب الجـريمـة؛ من تكـرار الخلوة بامـرأة العزيز، ومزيد الخلطة، ودعوتها إياه للفاحشة، وحياته معها في بيتها، وأخذها الحيطة بإغلاق الأبواب.

لقـد كان يوسف من المخلصين لله الواثقين به؛ فاستعاذ بربه، ولاذ بجنـابـه، واستقبـح أن يقـابل جميل من أحسن مثواه بخيانته في عرضـه، وذكـر ما يصيب الظالمين في العواقب من الدمار والخسارة، وبـذٰلـك صرف الله عنـه السـوء والفحشاء، وأظهر براءته على رؤوس

الأشهاد، **﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذٰلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾** [يوسف: ٢٣، ٢٤]، إلى أن قال تعالى حكاية عن عزيز مصر بعد الشهادة عنده ببراءة يوسف: **﴿يوسف أعرض عن هٰذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾** [يوسف: ٢٩]، إلى أن قال تعالى حكاية لحديث امرأة العزيز مع النسوة اللاتي عيرنها بشغفها وتعلقها بيوسف: **﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجننَّ وليكوننْ من الصاغرين﴾** [يوسف: ٣٢].

لقد عرف يوسف عليه الصلاة والسلام طريق الخلاص؛ ففزع إلى من بيده القلوب ومقاليد الأمور يصرفها كيف يشاء، وتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته حينما سمع إنذارها له بالسجن إن لم يكن عند رغبتها ويحقق لها ما تريد، وسأل ربه أن يعصمه من الزلل ويصرف عنه كيد أولئك النسوة، **﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾** [يوسف: ٣٣]، وما كان الله ليرد عبداً اتقاه وأخلص له الدعاء، وكان السجن أحب إليه من الفحشاء **﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾** [يوسف: ٣٤ - ٣٥].

هـ ــ ومنها أنه لم يشغله ما أصيب به من تتابع البلاء عن ربه ودينه والدعوة إلى ما ورثه من التوحيد عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام؛ فانتهز حاجة من معه في السجن إليه في تأويل ما رأياه

في منامهما؛ فبدأ بالحديث عن نفسه تعزيزاً لمركزه حتى يقبل عنه قوله، ثم نصح لهما في التوحيد وزينه، وحذرهما عن الشرك وقبحه، وأقام على ذٰلك الحجة مع لطف وتذكير بالصحبة في البلاء، كل ذٰلك قبل تأويل الرؤيا؛ ليكون أدعى إلى الإصغاء والقبول، وأبعد عن الإعراض، وقد أطال في ذٰلك وجعله المقصود، ثم ختم بتأويل الرؤيا لهما في آية قصيرة.

قال تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبِّئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذٰلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذٰلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولٰكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميْتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذٰلك الدين القيم ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٣٦ - ٤١].

فانظر إلى سلامة فطرته وصحة عقيدته وتناسيه البلاء، وذكره لأسلافه وأمجاده الطاهرين المصلحين؛ ليتخذ منهم قدوة له في التوحيد والدعوة إليه، والحذر من الشرك وبيان فساده بالحجة والبرهان، وانظر

إلى كرم خلقه مع صاحبيه حتى شهدا له بالمعرفة والفضل والإحسان، وإلى حسن سياسته معهم في الدعوة إلى الله وإيثارها على ما سألاه عنه، دون تضييع لما تعلقت به نفوسهما من تأويل الرؤيا، ولا مجابهة بالمكروه لمن دلت رؤياه على سوء عاقبتـه، بل أبهم الأمر؛ فقال: أما أحدكم فيسقي ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، وقد حقق الله ما قال؛ فصار كل منهما إلى ما ذكر له في تأويل رؤياه.

و ــ ومنها أن يوسف مع ثقته بربه وتوكله عليه أراد أن يأخذ بأسباب الخلاص مما أصابه من البلاء، وليس في ذلك ما يعيبه أو يغض من توكله على الله؛ فإنه قد زُجّ به في السجن ظلماً وعدواناً بشهادة خصومه ـ ودفع الظلم مشروع، بل قد يكون واجباً ـ؛ فقال للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك، ولكن الله أراد أن يزيده تمحيصاً وصدقاً في التوكل عليه وقوة في الصبر على البلاء، فأنسى الشيطان ذلك الفتى أن يذكر يوسف لربه بالخير، فلبث في السجن بضع سنين، ثم اختار الله له طريقاً إلى الخلاص خيراً من الطريق التي رسمها لنفسه كما سيأتي بيانه.

ز ــ ومنها أن الله سبحانه شاء أن تكون نجاته بما آتاه من العلم والحكمـة وعلمه من تأويل الأحاديث، لا بشفاعة أحد، ولحاجة الأمة راعيها ورعيتها إليه دون حاجته إليهم؛ ليكون ذلك أكرم لنفسه وأعز لها، ولئلا يكون لأحد عليه سوى الله منة؛ فهيأ له السبيل لذلك، ورأى ملك مصر رؤيا هاله أمرها، وعجز أشراف قومه عن تعبيرها، ﴿**وقال الملِك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٤].

ولما انتهى أمر الرؤيا إلى يوسف أولها أصدق تأويل، وبين أنها كشفت للأمة عن مستقبلها في رخائها وشدتها أربع عشرة سنة، ﴿**قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذٰلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذٰلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصِرون**﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩]؛ فأخذ ذٰلك التعبير من قلب الملك مأخذه، ولم يسعه إلا أن يرسل بإحضار يوسف إليه، فأبى حتى ينظر في قضيته مع النسوة؛ فإنه قد زجَّ به في السجن من أجلهن، ﴿**قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم**﴾ [يوسف: ٥٠]، ففعل الملك، وظهرت براءة يوسف، ﴿**قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذٰلك ليعلم أني لم أخُنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين**﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢].

ولما طلبه الملك بعد ذٰلك وحضر عنده، ﴿**قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ [يوسف: ٥٥]؛ ثقة منه بنفسه، وعلماً منه بأنه ليس في الأمة من يصلح لتدبير شؤون الدولة الاقتصادية وتصريف أمورها على وجه يحفظ كيانها سواه؛ فطلب ذٰلك لمصلحة الأمة لا لحظ نفسه، فاستجاب له الملك؛ لعلمه وصدقه وأمانته، وأتم الله ليوسف ما شاء من نعمته، ﴿**وكذٰلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين**﴾ [يوسف: ٥٦].

وبذلك يتبين أن الله محصَ يوسف ورعاه بتتابع البلاء والإنجاء، ابتلاه بكيد إخوته له ورميهم إياه في الجب ثم أنجاه، وابتلاه ببيع السيارة له ثم هيأ له من أحسن مثواه، ابتلاه بتسليط امرأة العزيز عليه وبالنسوة اللاتي قطعن أيديهن ثم عصمه وحماه، وابتلاه بالسجن ثم أخرجه منه بريئاً من التهمة عليماً بربه وبشؤون الأمة في وقت اشتدت فيه حاجة البلاد إلى حفيظ عليم يدبر أمرها ويقودها في حياتها خير قيادة؛ فتولى أمرها، واستسلم له أهلها.

وفي قصة يوسف سوى ما ذُكر شيء كثير يدل على أن الله سبحانه تعهد يوسف برعايته، وتولاه في أطوار حياته؛ ليختاره رسولاً يضطلع بأعباء الرسالة، وليجعل من سيرته الحميدة آيات بينات على صدقه فيما جاء به وأمانته في البلاغ عن رب العالمين.

كانت رسالة محمد ﷺ ـ بعد تتابع المعجزات على ثبوتها ـ واضحة ظاهرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولٰكن المشركين تعنتوا معه؛ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وأنفة واستكباراً أن يتبعوا رجلاً منهم؛ فطلبوا منه أن يأتيهم بآية؛ فهدى الله رسوله إلى أن فيما أوحي إليه من القرآن آيات بينات على نبوته وبعد ذٰلك نبأ موسى وفرعون، فقد أوضح له في قصصهما:

أولاً: وجه دلالته على رسالته.

وثانياً: سنته الحكمية في إعداد الأنبياء لتحمل أعباء الرسالة.

أما الأول؛ فقد ذكر سبحانه في أول سورة القصص بياناً عن نشأة موسى عليه الصلاة والسلام، وحاله قبل الرسالة، وأتبعه ببيان عن رسالته

إلى أن أنجاه ومن آمن به وأهلك أعداءه ليكون ذٰلك آية، بل آيات على نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما أنزل الله عليه من الوحي، ودعا إليه أمته من الهدى، يرشد إلى ذٰلك قوله تعالى في مطلع السورة: **﴿تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾** [القصص: ٢، ٣].

وقوله تعالى عند انتهاء ما أراد ذكره من القصة: **﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولٰكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولٰكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولٰكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾** [القصص: ٤٤ - ٤٦].

وذكر في آخر السورة أنه ﷺ لم يكن لديه من الأسباب ما يبعث على الأمل في الرسالة، ولا من الدواعي ما يحمله على أن يحدث نفسه بها ويستشرف إليها فضلاً عن أن يدعيها ويسعى في تحقيقها؛ فقد كان ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يخالط أهل الكتاب حتى يتعلم منهم قصص الأنبياء وتاريخ أممهم وما جرى بينهم من الأحداث، وليس في آبائه من ملك حتى تتعلق نفسه بذٰلك ويطلب ملك آبائه، وبيان ذٰلك كما يلي:

١ ــ قدم الله بين يدي هٰذه القصة جملة من الآيات بين فيها سنته العادلة وحكمته البالغة في القضاء على من علا في الأرض وأفسد فيها ومَنِّه على المستضعفين والتمكين لهم وإنالتهم من عدوهم؛ فضلاً منه

ورحمة، والله عليم حكيم، قال تعالى: **﴿ونمكن لهم في الأرض ونريَ فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** [القصص: ٦].

وأتبع قصة قارون وما أصابه من الهلاك بقوله: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** [القصص: ٨٣].

هٰذه هي سنته سبحانه في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ثم فصل ذٰلك فيما ذكره بعد من القصة.

٢ ـ ولد موسى عليه الصلاة والسلام بمصر، وكان ملكها ـ إذ ذاك ـ جباراً جائراً يقتل كل حديثي الولادة، فاضطرت أمه إلى إلقائه في اليمِّ خوفاً عليه من خطر القتل، فالتقطه آل فرعون، وحين ذاك مرّ موسى بطور آخر من أطوار الخطر، وقضى الله لنبيه أن ينتهي بهم التفكير في أمره إلى أن يتخذه فرعون ولداً، وأن ينشأ في بيت ملك يتربى فيه على العزة وشدة البأس وقوة العزيمة والأخذ بالحزم، ولا يصاب بما أصيب به قومه من العذاب والذل والهوان، وبذٰلك يصلح لحمل أعباء الرسالة ومواجهة فرعون في جبروته وطغيانه، ثم أولاه سبحانه نعمة أخرى؛ فكتب عليه ألا يرضع إلا من أمه، حتى اضطر فرعون ومن إليه أن يردوه إلى أمه وهم لا يشعرون، وبهٰذا التدبير الحكيم واللطف الخفي أنجز الله لأم موسى وعده؛ فرجع إليها ولدها لتكفله ويتمتع بحنانها وينعم بعطفها وتقر به عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق.

هٰذه حلقة أولى من حياة موسى، كلها عبر وعظات وآيات بينات على سنته تعالى في إعداد أنبيائه قبل الرسالة؛ فمنها:

أولاً: أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة **﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحَزَناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾** [القصص: ٧، ٨].

ثانياً: أن الله سبحانه كتب لموسى حياة سعيدة في بيت من يُخشى عليه منهم؛ فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك، **﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾** [القصص: ٩].

ثالثاً: أن الله حرَّم عليه تحريماً كونيّاً أن يرضع من امرأة سوى أمه؛ فكان ذٰلك فيما يرى الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر كمال اللطف من الله والرحمة بموسى ليرجعه إلى أمه، وهم لا يشعرون؛ فاجتمع له إلى السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك، **﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولٰكن أكثرهم لا يعلمون﴾** [القصص: ١٢، ١٣].

وهناك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به؛ من العلم، والحكمة، والمروءة، والنجدة، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، والعطف على الضعيف، وقوة الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه، والتواضع مع عزة النفس. . . وغير ذٰلك من مكارم الأخلاق التي يُعِدُّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم، وألخص ذٰلك فيما يأتي:

أولاً: حفظ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته؛ فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضى أيامه الأولى من حياته في بيئة استشرى فيها الفساد وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾ [القصص: ١٤].

ثانياً: جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم، يتجلَّى ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله على الرفق بالضعيف والعطف عليه ومَدِّ يدِ المعونة إليه، يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين؛ فوجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان؛ قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصْدر الرِّعاء، وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما؛ فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

ثالثاً: كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوي فيه الوعي الديني، واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه؛ فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذلك فزع إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نحبه من وكزته، وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه؛ فغفر الله له، فأخذ على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين؛ شكراً لله على نعمته، ووفاءً له بما غفر من

ذنبه، ﴿**قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين**﴾ [القصص: ١٦، ١٧].

رابعاً: فاض قلبه إيماناً بالله، وعظمت ثقته به وتوكله عليه؛ فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل، ﴿**ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾ [القصص: ٢٢].

ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه؛ توجه إلى ربه، وسأله من فضله، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يُعَرِّض لمن سقى لهما بطلب الأجر، ﴿**فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير**﴾ [القصص: ٢٤].

وقد استجاب الله دعاه، وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة؛ فقد عرض عليه شعيب لما عرف عنه من القوة والأمانة أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشراً كان ذٰلك مكرمة منه، فالتزم موسى بذٰلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه على ذٰلك ﴿**قال ذٰلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل**﴾ [القصص: ٢٨].

وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين؛ فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف.

وحلقة ثالثة من حياة موسى عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة يتجلى فيها ما حباه الله به؛ ليكون أصلاً له يعتمد عليه في إثبات رسالته،

وطـريقـاً يسلكـه في محـاجـة خصومه وإبلاغهـم ما جاء به من الهدى والرشاد، ويتبين ذٰلك في مواضع من القصة، منها:

أولاً: طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون؛ فإنه أفصح منه لساناً، وأقوى بياناً؛ فآتاه سؤله، وأرسله معه زيادة في المنة ومضاعفة للإحسان، وليكون عوناً له في الحجاج وتحمل أعباء الرسالة، وخافا أن يبطش بهما فرعون وجنوده وأن يقتلوا موسى بالقبطي الذي سبق أن قتله؛ فقال تعالى: ﴿**لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]، وجعل لهمـا سلطانـاً تقـوم به الحجـة، وتنخلع به قلوب الجبارين، وتمتلىء بالضعف والوهن؛ من حجاج عقلي في الربوبية بهر فرعون وقطع عليه طريق الجدال، ومِنْ يَدٍ إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها خرجت بيضاء للناظرين، ومن عصا إذا ألقاها صارت حيَّة تسعى حقّاً لا سحراً قد أبطل الله لها كيد الساحرين.

وبهٰذا وغيره مما أيده الله به ثبت في ميدان الدعوة إلى الله ثبات واثق بربه مؤمن بما يدعو إليه من الهدى والنور، وتجلى في حجاجه صولة الحق، وأحس من نفسه بالعزة والقوة.

وبـذٰلك أيضاً ذل جبروت فرعون، وتلاشى عنده تألهه وتعاليه، ﴿**قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسـولكم الـذي أُرسِـل إليكم لمجنـون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلٰهاً غيـري لأجعلنك من المسجونين . قال أَوَلَوْ جئتك بشيء مبين . قال**

فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ الآيات [الشعراء: ٢٣ ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني أظنك يا فرعون مثبوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٢].

ولم يعد فرعون يملك لموسى من الكيد إلا أن يرعد ويبرق ويموه ويخدع ﴿**وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يُظهِر في الأرض الفساد**﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يكن ليأخذ على يديه أحد من الحاضرين، ولا هناك من الأسباب العادية ما يمنعه أن يبطش بموسى؛ فإن الدولة دولته والجنود جنوده، لٰكنها عناية الله برسوله وما آتاه من آيات وسلطان قد بهر فرعون وقطع نياط قلبه، ولم يملك أيضاً ملأ فرعون وزبانيته سوى أن يثيروا حفيظته ويغروه بموسى ومن آمن به، ﴿**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتِّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون**﴾ [الأعراف: ١٢٧].

من هٰذا يتبين للعاقل أن موسى وهو وحيد غريب وقومه مستعبدون لم يقف هٰذا الموقف من فرعون وملئه والدولة دولتهم؛ إلا وهو مؤيد من ربه، صادق في دعوته إن هٰذا لهو الحق المبين.

ثانياً: جرت سنة الله العادلة أن يفتح بالحق بين رسله ومن كذب بهم من الأمم؛ فينصر رسله ومن سار سيرتهم ويجعلهم خلفاء في

الأرض، ويهلك من كذبهم وانحرف عن طريقتهم؛ ليكون ذٰلك من آيات الله التي يفصل بها بين الصادق والكاذب والحق والباطل والشريعة العادلة والقوانين الجائرة.

﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ [القصص: ٣٧].

وقال تعالى: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾** [غافر: ٥١].

وقال: **﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾** [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

وهٰذا هو الذي انتهى به أمر موسى ومن آمن به وفرعون ومن استهواه.

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ [القصص: ٤٠].

وقال: **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثَم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخَرين . إن في ذٰلك لآيةً. . .﴾** [الشعراء: ٦٣ - ٦٧].

فانظر كيف اتحدت وسيلة الإنجاء للأولياء والإهلاك للأعداء!

إنها آية الله الباهرة، وقدرته القاهرة، نجى موسى ومن آمن به بما جعله هلاكـاً لفرعون وجنده، هٰذا إلى جانب انفلاق البحر اثني عشر طريقاً وتماسك مائه وخروجه عن طبيعة السيلان بضربة عصا.

وفي قصص موسى سوى ذٰلك من الآيات ما يبهر العقول ويأخذ بمجامع القلوب، ولا يدع مجالاً للريب ولا قولاً لقائل؛ إلا من سفه نفسه وسعى في هلاكها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

٥ ـ «الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله» / الحلقة الأولى:

يختلف حال الداعية في استدلاله باختلاف حال من يسأله عن قضية أو يحاجه فيها؛ فقد يكون مقرّاً بأصول تلك القضية، معترفاً بما يوجب عليه التزامها والعمل بها؛ فلا يشغل المستدل نفسـه بإثبات تلك الأصول وإقامة الحجة عليها، فقد أغناه اعتراف سائله أو خصمه بها عن الاحتجاج عليها، بل يوجه عنايته إلى بيان اقتضاء هٰذه الأصول إثبات دعـواه فيمـا خالفه فيه خصمه ليحمله على موافقته فيها واعتقاده إياها والعمل بها، من ذٰلك استدلال الرسل عليهم الصلاة والسلام بما أقر به المشركون من توحيد الربوبية على إثبات ما أنكروه من توحيد الإلٰهية.

وقد أرشد الله جلّ شأنه إلى هٰذا في كثير من آيات القرآن، وهي أدلة عقلية نقلية في وقت واحد.

ومن ذٰلك أيضاً احتجاج المسلم على المسلم بقوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩]؛ على حفظ القرآن، وصيانة نصوصه وألفاظه من التحريف والتبديل، وبقائه بلفظه كما نزل؛ ليكون حجة على عباده إلى أن تقوم الساعة، وهٰذا دليل نقلي تقوم به

الحجة على من آمن ببقاء ما بين دفتي المصحف إلى وقت الخصومة، لٰكنه خالف في استمرار حفظه في المستقبل.

وقد يكون السائل شاكّاً في أصول ما سأل عنه، طالباً الدليل على تلك الأصول أو منكراً لها، حتى إذا ما ثبتت بالحجة ثبت تبعاً لها ما سأل عنه أو أنكره؛ فيضطر المستدل إلى إثبات هٰذه الأصول بالأدلة العقلية؛ كالذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، فإن إبراهيم عليه السلام استدل على إثبات الربوبية لله بأنه هو الذي يحيي ويميت؛ فسلك الكافر في جداله طريق التمويه وادعى لنفسه أنه يحيي ويميت، وقصد معنى سوى الذي قصد إليه إبراهيم عليه السلام في استدلاله، فأتاه إبراهيم عليه السلام بآية أخرى من آيات الربوبية على سبيل المثال لا يجد الكافر سبيلاً إلى التمويه والمغالطة فيها؛ فقال:

﴿**إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكفرعون؛ فإنه قال لقومه: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿**ما علمت لكم من إلٰهٍ غيري**﴾ [القصص: ٣٨].

وقال: ﴿**يا هامان ابْنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إلٰه موسى وإني لأظنه كاذباً**﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

وذكر الله في آيات من سورة الشعراء محاجة فرعون لموسى عليه السلام في ربه، وإنكاره عليه أن يتخذ ربّاً سواه، وإقامة موسى الحجة عليه؛ فقال تعالى: ﴿**قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات**

والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبـائكم الأولين . قال إن رسـولكم الـذي أُرسِـل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٩].

فهٰـذا استـدلال عقلي استـدل فيه بالأثر على المؤثر، وبالآيات الكونية على بارئها، ولا شك أن ذٰلك مما يدل عقلاً على اختصاصه تعالى بالربوبية، ويلزم من ذٰلك اختصاصه تعالى بالألوهية.

وكذٰلك منكرو النبـوة يستدل عليهم بالمعجزات وخوارق العادات لإثبات النبوة كما هي سنة الله في رسله عليهم الصلاة والسلام؛ فإنه يؤيدهم بالمعجزات التي تدل على صدقهم في دعوى الرسالة وتقوم بها الحجة على أممهم.

وليس بمجـدٍ في مثـل ذٰلـك الاستـدلال بالنقـول الخبـرية المحضة؛ كقوله تعالى: **﴿قل هو الله أحد﴾** [الإخلاص: ١] في إثبات التـوحيد، وقوله: **﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾** [سبأ: ٢٨] في إثبـات الـرسـالة، ولا يكفي في محاجة من ينكر بقاء القرآن محفوظاً منذ نزل إلى زمن المحاجة الاستدلال بقوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنـا الـذكـر وإنـا له لحـافـظون﴾** [الحجر: ٩]، بل الإثبات بذٰلك مستحيل؛ لما يترتب عليه من الدور السبقي أو التسلسل الممنوع.

والذي يتعين الاستدلال به في مثل ذٰلك الدليل العقلي المحض أو النقلي المتضمن للدليل العقلي؛ كالآيات التي استدل بها إبراهيم

عليه الصلاة والسلام على من حاجه في ربه، والآيات التي استدل بها موسى على فرعون، وكثير من الآيات القرآنية التي استُدل بها على البعث والنشور يوم القيامة، بل يستدل على إثبات بقاء القرآن محفوظاً إلى يومنا بنقله نقلاً متواتراً وبكونه معجزة خالدة إلى يوم القيامة، وإليك بيان ذٰلك:

١ ــ أما بيان كونه ضُبط من حين نزوله ونقل نقلاً متواتراً يفيد القطع واليقين: فإن رسول الله ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون له الوحي وغيره، وكان إذا نزلت عليه سورة أو آيات أو بعض آية؛ أملى ذٰلك على كاتب منهم، فكتبه على ما تيسر له من العسب والحجارة الرقيقة والعظام ونحوها، واستمر ذٰلك حتى أكمل الله دينه وأتم على الأمة الإسلامية نعمته، ومع ذٰلك كان النبي ﷺ يقرأ ما نزل عليه منه قراءة تثبتٍ وتفهم ودراسة في الصلاة وغيرها، وكان ينزل عليه جبريل عليهما الصلاة والسلام؛ فيدارسه القرآن في شهر رمضان، واستمر ذٰلك حتى توفاه الله، هٰذا مع عصمته في البلاغ والتشريع.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤون ما نزل من القرآن ويتدارسون فيما بينهم؛ فلا يكادون ينتهون مما تعهدوه بالتلاوة والدراسة من السور والآيات إلا وقد حفظوه وفهموه وعملوا به؛ فجمعوا بذٰلك بين الحفظ والعلم والعمل، يعرف ذٰلك من قرأ في دواوين السنة والسيرة وعلم ما فيهما من الأحاديث والآثار، وكان عنده إلمام بحياة النبي ﷺ وحياة أصحابه رضي الله عنهم، وعرف مدى عنايتهم بحفظ الدين عامة وحفظ القرآن خاصة.

وقد اشتهر بحفظ القرآن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم؛ منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي

ابن أبي طالب، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأبو زيد الأنصاري؛ رضي الله عنهم.

ولما كان يوم اليمامة وكثر القتل فيمن كان في جيش المسلمين من القراء؛ لزيادة حرصهم على القتال، وحثّ بعضهم بعضاً عليه بكلمة «يا أهل القرآن»؛ إثارة لشعورهم وغيرتهم على الإسلام حتى يتسابقوا إلى القتال نصرة لدين الله، لما كان ذٰلك؛ اتفق الصحابة رضي الله عنهم على جمع القرآن مما كتب فيه ومن صدور الحفاظ الثقات؛ فتم ذٰلك على أكمل وجه وأحكمه، وكانت الصحف التي جمع فيها عند أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى أن توفي، ثم عند عمر أيام خلافته إلى أن توفي رضي الله عنهما، ثم كانت عند بنته حفصة.

وقد علم أن القرآن نزل على سبعة أحرف (أي: لغات)، وكان كل جماعة من الصحابة يقرؤون بحرف منها، فلما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة أشير عليه أن يجمع القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة؛ فأمر رضي الله عنه بذٰلك، وتمت كتابة القرآن على حرف واحد بأيدي القراء الثقات، وقوبل بالصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها وثبت اتفاقهما، ونسخ منه مصاحف أرسلها إلى عواصم الإمارات الإسلامية بعد أن قرأه على الصحابة بين يديه، فأقرّوها رضي الله عنهم، واحتفظ بالأصل عنده بالمدينة المنورة، وصار المعتبر عند الصحابة رضي الله عنهم هٰذه المصاحف، وثبت ثبوتاً يوجب اليقين ويفيد القطع بأن ما جُمع هو ما نزل على رسول الله ﷺ، واستمر العمل عليها إلى

يومنا هٰذا، تنقلها كل طبقة من الأمة عمن قبلها كتابة وحفظاً.

وقد بلغ عدد من كتبه وحفظه في كل طبقة حدّاً فوق التواتر الذي لا يبقى معه موضع لريبة، ولا يدع مجالاً لشك في أن ما وصلنا هو ما جمعه أبو بكر الصديق أولاً، ثم عثمان ثانياً رضي الله عنهما.

وهٰذا في إفادة اليقين كالأخبار الكثيرة عن المدن المشهورة في إفادة اليقين بوجودها، ولو لم يكن إجماع الصحابة رضي الله عنهم على أن ما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر وفي المصحف في خلافة عثمان رضي الله عنهما هو القرآن المنزل على النبي ﷺ مفيداً لليقين؛ لما كان هناك ما يفيد اليقين سوى المحسات، ولو لم تكن الأخبار عن حفظ القرآن في صدور قراء المسلمين وعن كتابتهم إياه مع الإحكام والدقة في الضبط فهماً في جميع الطبقات مفيدة لليقين؛ لما كان هناك أخبار تفيد اليقين، ولو أن إنساناً في عصرنا الحاضر الذي خفَّت فيه عناية المسلمين بالدين أراد أن يجمع القرآن من أفواه القراء وحفاظ القرآن دون الرجوع إلى ما كتب مخطوطاً أو مطبوعاً أو مسجلاً في أشرطة؛ لوسعه ذٰلك بيسر وسهولة؛ فكيف بذٰلك في العصور الإسلامية الزاهرة التي بلغت فيها العناية بالدين؛ أصوله وفروعه؛ شأواً بعيداً وغاية قصوى في النهوض به في شتى جوانبه وجميع نواحيه؟!

إن الواقع لأعظم بينة وأقوى شهيد على بقاء القرآن محفوظة نصوصه من يوم نزل إلى وقتنا.

٢ ــ وأما إثبات بقائه محفوظاً بكونه معجزة خالدة إلى يوم القيامة؛ فإن ما كان به معجزة ودليلاً على نبوة رسول الله ﷺ زمن نزوله عليه لا

يزال قائماً؛ فهو لا يزال يتحدى العالم أن يأتوا بمثله في فصاحته وبلاغته وقوة أسلوبه، وفي أحكام تشريعه، وصلاحيته للنهوض بالأمم مع تفاوت طبقاتها واختلاف أحوالها في كل زمان ومكان، وفي قصصه الصادق عن الأمم السابقة وأخباره عن سائر الغيبيات السابقة واللاحقة، ولم يأت أحد بمثله حتى وقتنا الحاضر مع بُعد العهد بنزوله ومضي أكثر من ثلاثة عشر قرناً على ذٰلك، ومع كثرة خصوم الإسلام والمسلمين وشدة مكرهم وكيدهم لهم ودأبهم في العمل للقضاء على هٰذا الدين، ومع تقدم الناس في العلوم الكونية والثقافات المتنوعة، ويأبى الله إلا أن يحفظ دينه ويعلي كلمته ويكتب للقرآن والسنة الصحيحة البقاء؛ لتقوم بذٰلك الحجة على الناس.

٥ ـ «الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله» / الحلقة الثانية:

عُني إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الإسلام، ووجه جل همِّه وأعظم عنايته إلى إيضاح التوحيد وبيانه وإقامة الحجة عليه؛ فبدأ به، وكرر الدعوة مع اختلاف لهجته في ذٰلك ليناً وشدة، وذكر أنواعاً من الأدلة على التوحيد، وسلك طرقاً شتى في الاستدلال بها عليه؛ إتماماً لإقامة الحجة، وزيادة في الإعذار إلى الأمة، وأملاً في أن يجد كلُّ نوع منها أو وجه من وجوه الاستدلال بها منفذاً إلى قلوب جماعة؛ فإن الناس مختلفون في مداركهم ومتفاوتون في طبائعهم وأفهامهم قوة وضعفاً، ليناً وصلابةً، وإنصافاً للحق وعناداً وصدوداً عنه؛ فما يجدي من الأدلة وطرق الاستدلال بها مع طائفة قد لا يؤثر على طائفة أخرى، وفيما يلي بيان ذٰلك:

أنكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام على أبيه آزر أن يتخذ أصناماً آلهة، ولم يقرن ذٰلك فيما ذكر الله عنه في سورة الأنعام بما يخفف من وطأة الإنكار على نحو ما ذكر الله سبحانه عنه في سورة مريم، حيث مهد فيها قبل الإنكار بندائه بقلب الأبوة، ولما أشرك قومه مع أبيه في الحكم؛ كان أشد لهجة وإنكاراً، قال تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾ [الأنعام: ٧٤]؛ فحكم عليهم بالجهل المبين، وعمى البصائر، ذٰلك ليثير عواطفهم ويدفع بهم إلى التفكير فيمن يستحق أن يعبدوه مخلصين له الدين ولا يشركوا به شيئاً؛ أهو من بيده كل شيء وهو ولي نعمتهم، أم الهياكل الأرضية والسماوية، وهي لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً ولا تغني عنهم من الله شيئاً؟ ثم عسى أن تجد هٰذه الإثارة من أبيه وقومه قلوباً واعية تحفظ عنه ما يقول، وعقولاً رشيدة تفقه ما سمعت من البلاغ، وإحساساً مرهفاً؛ فتتأثر بذٰلك وتستجيب إلى دعوة الحق.

﴿**إن في ذٰلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ [ق: ٣٧].

بصّر الله عز وجل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالدلائل الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته، فأراه آياته في ملكوت السماوات والأرض؛ ليعلم حقيقة التوحيد، أو ليزداد علماً به ويقيناً إلى يقينه، وأرشده إلى وجه الاستدلال بها، وكيف يسلك طريقها في البلاغ أو البيان ومناظرة الخصوم؛ ليفصل بذٰلك بين الحق والباطل، ويلزمهم الحجة والبرهان، قال الله تعالى: ﴿**وكذٰلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل**

رأى كوكباً قال هٰذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هٰذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هٰذا ربي هٰذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩].

كان قوم إبراهيم الخليل صابئة يعبدون الكواكب السيارة، يقيمون لها الهياكل في الأرض من الأحجار ونحوها، وكانوا يعظمونها ويتقربون إليها بالذبائح وغيرها، وكانوا يستغيثون بها ويضرعون إليها، فناظرهم عليه السلام في ذٰلك، ولم يشأ أن يسلك في هٰذه المناظرة طريق الاستدلال الإيجابي المباشر على أن الله لا ربَّ غيره ولا إلٰه سواه، بل جعل دعوى قومه وعقيدتهم الشركية موضوع بحثه ونقاشه معهم، وفرضها فرض المستدل لما لا يعتقده، ثم يكر عليه بالنقض والإبطال ويكشف عن وجه الحق.

فحينما أظلم الليل ورأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام النجم قال: هٰذا ربي؛ فرضاً وتقديراً، أو: أهٰذا ربي؟ فلما غاب عن أعين الناس؛ علم أنه مسخر ليس أمره إليه، بل إلى مدبر حكيم يصرِّفه كيف يشاء، أما الرب؛ فأمره إلى نفسه، بل أمر غيره إليه، وهو دائم لا يحول ولا يزول، بيده مقاليد الأمور، وهو على كل شيء قدير.

ثم انتقل بهم في البحث إلى كوكب آخر، هو في نظرهم ضوء وفي مرأى أعينهم أكبر حجماً، وهو القمر، فلما رآه طالعاً؛ قال: هٰذا ربي؛ فرضاً منه لذٰلك وتقديراً، أو: أهٰذا ربي؟ فلما ذهب عن أعين الناظرين؛

تبين أنه ليس بالرب الذي يجب أن تألهه القلوب، ويضرع إليه العباد في السراء والضراء، يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويستهدونه؛ فيهديهم إلى سواء السبيل، ولذا قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.

ثم انتقل بهم إلى معبود آخر لهم أكبر جرماً من النجم ومن القمر، وأعظم ضياءً منهما، وهو الشمس، فلما رأى الشمس بازغة؛ قال: هٰذا ربي، فلما أفلت؛ قال: يا قوم! إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين؛ فاستدل بما يعرض لها من غيرها على أنها مأمورة بأمر ربها، وأنها مدبرة مسخرة بتسخير خالقها.

فإذا كانت هٰذه الكواكب الثلاثة أرفع من الكواكب السيارة شأناً وأعلى قدراً وأعم نفعاً عندهم، وقد قضت لوازمُها بانتفاء سمات الربوبية والألوهية عنها، وأحالت أن تستوجب لنفسها حقّاً ما لها في العبادة والتقرب إليها؛ فما عداها من سائر الكواكب أبعد من أن يكون له حظ ما في الربوبية أو الإلهية، وأحرى بنفي ذٰلك عنه واستحالته عليه، ولذا أعلن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ختام المناظرة براءته مما يزعمون من الشركاء، وأسلم وجهه لله وحده الذي فطر السماوات والأرض وأبدع خلقهما دون شريك أو ظهير يعينه في ذٰلك، وضمن إعلان النتيجة الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وهٰذا هو معنى لا إلٰه إلا الله، فإن ما فيه من البراءة من الشركاء نظير نفي الإلهية الحقة عن الشركاء في كلمة التوحيد، وما فيه من إسلام وجهه لله نظير الاستثناء في كلمة التوحيد لدلالته على إثبات الإلهية الحقة لله.

ومثله قولـه تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين**﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وهٰذا الضرب من الاستدلال قد سلك سبيله في المناظرة كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وقد جاء في الكتاب والسنة كثيراً؛ لٰكن على منهج العـرب في حديثهم وطريقتهم في المناظرة والحجاج، فإن رسالة نبينا محمد ﷺ قد بدأت في العرب، وبلغتهم نزل القرآن على طريق الصناعة المنـطقية، حيث يقولون في مثل هٰذا الموضع إجمالاً: لو كانت هٰذه الكواكب أرباباً أو آلهة ما حالت ولا زالت، لٰكنها تحول وتزول؛ فليست أرباباً؛ فإن الله حي،دائم لا يحول ولا يزول.

فللداعية إلى الإسلام أن يسلك هٰذه الطريقة ـ طريقة إبراهيم عليه السـلام ـ حسبمـا تقتضيه الحال؛ فيتنزل مع مناظره من دعاة الباطل، ويفرض دعواه واقعة، ويرتب عليها لوازمها الباطلة وآثارها الفاسدة، ثم يكر عليها بالنقض والإبطال، وقد توجب عليه الأحوال والظروف سلوكها والدعوة بها أحياناً؛ فإن الدعوة إلى الحق كما تكون بتزيينه وذكر محاسنه للتـرغيب فيه واستمـالة النفوس إليه تكون بتشويه الباطل وذكر مساوئه ومخازيه؛ تنفيراً منه ليهرب المبطلون عنه، وتتفتح قلوبهم للحق فيلتزموه.

هٰذا، وقد ذهب جماعة من المفسرين وغيرهم إلى ما تقدم من أن حديث إبـراهيم في شأن الكـواكب مع قومـه كان على سبيل المناظرة والحـوار مع المشـركين؛ ليقيم عليهم الحجـة، لا ليكسب هدى بعد حيرة، ولا ليستفيد علماً بعد شك، واختار ذٰلك ابن كثير في «تفسيره»؛ قال:

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هٰذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل (وهي الكواكب السبعة المتحيزة). . .

ثم قال: وكيف يكون إبراهيم ناظراً في هٰذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾** [الأنبياء: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنةً وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أنِ اتَّبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

وقال: **﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** [الأنعام: ١٦١].

ثم استدل بنصوص خلق الناس على الفطرة السليمة؛ كقوله تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** [الروم: ٣٠].

وحديث: «كل مولود يولد على الفطرة. . .»[١].

والحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ٢١٩، برقم ١٣٥٨)، ومسلم (٤ / ٢٠٤٧، برقم ٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤ / ٢١٩٧، برقم ٢٨٦٥).

ثم قال: فإذا كان هٰذا في حق سائر الخليقة؛ فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين ناظراً في هٰذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب.

ومما يؤكد أنه كان في هٰذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً؛ لقوله تعالى: **﴿وحاجه قومه قال أتحاجُّونِّي في الله وقد هدانِ. . .﴾** [الأنعام: ٨٠] مع تصرف.

ويؤيده أيضاً ما ذكر في مطلع هٰذه الآيات من دعوة إبراهيم لأبيه وقومه إلى التوحيد، وإنكاره ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام التي جعلت تماثيل وهياكل رمزية للكواكب، قال تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** [الأنعام: ٧٤].

فبدأ الآيات بالتوحيد والبراءة من الشرك وختمها بذٰلك؛ فدل على أنه كان مؤمناً بذٰلك، موقناً به أولاً وآخراً على السواء.

ويؤيده أيضاً قوله تعالى في ختام المحاجة: **﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾** [الأنعام: ٨٣].

وروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أن مقام إبراهيم في هٰذه الآيات مقام نظر لا مقام مناظرة، واختاره واستدل عليه بقوله: **﴿لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين﴾** [الأنعام: ٧٧].

وذكـر محمد بن إسحاق ما يفيد أن ذٰلك حين خرج إبراهيم من السرب الذي ولدته فيه أمه لما خافت عليه من نمرود بن كنعان. اهـ. باختصار.

وبيان ذٰلـك أن إبراهيم كان قبل الرسالة في حيرة في تعيين من يعبـده، وإن كان يعتقـد بفطرته السليمة أن للعباد ربّاً له قدره وعظمته وجـلالـه وحكمتـه في تدبيره وتصريفه لشؤون خلقه؛ فنظر في السنن الكونية نظرة اعتبار واستدلال لنفسه، نظر في النجم ثم الشمس ليخرج نفسه من القلق والحيرة إلى العلم والهدى والرشاد، فلم يجد فيها سمات الربوبية، ولا الصفات التي تستحق بها أن تؤلّه وتعبد، وانتهى به نظره واستـدلالـه لنفسه إلى ما أعلنه أخيراً من البراءة من الشرك والشركاء، والتـوجـه لله رب العـالمين وحده، ثم كان مقام دعوته لأبيه وقومه إلى التوحيد ومناظرته لهم فيما كانوا عليه من الشرك بعد الرسالة.

وعلى هٰذا يستطيع الداعية إلى الإسلام أن يجد لنفسه أيضاً قدوة حسنة وأسوة رشيدة في سيرة إبراهيم عليه السلام وفي خبر الله عن منهجه في هٰذه الآيات؛ فيبدأ بالنظر في الآيات الكونية والدلائل الشرعية ليعلم الحق في نفسه أولاً، ثم يتبع ذٰلك الدعوة إليه ليكون في دعوته على بينة وبصيرة؛ فعلى كلا المعنيين لهٰـذه الآيات يجد الداعية إلى الحق في خليل الرحمٰن مثالاً حسناً يحتذيه، وميزاناً عادلاً يزن به عقيدته وعمله ودعوته ويقتفي أثره فيه.

إن دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه وقومه إلى التوحيد مع سلامتها وقوة استدلاله عليها، وحسن سياسته وحكمته واستقامة منهجه فيها؛ لم تجد لديهم قبولاً؛ لأن قلوبهم في غلاف من العناد والصدود

واللجاج؛ فلم تتفتح لدعوة الحق، ولم تشأ أن تتقبلها، ولأن عواطفهم متبلدة بل ممسوخة، قد انحرف بها الهوى وتقليد الآباء وتحكم العادات السيئة عن الجادة وحد الاعتدال؛ فلم تتأثر بالحق، ولم تجد لنفسها فيه لذة ولا راحة، بل ذهبوا يجادلونه في الحق بعد ما تبين، ويهددونه ويخوفونه أن تصيبه آلهتهم بسوء فلا يحمد العاقبة؛ فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن ثبت على الحق، واطمأنت به نفسه، وازداد إيماناً به؛ فأنكر عليهم جدالهم إياه بالباطل وتخويفه من خطر آلهتهم، مع أنها لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً ولا تدفع عنها بأساً، وهو يركن إلى الركن الركين ويتوكل على رب العالمين، قد أخلص له قلبه، وأسلم له وجهه، وقام بما أمره به من الدعوة لله الحنيفية السمحة؛ فهو أحق بالأمن والسلام ممن هددوه وخوفوه، لٰكن على تقدير أن يصيبه مكروه؛ فهو من الله سبحانه ابتلاءً وامتحاناً اقتضته حكمته وعدله، قال تعالى: ﴿**وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولٰئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢].

فعليكم معشر الدعاة أن تثبتوا على الحق في ميدان الدعوة، وأن تصبروا على الأذى، وألا تنخلع قلوبكم لكيد الكائدين وتهديد المعتدين، وتوكلوا على الله أسوة بخليل الرحمٰن إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ فالله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

لما فات إبراهيم عليه السلام أن يؤمن به قومه، فتستقر حياته بين

أظهرهم ويشتد عضده بهم، وتولوه بالأذى، وبلغ بهم الكيد له أن ألقوه في النـار، ففـر إلى ربـه وهاجر طالباً لدعوته قوماً آخرين، لما أصيب بذلك؛ لم يكله الله إلى نفسه، ولم يحرمه جزاء عمله؛ فوهب له من تقر بهم عينه؛ وهب له إسحاق ويعقوب، وجعلهما من أنبيائه وهداهما إلى الصراط المستقيم، وتتابعت النبوة والرسالة من بعده في ذريته إلى أن ختمت بنبوة الرسول الكريم محمد ﷺ.

فيا معشـر الـدعاة إلى الحق! كونوا واثقين بالله، مطمئنين إلى صادق وعده، مؤملين النصر والخير وحسن العواقب، ولكن لا بدَّ لكم من الابتلاء بالسراء والضراء؛ فاشكروا ربكم على ما أولاكم من الخير، واصبـروا على الشدة واللأواء، وليكن لكم في خليل الرحمٰن وإخوانه الأنبياء خير إسوة، فقد ابتلوا؛ فصبروا وشكروا، فجزاهم الله خير الجزاء.

قال الله تعالى: **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للنـاس إمـامـاً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾** [البقرة: ١٢٤].

وقال: **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾** [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وأصحابه وسلم.

٥ - «الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله» / الحلقة الثالثة:

لم يرسل الله تعالى رسولاً إلا أمره بالتوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد عني الرسل عليهم الصلاة والسلام بذلك؛ فبدؤوا البلاغ بدعوة أممهم إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وقطعوا فيه شوطاً بعيداً حتى شغلوا به الكثير من أوقات البلاغ، ولا عجب في ذلك؛ فإن التوحيد أصل الدين، وذروة سنامه، وملاك الإسلام ودعامته الأولى، لا تصح من إنسان قربة ولا يتقبل الله منه عبادة إلا إذا كانت مقرونة بالتوحيد وإخلاص القلب لله وحده.

قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**﴾ [البينة: ٥].

وقد أرشد الله الناس إلى أيسر الطرق في الدعوة إلى التوحيد وأسهلها وأقربها إلى معرفة الحق وأعدلها، وهو الاستدلال بآيات الله

وسننه الكونية، وتفرده سبحانه بتصريفها وتدبيرها على تفرده بالإلهية، واستحقاقه أن يُعبد وحده لا شريك له؛ فذٰلك أهدى سبيلاً وأقوم دليلاً وأقوى في إقناع الخصم وإلزامه الحجة؛ فإنه مقتضى العقل الصريح وموجب الفطرة السليمة.

قال الله تعالى: **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ فرتب سبحانه نهيه إياهم عن اتخاذهم شركاء له في العبادة على علمهم وإقرارهم بأنه تعالى وحده هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وهو الذي جعل الأرض قراراً وذللها لهم ليمشوا في جوانبها وليبتغوا من فضله، ورفع السماء بلا عمد، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم؛ لينعموا بما آتاهم من النعم، وليتمتعوا بما أفاض عليهم من الخيرات، لعلهم يتقون ربهم ووليَّ نعمتهم؛ فيعبدوه وحده لا شريك له مخلصين له الدين؛ شكراً له على ما أسبغ عليهم من نعمه وأفاض عليهم من بركاته.

وفي القرآن كثير من النظائر لهاتين الآيتين في بيان أسلوب الدعوة ورسم الطريق الناجحة في إقامة الحجة وإلزام الخصم، لقد سلك الأنبياء المرسلون هٰذه الطريقة في دعوتهم أممهم إلى الهدى ودين الحق؛ اهتداءً بهدى الله، واسترشاداً بإرشاده وهو العليم الحكيم، ومن أبرزهم في ذٰلك أولو العزم من الرسل، ومنهم إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام.

أرسل الله جل شأنه خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قوم

من الفـرس عتـاة جبارين يعبدون التماثيل؛ فأنكر عليهم عكوفهم لها وتقربهم إليها، قال تعالى: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيـه وقومه ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾** [الأنبياء: ٥١، ٥٢].

ولما لم يكن لديهم حجة يعتمدون عليها في عبادتهم الأصنام؛ تعللوا لباطلهم بما وجدوا عليه آباءهم من التقرب إلى التماثيل وعبادتهم إياهـا؛ فألغوا عقولهم، وقلدوا آباءهم على غير هدى وبصيرة، **﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾** [الأنبياء: ٥٣]؛ فسفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أحلامهم، وحكم عليهم وعلى آبائهم بالحيرة والضلال المبين، **﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾** [الأنبياء: ٥٤]، وبين لهم أن التماثيل لا تسمع النداء، ولا تستجيب الدعاء، ولا تملك نفعاً، ولا توقـع ضراً؛ فلا يليق بعـاقـل أن يتخـذها آلهة مع من فطر السماوات والأرض، وإليه مقاليد الأمور، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، قال: **﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذٰلك يفعلون﴾** [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٤].

فلما ركبوا رؤوسهم، وأبو إلا اللجاج والعناد والعصبية الممقوتة في تقليد الآباء والأجداد؛ أعلن براءته منهم وشدة عداوته لهم ولما يعبدون من دون الله، **﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾** [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

وجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه لا بد له من سلوك طريق آخر عملي في إقامة الحجة؛ ليكون أقوى في الإبانة عن الحق، وأملك في إلزام الخصم، يضطرهم به إلى الاعتراف بما هم فيه من ضلال وظلم وانحراف؛ فأقسم بالله أن يكيد لأصنامهم وهم عنها غائبون، وانتهز فرصة خروجهم من البلد لبعض شأنهم، وذهب إلى آلهتهم خفية لئلا يراه أحد فيصده عن تنفيذ ما أراد؛ فجعلهم قطعاً صغاراً إلا كبيراً لهم تركه سالماً ليكون له ولهم معه شأن عند التحقيق فيما جرى على أصنامهم، فلما عادوا إلى منازلهم وشاهدوا ما أصيبت به آلهتهم؛ **﴿قالوا من فعل هٰذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾** [الأنبياء: **٥٩ - ٦١**].

فلما حضر مجلسهم أخذوا يقررونه بما صنع بآلهتهم، قالوا: من فعل هٰذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ فأجابهم بنسبة ما حدث إلى من لا يتأتى منه، نسبه إلى كبير التماثيل وهو ـ كما يعلم ويعلمون ـ جماد لا حراك به، ذٰلك ليرشدهم إلى مكان الخطأ في عكوفهم على التماثيل؛ عبادة لها وتقرباً إليها، ويصرفهم عنها إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويوحي إليهم بأنه هو الذي كاد لأصنامهم وأنزل بهم ما يكرهون، وقد أكد ذٰلك بأمره إياهم أن يسألوا التماثيل عمن أصابهم بالتكسير والتحطيم إن كانوا يملكون جواباً، **﴿قال بل فعله كبيرهم هٰذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾** [الأنبياء: **٦٣**].

وقد نجحت هٰذه الطريقة إلى حد ما، وأوجدت فيهم وعياً؛ فثابوا إلى رشدهم وما كان في أصل فطرهم، واعترفوا بأنهم هم الذين ظلموا

أنفسهم بعبادتهم تماثيل لا تملك لنفسها نفعاً ولا تدفع عنها بأساً، وظلموا إبراهيم عليه السلام بصدهم عن دعوته وإعراضهم عما جاءهم به من الآيات البينات على التوحيد وإخلاص العبادة لله رب العالمين، لٰكنهم لم يلبثوا أن ركبوا رؤوسهم ونكصوا على أعقابهم وارتكسوا في حمأة الضلال والحيرة؛ عصبية لما ورثوه عن آبائهم من الشرك والبهتان المبين، قال تعالى: **﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هٰؤلاء ينطقون﴾** [الأنبياء: ٦٤ - ٦٥].

لقد ازداد طريق الحق وضوحاً وبياناً، واستحكمت حلقات الحجة لإبراهيم على أبيه وقومه، وحق له أن يضيق ذرعاً من صدودهم، وأن يتأفف ضجراً من طغيانهم وشركهم، وأن ينكر عليهم ذٰلك إنكاراً صارخاً، ويرميهم بالخبال وإلغاء العقول، **﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾** [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

لقد أخذت الحمية الجاهلية للباطل من نفوس قوم إبراهيم عليه السلام مأخذها، وتمكنت منهم العصبية لطاغوت التقليد للآباء والأجداد فيما أصيبوا به من الشرك والانحراف عن الحق؛ حتى ملكت مشاعرهم، ووجهت عقولهم وأفكارهم إلى شر وجهة، وصرفتهم عن الحق المبين والصراط المستقيم، وزينت لهم أن يتخلصوا من إبراهيم عليه السلام وينزلوا به أشد العقاب؛ انتصاراً لآلهتهم الباطلة، وانتقاماً منه جزاءً له عما صنع لها من تحطيم وتكسير، ويعلم الله أنه ما أراد بذٰلك إلا الخير لهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، **﴿قالوا حرقوه وانصروا**

آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ [الأنبياء: ٦٨]؛ لكن يأبى الله إلا أن ينصر رسوله خليله إبراهيم عليه السلام، وأن يخذل أعداءه وأعداء دينه، ويبطل ما كادوا به لأوليائه فيبوؤا بالخسران المبين؛ إمضاءً لسنته العادلة الحكيمة في أوليائه وأعدائه.

قال تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلًّا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٣].

وقال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: ﴿سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

٦ - «من أسباب الانحراف والصدود عن الحق»:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فللصدود عن الحق أسباب عديدة وموانع كثيرة؛ منها: الغرور

الفكـري والتقليد عن غير بينـة وبصيرة، وتحكم العـادات السيئـة في النفـوس، والأنفـة والاستكبـار، والحسد الممقوت، وطاغوت الافتتان بالمركز والجاه وكثرة المال، وما إلى ذٰلك، وكلها أمراض أخلاقية وبيلة، وأدواء مستعصية فتاكة، والحديث عنها يطول؛ فليكن حديثي في هٰذه الحلقة عن الغرور الفكري.

الغرور الفكري هو إعجاب الإنسان بعقله، وافتتانه برأيه، وإنزاله فوق منزلته، وإعطاؤه من القداسة ما ليس بأهل له حتى يتدخل فيما لا يعنيه، وما ليس في وسعه وحدود طاقته؛ فيعارض العبد ربه في خلقه وتشريعه، فضلاً عن معارضته لنظرائه ومن هو أوسع منه فكراً وأكثر تجربة من العلماء.

لقـد وجـد الشيطان منفـذاً لوسـوستـه في اغتـرار قوم بعقـولهم وعلومهم؛ فاستهواهم، وزين لهم أن يخوضوا فيما ليس من شأنهم، وأن يهجموا على بحث ما ليس في وسعهم بحثه، من ذٰلك تفاصيل القضاء والقدر وكنه الله وصفاته وكيفيات ذٰلك؛ فاضطربت أفكارهم، وتفرقت بهم السبل عن الجادة والصراط المستقيم؛ فمنهم من غلا في نفي ذٰلك زعماً منه أنه سلك مسلك العدل والتنزيه لله عن الظلم والجور، وعارضوا نصوص الإثبات للقضاء والقدر، ومنهم من غلا في الإثبات حتى سلب المكلفين اختيارهم وأعمالهم زعماً منهم أن نصوص عموم مشيئة الله واقتداره تنافي ثبوت الاختيار والكسب للمكلفين؛ فعارضوا بذٰلك الحس وأدلة الشرع والعقل، ولم يكن من اقتحم باب البحث في كنه الله وكيفية صفـاتـه فغلوا في ذٰلـك نفياً أو إثباتاً بأهدى سبيلاً من هٰؤلاء، بل وقع الجميع في حيرة ومتاهات لا نجاة لهم منها إلا بمعرفتهم قدر أنفسهم،

والحدود التي يجب أن تنتهي إليها أفكارهم ويعلموا أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، ويلزموا ما جاء في شريعة الله؛ فما تبين من ذلك وجب اعتقاده، وما لم يتبين من التفاصيل والكيفيات وجب التسليم له والقول بما قال الراسخون في العلم: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ [آل عمران: ٧].

وحرم الخوض فيه؛ لقوله: **﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾** [الإسراء: ٣٦].

واستهوى الشيطان من هؤلاء المغرورين طائفة أخرى؛ فزين لها أن تسن قوانين من عند أنفسها للتحاكم إليها وتفصل بها في خصوماتها، وسول لها أن تضع قواعد بمحض تفكيرها وهواها تنظم بها اقتصادها وسائر معاملاتها؛ محادة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانتقاصاً لتشريعهما، وزعماً منها أن تشريع الله لا يصلح للتطبيق والعمل به في عهدهم، ولا يكفل لهم مصالحهم، ولا يعالج ما جد من مشاكلهم؛ حيث اختلفت الظروف والأحوال عما كانت عليه أيام نزول الوحي، واتسع نطاق المعاملات، وكثرت المشكلات؛ فلا بد لتنظيم المعاملات والفصل في الخصومات من قواعد وقوانين جديدة، يضعها المفكرون من أهل العصر، الواقفون على أحوال أهله، المطلعون على المشاكل، العارفون بأسبابها وطرق حلها؛ لترتكز على واقع الحياة، وتتناسب مع أحوال الناس وظروفهم الحاضرة ومع مستوى ثقافتهم وحضارتهم الراهنة.

فهؤلاء لم يقدروا عقولهم قدرها، ولم ينزلوها منزلتها، ولم يقدروا الله حق قدره، ولم يعرفوا حقيقة شرعه ولا طريق تطبيق منهجه وأحكامه،

ولم يعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علماً؛ فعلم ما كان وما سيكون من اختلاف الأحوال وكثرة المشاكل، وأنه أنزل شريعة عامة شاملة وقواعد كلية محكمة، وقدرها بكامل علمه وبالغ حكمته فأحسن تقديرها؛ فقد جعلها صالحة لكل زمان ومكان، فمهما اختلفت الطبائع والحضارات وتباينت الظروف والأحوال؛ فهي صالحة لتنظيم معاملات العباد، وتبادل المنافع بينهم، والفصل في خصوماتهم، وحل مشاكلهم، وصلاح جميع شؤونهم في عباداتهم ومعاملاتهم.

إن العقول التي منحها الله عباده ليعرفوه بها، وليهتدوا بفهمها لتشريعه إلى ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل؛ قد اتخذوا منها خصماً لدوداً لله؛ فأنكر حكمته وحسن تدبيره وتقديره، وضاق صدره ذرعاً بتشريعه، وأساء الظن به؛ فانتقصه ورده، وقد يصابون بذلك وهم لا يدرون؛ لأنهم مغرورون بفكرهم، عميت عليهم معالم الحق والعدل فكانوا من الأخسرين أعمالاً، ﴿**الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾ [الكهف: ١٠٤]، وكانوا ممن ﴿**بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

إن الله سبحانه كثيراً ما يذكّر الناس في القرآن بأحوال المعتدين الهالكين، ويحثهم على أن يسيروا في الأرض لينظروا ما كانوا فيه من قوة ورغد عيش وحضارة وبسطة في العلم نظر عظة واعتبار؛ ليتنكبوا طريقهم اتقاء لسوء مصيرهم، ولفت النظر في بعض السور إلى جريمة الغرور الفكري لشدة خطره، وبين أنه الفتنة الكبرى التي دفعوا بها في صدور الرسل وردوا بها دعوتهم؛ ليعرفنا بقصور عقول البشر، وأنها لا تصلح

لمقاومة دعوة الرسل، وليحذرنا من خطر الغرور الفكري الذي هلك به من قاوم المرسلين، قال تعالى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾** [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

إن اعتبار الإنسان لفكره واعتداده به درجات، منها المحمود ومنها المذموم فيما جاوز الحد وبلغ درجة الإعجاب بالرأي والعصبية له ودفع الحق به بعد أن يتبين على نحو ما مضى الحديث عنه؛ فهو الممقوت، وما وقف بالمفكر عند حد فاعتقد ما فهم من الدليل عن بينة وبصيرة واعتز به لكونه الحق في نظره دون أن يعارض به صريح كتاب ولا صحيح سنة ولا إجماع أمة؛ فليس بممقوت، بل هو الواجب عليه، وعلى تمسكه به يحمد، لٰكن ينبغي له أن ينصف مناظره من نفسه ويحترم فكر صاحبه، كما يجب أن يقابله بمثل هٰذا الاحترام؛ ليستمر البحث والمناظرة، ويتبين الحق من قريب مع المحافظة على الأخوة وأواصر المحبة والوئام.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

٧ ـ «مبدأ وميثاق»:

الإسلام عقيدة وقول وعمل؛ فالعقيدة إيمان راسخ بأن الله رب كل شيء ومليكه خلقاً وتقديراً وملكاً وتدبيراً، وأن العبادة بجميع أنواعها

حق له وحـده لا يشـركه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ فله سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العليا التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة الصحيحة.

يرى جمـاعة أنصار السنة المحمدية أن تمر هٰذه النصوص كما جاءت اقتـداءً منهم فيهـا بسلف هٰذه الأمـة وخير قرونهـا؛ فيفسرونها بمعانيها التي تدل عليها حقيقة في لغة العرب التي بها نزل القرآن وكانت لسان النبي عليه الصلاة والسلام، مع تفويض العلم بكيفياتها إلى الله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، ولا يلزم من ذٰلك تشبيه الله بعباده، كما لم يلزم من الإيمان بذات له تعالى على الحقيقة، مع الكف عن الخوض في كنهها، وذٰلك لأن الله أعلم بنفسه من خلقه وأرحم بهم منهم بأنفسهم، وكـلامـه أبلغ كلام وأبينـه، ولـه سبحـانه الحكمة البالغة؛ فيستحيل أن تتوارد النصوص وتتابع الآيات والأحاديث على إثبات أسماء الله وصفاته بطريقة ظاهرة واضحة، والمراد غير ما دلت عليه حقيقة، ويقصد الله منها أو يقصد رسوله عليه الصلاة والسلام إلى معان مجازيَّة من غير أن ينصب من كلامه دليلاً على ما أراد من المعاني المجازية؛ اعتماداً على ما أودعه عباده من العقل وقوة الفكر؛ فإن ذٰلك لا يتفق مع كمال علمه تعالى وسعة رحمته وفصاحة كلامه وقوة بيانه وبالغ حكمته، ولأن يتركهم الله دون أن يعرفهم بنفسه ويعرفهم به رسوله عليه الصلاة والسلام بوحيه خير لهم وأيسر سبيلاً؛ لعدم وجود المعارض للشبه الباطلة التي زعموها أدلة وبراهين، وما هي إلا الخيالات ووساوس الشياطين، تعالى الله عن ذٰلك علوّاً كبيراً.

فمن جحد شيئاً من هٰذه النصوص أو تأولها على معان مجازية من غير دليل يرشـد إلى ما تأولهـا عليه؛ فقد ألحد في آيات الله وأسمائه وصفاته، وحق عليه ما توعد الله به الملحدين في ذٰلك بقوله:

﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿ولله الأسمـاء الحسنى فادعـوه بهـا وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد زادت السنة عن نصوص الكتاب في إثبات الأسماء والصفات توكيداً وبياناً؛ فقضت على قول كل متأول يحرف كلام الله عن مواضعه؛ كما فعلت اليهود في تحريفها لكتاب ربها وتلاعبها بشريعة نبيها.

العقيدة الصحيحـة أيضـاً إخـلاص العبـادة لله، وإفراده تعالى بجميع أنواعها ما ظهر منها؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، وما بطن منها؛ كالتـوكل على الله، والإنابة إليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عقابه ونقمتـه، والاستغاثة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر... وغير ذٰلك من الأقوال والأعمال والأخلاق التي تدخل في مسمى الإسلام، كما تدخل العقيدة ـ وإن تفاوتت منازلها ـ في الدين، وكان لكل منها درجة تخصها حسب ما يتوقف عليها من العباد وما يتبعها من الآثار.

إن العقيدة السليمة الخالصة التي تستمد من الكتاب والسنة ولا يخالطها شيء من شوائب الشرك وألوان البدع والخرافات؛ لتبعث من دان الله بهـا إلى العمل الصالح والأخلاق الفاضلة والآداب السامية، وتجعل منه رجلاً مثالياً في الحياة: إن حكم عدل، وإن قال فقوله سديد، وإن عمل كان على جادة الكتاب والسنة، وإن عاشر الناس وجدوا منه

خير سيرة؛ فمظهره يشرح للناس الإسلام ويفسره تفسيراً عمليّاً بقوله وعمله وخلقه، ومن ضعف يقينه أو كانت عقيدته مدخولة قد شابها كثير من البدع والخرافات، أو غلب عليه الغرور والاعتداد برأيه وإن خالف وحي السماء، أو طغت عليه الشبه واستولت عليه الشكوك والأوهام؛ ضرب في كل واد، وأخذ في بنيات الطريق وضل عن سواء السبيل.

من أجل ذٰلك نجد جماعة أنصار السنة المحمدية يكثرون من الكلام في التوحيد في دروسهم وخطبهم وكتابتهم، ولهم في ذٰلك خير أسوة، أسوتهم في ذٰلك أئمة الهدى وقادة الإصلاح المؤيَّدون من الله بوحيه ونصره أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

هٰذا وإن جماعة أنصار السنة المحمدية قد أخذت على نفسها أن تعتصم بكتاب الله وتهتدي بهدي رسوله ﷺ، وتجعل سيرة السلف الصالح نصب أعينها؛ عقيدة وقولاً وعملاً؛ لا تؤثر على ذٰلك شيئاً، ولا ترضى به بديلاً من آراء الرجال الضالة وأهوائهم الزائفة؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾ [الحجرات: ٧]، وما في معناه من الآيات والأحاديث، والتزمت ما ألزمها الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وعهدت إلي برئاسة الجماعة بعد وفاة مؤسسها بمصر ورئيسها السابق فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الدعوة إلى الدين ونشر التوحيد خير الجزاء؛ فكان لزاماً عليَّ أن أقوم بهٰذا الواجب وأسير بالجماعة على هدي كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ ابتغاء مرضاة الله في نشر دينه، وتحقيقاً لمبدأ التعاون في نصرة الحق.

وأرجوا الله أن يهيىء لنا جميعاً من أمرنا رشداً، وأن يلهمنا الرشد والصواب في القول والعمل؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٨ ـ «نبذة عن حال المسلمين في العصور الأولى»:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد:

فإنه بمناسبة صدور أول عدد من هٰذه المجلة المباركة نقدم لحضرات قرائنا الأفاضل نبذة من حالة المسلمين في عصورهم الأولى؛ ليرجعوا إلى سبيل أسلافهم، وينتهجوا طريق أجدادهم الذين سطَّر لهم التاريخ صحائف من نور لم تكن لأحد قبلهم.

عرف الأوائل من هٰذه الأمة شرائع الإسلام، وتبينوا حدوده ومعالمه، وعرفوا كيف يرجعون فيما يأتون ويذرون من أمر دينهم إلى المنبع الوحيد الصافي؛ فاعتصموا بحبل الله المتين، كتاب الله الذي لا يضل من استمسك به وسار على ضوئه، وبسنة نبيه الكريم المعصوم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى**﴾ [النجم: ٣، ٤]، كما أخذوا أنفسهم بالعمل بهما؛ حتى صفت أرواحهم، وطهرت نفوسهم، وخالط دين الله بشاشة قلوبهم؛ فكان شعارهم في جميع شؤونهم.

فالعالم منهم يجد نفسه وقد أنعم الله عليه بنعمة العلم، وعهد إليه أن يبلغه الناس مضطراً إلى القيام بهٰذا العبء؛ فلا يعتريه في نشر الثقافة الدينية والمبادىء الإسلامية فتور ولا خور، ولا يقعده عن البلاغ رغبة ولا رهبة ولا خوف من سلطان؛ لأن القلب الذي أُشرب حلاوة الإيمان

يكتسب قوة روحية وحصانة دينية ونوراً ربانيّاً؛ فلا يجد أحد إلى إغوائه سبيلاً، فمهما جاهد الشيطان هٰذا المخلص؛ فلن يتاح له أن يوهن عزيمته أو يمس عقيدته.

وإن قلباً قد صُبغ بصبغة الله وتشبع بتعاليم الإسلام حتى ملكت سويداءه؛ ليأبى أن يخضع لسلطة قاهر أو يرهب بطش جبار في الجهر بكلمة الحق بعدما خضع لسلطان ربه واشتد خوفه منه، وعلم أنه ملك قهار جبار بيده نواصي العباد، وإن ذٰلك ليخلق منه سيفاً مصلتاً وناراً متأججة يقذف بها من عادى الله وبارزه بعصيان، لا يخاف في الله لومة لائم، كان العلماء بذٰلك قوامين على الدين حفظاً ونشراً وبلاغاً ونصيحةً وارشاداً، وكانوا خير قدوة للناس، ومثلاً عليّاً في إصابة الحق وتأييده وكشف الباطل وإزهاقه قولاً وعملاً، يقصدهم الناس ليكشفوا لهم وجه الصواب بما ورثوه عن نبيهم ﷺ؛ فيجدوا لديهم ما يروي غلتهم، ويزيل شبهتهم، ويزيد يقينهم وإيمانهم وتعلقهم بشريعة سيد المرسلين، ولم يكن يدخل في أمر الفتيا من ليس من أهله؛ فعرف كلٌّ قدره ووقف عند حده.

أما رجال الإدارة من حكام وخلفاء؛ فكانوا أيقاظاً فطناء، يرقبون حركة الأمة، ويتفقدون الرعية في شدة ورخاء ووهن وعزة؛ فيعملون على رفع مستواها وسد عوزها، ويرأبون ما في عورتها من انحلال أو تفكك، بل كانوا يسدون منافذ الفساد والشر.

ومكنهم من القيام بمهمتهم على أكمل وجه؛ اتساع قلوبهم لنصائح العلماء، وتفتح أسماعهم لإرشاد الحكماء؛ فاعتصموا بذٰلك من

الخطل والزيغ، وكانوا على جانب عظيم من المعرفة والأمانة ومراقبة الله؛ فلم يمتنعوا عن الإصغاء للحق وقبوله، ولم تأخذهم رأفة بمجرم فيخلص بذلك من الحد، وتجردوا من كل عصبية أو هوى؛ فأمن البريء من الإدانة، وأيس المريب من البراءة؛ فانتظمت حال الأمة، واطمأنت إلى حكومتها، وأذعنت لسلطانها عن رضى، وأسلمت لها قيادها، وألقت زمامها بأيديها؛ فسادوا أمم الأرض، وارتفع لواء الإسلام، وخفق علم الحق في كل أنحاء العالم.

وبالجملة؛ فقد حققوا السيرة المثلى؛ سيرة القرآن وخلق النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت نتيجة ذلك ما امتلأت به كتب السيرة والتاريخ من مجد وفخار، حتى ذل أعداء الإسلام وقضي على قواهم المادية والمعنوية؛ فاستكانوا وأخفوا غيظهم في صدورهم.

فلما أعيتهم الحيل للنيل من الإسلام وأهله بالقوة والسيف أو بالحجة واللسان؛ عمدوا إلى السلاح النسوي، سلاح الدس البغيض والتلبيس؛ فلبسوا لذلك لأمة النفاق، وتدرعوا بدروع التقية خشية الظنون والريب وخشية أسياف الغيورين من المجاهدين، مستبطنين الكفر والعدوان، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة؛ فأوغروا صدور الرعية على الرعاة، وملؤوا قلوبهم ضغينة بأولياء الأمور، واحتالوا على تحطيم روابط الإخاء ورفع الثقة بالحكام بضروب شتى من الفتن، وساعدهم على ذلك من الأغرار والأحداث وسفهاء الأحلام من لا تخلو أمة من أمثالهم.

وما زالت وثباتهم وهجماتهم على الإسلام وأهله تترى؛ فمرة

يغزون بسلاح الشبه التي يزينونها للناس ليوقعوهم في حرج الشك وظلام الحيرة؛ مثـل ابتـداع القول بخلق كلام الله تعالى، وتعطيل صفاته، وإنكار رؤيته في الآخرة، ونفي شفاعة النبي ﷺ. . . وغيرها من الشبه التي زانوها واستولوا بها على عقول البسطاء، وأحياناً ينتحلون أحاديث ينسبونها زوراً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويلقونها على مسامع الأغرار وأهل الغفلة والجهل بفن الحديث من الذين لا يستطيعون التمييز بين صحيحه ومكذوبه، بل يصغون لكل ما نُسب إليه ﷺ؛ لحسن ظنهم بالرواة، وظنهم أنه لا يجرؤ أحد على الكذب على المشرع، ولٰكن يأبى الله تعالى إلا أن ينصر دينه وينجز وعده، **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [الحجر: ٩]، ويأبى الحق إلا أن يصرع الباطل على يد النقـاد من رجـال الحـديث وعلمـاء الرواية؛ بكلاءة هٰذا الفن وحفظه بتدوينه، وتمييز الأصيل من الدخيل، والكشف عن أحوال الرجال جرحاً وتعـديلاً يقـظة وغفلة؛ إلا أن بعض رجـال العلم من بعد أهملوا هٰذا الميراث الثمين، ولم يسلكوا سبل سلفهم في رد الفروع إلى الأصول، ولم يسيروا على ضوء مباحث الأولين في رد الشبه والأحاديث المفتراة؛ فغمـرهم ظلام الإفـك، وطغى عليهم التلبيس، فتخبطوا في كثير من مبـاحثهم، وأكثروا من الاحتمالات التي لا داعي لها ولا حاجة إليها؛ فضعفت كلمتهم أمام المحرفين والمشبهين الملحدين.

وإن ما ترزح تحته الأمم الإسلامية اليوم؛ من تفرق في الكلمة، وانحراف في الرأي، وضعف في الدفاع، وتأخر إلى الوراء حين يتقدم غيرهم؛ ليس كل ذٰلـك إلا نتيجـة غفلتهم عن تراث السلف الصـالح وسلوكهم لغير خطتهم علماً وعملاً.

ولقد راجت شبه الملحدين من جديدٍ رواجاً مخيفاً جمد إزاءه المسلمون، ولو أنهم رجعوا إلى أقوال سلفهم الصالح وسلكوا طريقهم؛ لردوا كيد الكائدين إلى نحورهم؛ فإنه ما من شبهة تذاع اليوم إلا وقد سبق إليها شياطين الملحدين السابقين في العصور الأولى، ووقفها وردها وأبطلها أجلة علماء السلف ببراعة فائقة؛ فلا سبيل أرشد من سبيلهم، ولا هدي أقوم مما كانوا عليه؛ فالخير كل الخير في العودة إلى كتاب الله تعالى تلاوة له وتفقهاً فيه، وإلى أحاديث المصطفى صاحب جوامع الكلم ﷺ دراية ورواية، والفتيا بهٰذين الأصلين وعرض أعمال الناس عليهما؛ فهٰذا هو الفلاح والرشاد الذي ليس بعده رشاد.

هٰذا وإن جماعة أنصار السنة المحمدية لممن شعر بهٰذا منذ زمن بعيد، وعرفت مصدره وعلاجه؛ فبدأت الجماعة تكافح الخرافات لا سيما ما كان متعلقاً منها بالعقائد، وترجع بأعضائها وكل من يشرفها إلى سنة النبي ﷺ وطريق السلف الصالح، وتنيرهم بالمعارف النبوية، وتنشئهم على حب الكتاب والسنة، وتمرنهم على النزول على حكمهما من غير عصبية.

فنمت الجماعة بإنارة القلوب بالنور المحمدي؛ غير أن عملها كان بطريق الدروس والمحاضرات والمناظرات التي تُلقى في أنديتها المختلفة بالقاهرة وضواحيها، وذٰلك كما ترى غير كافٍ ولا وافٍ بالحاجة في هٰذا العصر الذي عم فيه الجهل بالدين وظفر فيه الإلحاد وانتشرت الخرافات وطبق الفساد أصقاع الأرض؛ فرأت الجماعة أن لا بد لها من الإمعان في الطريق الأخرى؛ طريق النشر والتأليف؛ فاختارت لذٰلك «مجلة الهدي النبوي» مستعينة بالله، وستنهج إن شاء الله نهج الكتاب

والسنـة، وتقـوم على بيانهما خير قيام، مترسمة طريق السلف من رجال الحديث، مستعينة بما وضعوا من القواعد وأسسوا من القوانين على أداء هٰذه الـرسالة وتبليغ الدين على الوجه الأكمل المرضي، والله سبحانه وتعالى الهادي إلى سواء السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

• ثانياً: المسائل العلمية

١ ـ تحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة:

اتفق العلمـاء على طلب تحية المسجـد في الجملة لمن دخل المسجـد، كمـا اتفقـوا على طلب الإنصـات والإصغاء للخطيب يوم الجمعـة في الجملة أيضـاً، واختلفوا فيما ينبغي لمن دخل والخطيب يخطب للجمعة: هل الإنصات والاستماع فلا يصلي التحية؟ أم صلاة التحية؟ فذهب إلى الأول من الأئمـة الأربعة مالك وأبو حنيفة، وإلى الثاني منهم الشافعي وأحمد.

وهاك مأخذ الفريقين، ومنزع المذهبين، وبيان ما يعطيه الحجاج من الحق:

احتج الأولون:

أولاً: بعمـوم قولـه تعـالى: **﴿وإذا قُرىء القـرآن فاستمعـوا له وانصتوا﴾** [الأعراف: ٢٠٤].

قالـوا: أمـر الله تعـالى بالإنصات والاستماع للقرآن؛ فالخطبة كذٰلك؛ إذ هي قرآن، وفي أداء التحية وقتئذٍ تشاغل وإعراض عن امتثال الأمر، فلا يجوز.

وثانياً: بقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة؛ فقد لغوت»[1] متفق عليه.

قالـوا: اعتبر إرشاده لجليسه إلى الخير وأمره بالمعروف لغواً مع قصر زمنه؛ فالتشاغل بالتحية أولى أن يكون لغواً، فيمنع.

وثالثاً: بما رواه الطبراني من حديث ابن عمر مرفوعاً: «إذا دخل أحدكم والإمام على المنبر؛ فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ الإمام».

والجواب عن الثلاثة جملة: أنها مخصوصة بمن دخل؛ فلا يعمه حكمها لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا جاء أحدكم والإمام يخطب؛ فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما»[2]. رواه مسلم وأحمد وأبو داود، فإنه إذا

---

(١) أخرجه البخاري في (الجمعة، باب الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب، ٩٣٤)، ومسلم في (الجمعـة، باب في الإنصـات يوم الجمعـة في الخطبة، ٨٥١)، والترمذي في (الصلاة، باب ما جاء في كراهية الكلام والإمام يخطب، ٥١٢)، والنسائي في (الجمعة، باب الإنصات للخطبة يوم الجمعة، ٣ / ١٠٣)، والدارمي (١ / ٣٦٤)، وأحمـد (٢ / ٢٧٢ و٣٩٣)، وابن خزيمـة (١٨٠٥)، ومـالك (١ / ١٠٣)، والبغوي (١٠٨٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧ / ٣٣، رقمه ٢٧٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في (الجمعة، باب إذا رأى الإمام رجلاً جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين، ٩٣٠، وباب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، ٩٣١)، وأخـرجه مسلم في (الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، ٨٧٥)، وأبو داود (١١١٥)، والترمـذي في (الصـلاة، باب ما جاء في الركعتين إذا جاء الرجل والإمام يخطب)، والنسائي في (الجمعة، باب الصلاة يوم الجمعة لمن جاء والإمام يخطب، ٣ / ١٠٣)، وابن ماجـه في (إقـامـة الصـلاة، باب ما جاء فيمن دخل المسجد والإمام يخطب)، وابن خزيمة (٨٣٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٦ / ٢٤٨، رقمه ٥٠٢).

تعارض الخاص والعام؛ قضي بالخاص على العام.

ويخص الأول أن إطلاق القول بأن الخطبة قرآن دعوى لا دليل عليها، نعم، يجوز أن يكون فيها منه آية أو أكثر، ومع ذٰلك؛ فالحكم للغالب.

ويخص الثاني أن مصلي الركعتين يطلق عليه منصت، ونظيره في ذٰلك ما رواه أبو هريرة في افتتاح الصلاة؛ أنه قال: يا رسول الله! سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول فيه؟ فأطلق السكوت على القول سرّاً؛ فهنا كذٰلك.

ويخص الثالث أنه حديث ضعيف، فيه أيوب بن نهيك، قال أبو زرعة وأبو حاتم: إنه منكر الحديث؛ فلا تقوم به حجة.

واستدلوا رابعاً بما رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة من طريق عبد الله بن بسر؛ قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس، والنبي ﷺ يخطب؛ فقال له: «اجلس؛ فقد آذيت (وفي رواية: وآنيت)»[1]، قالوا: أمره بالجلوس دون التحية؛ فدل على عدم مشروعيتها حينئذٍ، والجواب عنه من وجوه:

الأول: أنه يحتمل أن يكون هٰذا الرجل قد صلّى التحية في مؤخر

---

(١) رواه النسائي في (الجمعة، باب النهي عن تخطي رقاب الناس والإمام على المنبر يوم الجمعة ٣ / ١٠٣)، وأبو داود في (الصلاة، باب تخطي رقاب الناس يوم الجمعة)، وابن ماجه في (إقامة الصلاة، باب ما جاء في النهي عن تخطي رقاب الناس يوم الجمعة، ١١١٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٨١١)، والإمام أحمد (٤ / ١٨٨، ٤ / ١٩٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧ / ٢٩، رقمه ٢٧٩٠).

المسجد على مرأى منه ﷺ، ثم تقدم ليتمكن من سماع الخطبة فتخطى الأعناق؛ فأنكر عليه.

الثاني: يحتمل أن يكون الرجل دخل في أواخر الخطبة وقد ضاق الوقت، بحيث لا يتمكن من التحية قبل الإقامة؛ فلا يطالب بها، ويدل على ذٰلك ما في بعض الرويات: «فقد آذيت وآنيت»؛ أي: أبطأت.

الثالث: أن معنى قوله ﷺ: «اجلس» النهي عن تخطي الأعناق، بدليل قوله: «فقد آذيت»، وأما التحية؛ فقد وكله عليه الصلاة والسلام إلى ما علمه الرجل قبل ذٰلك من ضرورة التحية.

ومع هٰذه الاحتمالات لا يقوى الحديث المذكور على الاحتجاج به في محل النزاع.

ذٰلك جملة حجج المانعين، وقد بينا ما فيها من عيوب.

واحتج الآخرون:

أولاً: بقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب؛ فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما»، وهو قاضٍ على عموم ما ذكروا من الأدلة، ولا مطعن فيه.

قال النووي: لا أظن عالماً يبلغه هٰذا اللفظ صحيحاً فيخالفه.

واحتجوا **ثانياً** بما رواه جابر بن عبد الله؛ قال: جاء رجل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقال: «صليت يا فلان؟». فقال: لا. قال: «قم؛ فاركع ـ وفي رواية: فصلِّ ـ ركعتين». رواه الجماعة، وهٰذا الرجل هو سليك الغطافي.

وأجاب المانعون بأنها واقعة حال لا عموم لها، ويدل على اختصاصها بسليك ما روي من حديث أبي سعيد أن الرجل كان في هيئة بذة، فقال له: «أصليت؟». قال: لا. قال: «صلِّ ركعتين»، وحض على الصدقة.

وأيضاً في هٰذا الحديث عند أحمد؛ أن النبي ﷺ قال: «إن هٰذا الرجل دخل في هيئة بذة، وأنا أرجو أن يفطن له رجل فيتصدق عليه».

ورد بأن الأصل عدم الخصوصية، وما ذكروه من قصد الصدقة لا يمنع القصد إلى التحية أيضاً معها؛ فيكون كل منهما جزء علة للأمر، ولو كان للفت النظر إلى الرجل فحسب؛ لقال: إذا رأيتم ذا بذة؛ فتصدقوا، أو: إذا كان أحدكم ذا بذة؛ فليصل ركعتين حتى يتنبه له فيتصدق عليه.

وأجابوا عن حديث سليك أيضاً بأن النبي ﷺ سكت حتى فرغ سليك من صلاته؛ فقد جمع سليك بين التحية والإنصات؛ فلم يبق في حديثه حجة لمن أجاز التحية وقتئذٍ.

ورد بأن حديث سكوت النبي حتى يفرغ سليك ضعيف؛ فإن الدارقطني الذي أخرجه من حديث أنس بن مالك قد ضعفه، وقال: الصواب أنه من رواية سليمان التيمي مرسلاً أو معضلاً؛ فلا صحة فيه.

على أنه لو ثبت؛ لكان مخالفاً لقاعدتهم، فإن العمل بعد الشروع فيه لا يجوز قطعه عندهم، لا سيما إذا كان واجباً؛ فعلى كلا الأمرين لا حجة لهم فيه.

وقد تعللوا بأجوبة أخرى يأباها النظر؛ فلا داعي إلى سردها.

وبالجملة؛ فلكل منزع، وقد عرفت وجه الصواب في ذلك، وهو ضرورة صلاة تحية المسجد للداخل والإمام يخطب للأحاديث الصحيحة الصريحة الثابتة في ذلك، مع ضعف جميع الأحاديث التي تمسك بها المانعون، ولا نرى ما يحملنا على ترك الصحيح الثابت والتحول عنه إلى الضعيف الواهي؛ إلا العصبية الممقوتة والتقليد الأعمى، هدانا الله إلى سواء السبيل.

٢ ـ حكم كتابة المصحف بالحروف اللاتينية:

مقدمة في تكييف الموضوع وتصويره.

تمهيد: لمَّا كان الحكم على كتابة المصحف بالحروف اللاتينية بالجواز أو المنع قد يتوقف على معرفة كيفية كتابته بها بدلاً من الحروف العربية وعلى معرفة رسم ما يتبع ذلك من شكل ومد وتنوين وغنة ونحو ذلك؛ كان لزاماً علينا أن نثبت أولاً التعليمات التي وُضعت لتراعى في كتابته وقراءته بالحروف اللاتينية، وأن نثبت صورة للحروف والرموز التي تُستعمل في الكتابة وتراعى في القراءة، وأن نذكر البديل من الحروف اللاتينية عن الحروف العربية التي ليس لها بديل مقابل في الحروف اللاتينية، وأن نذكر ثانياً أمثلة لبعض الفروق في كتابة الحروف والكلمات في النسخة الهندية التي نشرها محمد عبد الحليم الباسي، والنسخة الأندونيسية الأولى التي نشرها بحر العلوم والنسخة الثانية له؛ ليتبين مدى ما في ذلك من تسهيل قراءة القرآن على كثير من الأعاجم أو صعوبتها، وليتبين أيضاً مدى ما في ذلك من الخطر في كتابة القرآن بالحروف اللاتينية، وبذلك يمكن ذكر دواعي الجواز ودواعي المنع، وترجيح ما يقتضي النظر ترجيحه، ولنبدأ بعرض ما ذُكر فيما يأتي:

اختلف اصطلاح من كتبوا القرآن بالحروف اللاتينية في البديل من الحروف اللاتينية عن الحروف العربية التي لا يوجد لها مقابل في اللاتينية، يتبين ذلك بالمقارنة فيما يأتي بين ما اقتُرح من الحروف اللاتينية مقابلاً الحروف العربية في كتابة القرآن بالحروف اللاتينية لعدم وجود مثيل لها في اللاتينية.

حروف عربية	ما جعل مقابلاً لها في كتابة القرآن بالحروف اللاتينية		
	النسخة الهندية	النسخة الاندونيسية (١)	النسخة الاندونيسية (٢)
ء	ʼ	'	'
ث	Ṡ	$\underline{\text{ts}}$	ts
ح	Ḥ	Ḥ	Ḥ
خ	Kh	$\underline{\text{Kh}}$	kh
ذ	Ż	$\underline{\text{dz}}$	dz
ش	Sh	$\underline{\text{Sy}}$	Sy
ص	Ṣ	$\underline{\text{Sh}}$	Sh
ض	Ẓ	$\underline{\text{dh}}$	dh
ط	Ṭ	$\underline{\text{th}}$	th
ظ	Z̤	Zha	zh
ع	ʿ	ʿ	ʿ
غ	G	$\underline{\text{Gh}}$	Gh
ق	Q	Q	Q

اختلف اصطلاح من كتبوا القرآن بالحروف اللاتينية في رسم الكلمات وتأليفها من الحروف عند البدء وعند وجود غنة أو إخفاء أو إقلاب أو مد ونحو ذلك، وفي حذف أل القمرية والشمسية وإثباتهما، وفي الكلمة الأخيرة من الآية إذا كانت منونة، يتبين ذلك بالتطبيق

والمقارنة بين النسخ في كتابة السور السبع الأخيرة من القرآن بالحروف اللاتينية.

بيان الموانع التي تمنع شرعاً كتابة المصحف بحروف لاتينية ونحوها وبيان ما فيها من الخطر.

أ ـ ثبت أن كتابة المصحف في عهد النبي ﷺ وفي جمعه في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان رضي الله عنهما كانت بالحروف العربية، بل قصد عثمان رضي الله عنه رسماً معيناً أمر بكتابته به عند اختلاف كتبة المصحف من الأنصار والقرشيين في رسم الحروف، ووافقه على ذلك الصحابة رضي الله عنهم، وأجمع عليه التابعون ومن بعدهم إلى عصرنا؛ رغم وجود لغات وحروف غير عربية، ووجود كتبة مسلمين من غير العرب، ووجود من يحتاج إلى تسهيل القراءة في المصحف بحروف غير عربية.

وثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، فكانت المحافظة على كتابة المصحف بالحروف العربية واجبة؛ عملاً بما كان في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وسائر الصحابة رضي الله عنهم والقرون المشهود لها بالخير، وعملاً بإجماع الأمة.

ب ـ أن الحروف اللاتينية نوع من الحروف المصطلح على الكتابة بها عند أهلها؛ فهي قابلة للتغيير والتبديل بحروف لغة أخرى بل حروف لغات أخرى مرة بعد مرة، فإذا فتح هذا الباب تسهيلاً للقراءة؛ فقد يفضي ذلك إلى التغيير كلما تغيرت اللغة واختلف الاصطلاح في

الكتابة لنفس العلة، وقد يؤدي ذٰلك إلى تحريف القرآن بتبديل بعض الحروف من بعض والزيادة عليها والنقص منها، ويُخشى أن تختلف القراءة تبعاً لذٰلك ويقع فيها التخليط على مر الأيام والسنين، ويجد عدو الإسلام مدخلاً للطعن في القرآن بالاختلاف والاضطراب بين نسخه، وهٰذا من جنس البلاء الذي أصيبت به الكتب الإلٰهية الأولى حينما عبثت بها الأيدي والأفكار، وقد جاءت شريعة الإسلام بسد ذرائع الشر والقضاء عليها؛ محافظةً على الدين، ومنعاً للشر والفساد.

ج ـ يُخشى إذا رخص في ذٰلك أو أقر أن يصير كتاب الله ـ القرآن ـ ألعوبة بأيدي الناس، كلما عنَّ لإنسان فكرة في كتابة القرآن اقترح تطبيقها فيه؛ فيقترح بعضهم كتابته بالعبرية، وآخرون كتابته بالسريانية وهٰكذا؛ مستندين في ذٰلك إلى ما استند إليه من كتبه بالحروف اللاتينية من التيسير ورفع الحرج والتوسع في الاطلاع والبلاغ وإقامة الحجة، وفي هٰذا ما فيه من الخطر العظيم، وقد نصح مالك بن أنس الرشيد أو جده المنصور ألا يهدم بناء الكعبة الذي أقامه عبد الملك بن مروان ليعيدها إلى بنائها الذي بناه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على قواعد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ خشية أن تصير الكعبة ألعوبة بأيدي الولاة.

قال تقي الدين الفاسي في كتابه «شفاء الغرام»: ويروى أن الخليفة الرشيد أو جده المنصور أراد أن يغير ما صنعه الحجاج بالكعبة وأن يردها إلى ما صنعه ابن الزبير؛ فنهاه عن ذٰلك الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وقال له: نشدتك الله؛ لا تجعل بيت الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره؛ فتذهب هيبته من قلوب الناس.

انتهى بالمعنى.

ثم قال: وكـان في ذٰلك الحظ أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح، وهي قاعدة مشهورة معتمدة. اهـ.

د ـ أن الـذين كتبوا القرآن بالحروف اللاتينية أحسوا بأن الذين يعرفون الحروف اللاتينية واعتادوا القراءة بها يشق عليهم أن يقرؤوا القرآن بها؛ لوجود حروف في اللغة العربية ليس لها نظير في اللاتينة؛ فاضطروا أن يضعوا لها مقابلاً، واضطروا لذٰلك أن يضعوا تعليمات تتكون من عشر صفحات جعلوها مقدمة لما كتبوه من القرآن بالحروف اللاتينية لتسهيل قراءتـه بهـا على من يعـرف تلك الحـروف وتعـود القـراءة بها، وهٰذه التعليمات يحتاج تعليمها والمِران عليها إلى مدة وجهد، إن لم يزد ذٰلك على تعلم الحروف العربية والقراءة بها؛ فهو لا ينقص عنه، وعلى ذٰلك تكون كتابة القرآن بالعربية أرجح وأسلم؛ لكونها اللغة التي بها نزل، ولبعدها عن مظان التحريف والتبديل.

هـ ـ أن التجزئة في كتابة كلمات الآية وضم جزء من حروفها إلى ما سبق وآخر إلى ما لحق تشبه تقطيع كلمات البيت من الشعر حسب الأوزان المعروفة عند علماء العَروض ليعرف البحر الذي هو منه ويتبع ذٰلك صفة نطق القارىء، وتشبه أيضاً النوتة الموسيقية التي يُراعى فيها مطابقة الصوت للمقطع والسلم الموسيقي، وهٰذا من البدع التي تسيء إلى القرآن الكريم.

و ـ أن كاتب القرآن بالحروف اللاتينية لم يلتزم ما تعهد به في تعليمـاتـه في كيفية الـرسم الكتابي؛ فمثلاً نجده أحياناً يثبت الحرف اللاتيني الذي جعله عوضاً عن الحركة في الكتابة العربية وأحياناً يتركه،

ونجده أحياناً يثبت خطّاً أفقيّاً بين حرفي المضعف وأحياناً يتركه، من ذٰلك ما وقـع في كتـابـة سورة الناس بالحروف اللاتينية في النسخة الهندية والنسخة الأندونيسية الثانية. . . إلى غير ذٰلك مما ينذر بالخطر، ويفضي إلى التـلاعب بالقـرآن الكريم وتحريفه والإلحاد فيه، ويفتح باباً لأهل الزيغ والزندقة والكفر يدخلون منه للطعن في كتاب الله ويشبهون على المسلمين، ويصيب القرآن بما أصيبت به التوراة والإنجيل من قبل من التغيير والتبديل وتحريف الكلم عن مواقعه.

ولبعض العلماء كلام في بيان حكم كتابة القرآن بغير العربية نثبته فيما يلي:

ذكر جلال الدين السيوطي في «الإتقان»[1] مسألة كتابة القرآن بغير العربية، ونقل فيها عن الزركشي احتمال الجواز وترجيح المنع من كتابة القرآن بغير الحروف العربية؛ قال: قال الزركشي[2]: هل تجوز كتابته بقلم غير عربي؟ هٰذا مما لم أر فيه كلاماً لأحد من العلماء، ويحتمل الجواز؛ لأنه قد يحسنه من يقرؤه بالعربية، والأقرب المنع، كما تحرم قراءتـه بغير لسـان العرب، ولقولهم: القلم أحد اللسانين، والعرب لا تعرف قلماً غير العربي، وقد قال تعالى: ﴿**بلسان عربي مبين**﴾ اهـ. ولم يعلق السيوطي على ذٰلك؛ فكأنه رضيه.

وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في «مجلة المنار»[3]أن بعض

---

(١) (ص ١٧١ / ٢).

(٢) (ص ٣٨٠ / ١) من «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي.

(٣) (ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧) من المجلد السادس تحت عنوان «كتابة القرآن بالحروف الإنجليزية».

المسلمين الترنسفال كتب إلى جريدة في مصر ثلاثة أسئلة لعرضها على بعض علماء الأزهر؛ فعرضتها على الشيخ محمد بخيت، فأجاب عنها ونشرت الجريدة أجوبته.

أحد الأسئلة عن التزوج بأخت الرضيعة، وجوابه معروف وهو أنه لا يحرم على الرجل إلا من رضعت هي وإياه من امرأة، وأما أخت الرضيعة؛ فلا تحرم.

والسؤال الثاني يتعلق بالاقتداء بالمخالف، وبينا الراجح فيه عندنا في آخر الجزء الماضي، وأن في المسألة قولين مصححين، ولٰكن الشيخ ذكر أن الأصح خلاف ما رجحناه، وهو المذكور في كتب الفقه وهم أسرى تلك الكتب.

وأما السؤال المهم؛ فهو ما جعلناه عنواناً لهٰذه النبذة (أي: كتابة القرآن بالحروف الإنكليزية)، وقد أجاب الشيخ بجواب ننقله عن تلك الجريدة مع السؤال ثم نبين رأينا فيه، وهو:

«أضف إلى ما تقدم اقتراحاً آخر في كتابة القرآن بالحروف اللاتينية؛ فإن الكاتب في محاولته لضبط القراءة وتسهيل النطق بالكلمات قد جزأ بعض الكلمات العربية إلى مقطعين بينهما خط أفقي كالفتحة، وجعل حروف المقطع الأول مع حروف الكلمة السابقة وحروف المقطع الثاني مع الكلمة اللاحقة أو بعضها، مثال ذٰلك ما اقترحه في كتابة قوله تعالى: **﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب...﴾** الآية [الأنعام: ٥٠]؛ فإنه كتبها بالحروف اللاتينية على النحو التالي:

50 - Qul-Laaa 'aquulu Lakum 'indii Khazaaa - 'inul-laahi wa Laaa a-Lamul-gayba wa Laaa aquulu Lakum innii malak. 'In' attabi - 'u 'illaa maa youhaa 'ilayy. Qul hal yasts-wil - 'a' - maa wal-basiir? 'Afalaa tatafak-karuun? (Section 6).

وفيما سبق من صور كتابة السور السبع بالحروف اللاتينية كثير من الأمثلة لذٰلك.

الخلاصة:

١ ــ ذكر ناشرو نسخ المصاحف التي كتبوها بالحروف اللاتينية مقدمات بينوا فيها الحروف اللاتينية، ورمزوا لما يتبعها من شكل ومد وغنة ووقف ووصل، وذكروا معها توجيهات لكيفية استعمالها كتابة وقراءة؛ تسهيلاً في نظرهم على من يريد كتابة القرآن وقراءته على هٰذه الطريقة، ومحافظةً على القرآن من دخول أي تغيير عليه.

٢ ــ يتبين بالمقارنة بين النسخة الهندية والنسخة الأندونيسية الأولى والثانية أن بينهما اختلافاً فيما يأتي:

أ ــ في الحروف اللاتينية التي اقُترحت لتكون بديلاً عن الحروف العربية التي ليس لها مقابل في اللاتينية.

ب ــ في حذف أل القمرية وأل الشمسية من النسخة الهندية وإثباتهما في الأندونيسية، وحذف الحرفين اللذين جُعلا علامة على التنوين مطلقاً من آخر الكلمة الأخيرة من كل آية من النسخة الهندية والأندونيسية الثانية وإثباتهما في النسخة الأندونيسية الأولى، وحذف بديل النون والتنوين في بعض أنواع الإدغام من النسخة الهندية والأندونيسية الثانية وإثباتهما في الأندونيسية الأولى... إلى غير ذٰلك من

الحذف في بعضها والإثبات في الآخر.

ج ــ في رسم الكلمة بتجزئتها إلى مقطعين وعدم تجزئتها، والفصل بين حرفي المضعف بخط كالفتحة وعدم الفصل. . . إلخ.

وكل ذٰلك يتبين بمراجعة السور السبع في النسخ الثلاث المكتوبة بالحروف اللاتينية والمقارنة بينهما.

٣ ــ لكتابة القرآن بالحروف اللاتينية مبررات:

أ ــ منها تسهيل كتابته وقراءته على كثير من الأعاجم، وتيسير طريق البلاغ والدعوة إلى الإسلام وإقامة الحجج، وتعميم ذٰلك في السواد الأعظم من غير العرب، ولا شك أن هٰذا من مقاصد الشريعة، ونظيره جمع أبي بكر رضي الله عنه القرآن خشية ضياعه بموت القراء، وجمع عثمان رضي الله عنه القرآن على قراءة واحدة من السبع التي بها نزل القرآن خشية الاختلاف، ونقط القرآن وشكله في عهد بني أمية؛ تسهيلاً لقراءته على من استعجمت ألسنتهم من أبناء العرب، وصيانة لهم من اللحن في التلاوة، وكل ذٰلك ليس بمنكر، بل فيه تحقيق مقاصد الشريعة؛ تسهيلاً، ودعوةً، وحفظاً للقرآن، وصيانة له؛ فليرخص في كتابته بالحروف اللاتينية لمثل ذٰلك.

ب ــ ومنها أن القرآن لم ينزل مكتوباً بل نزل وحياً متلوّاً، فكتبه الصحابة بما كان معهود لديهم من الحروف، وليس هنا نص من الكتاب أو السنة يُلزِم الأمة بذٰلك؛ فلم لا يجوز كتابة المصحف بحروف لاتينية مثلاً لوجود الداعي إلى ذٰلك مع عدم الضرر؟ ونوقش ذٰلك بأمور:

أ ــ منها أن تعلُّم الأعاجم اللغة العربية سهل لا حرج فيه ولا

خطر؛ فإن عهد أن كثيراً من الناس يتعلمون غير لغتهم؛ حبّاً للاستطلاع، ووسيلة لدراسة بعض العلوم، وحرصاً على تبادل المنافع، وأن كثيراً من الأعاجم الذين أسلموا تعلموا اللغة العربية وخدموا الإسلام، بل تحولت دول عن لغتها إلى اللغة العربية، بخلاف ما ذُكر من جمع القرآن ونقطه وشكله؛ فإن المصلحة لا تتحقق إلا بذٰلك، ولا يدفع الخطر المتوقع إلا به، وعلى هٰذا لا اعتبار بما ادعي أنه نظائر، ولا للاستشهاد به للترخيص في كتابة القرآن بحروف غير عربية لوجود الفارق.

ب ـ كان من أصحاب النبي ﷺ من يعرف غير العربية والوحي ينزل، ولم يتخذ منهم من يكتب القرآن بغير العربية من الفارسية والحبشية والسريانية ونحوها؛ تيسيراً على الأمة، وإعانةً على تعميم البلاغ وإقامة الحجة، مع علمه بعموم الرسالة وعلم الله تعالى بأحوال الأمم واختلاف لغاتها، فإعراضه ﷺ عما سمي دواعي ومبررات لكتابة القرآن بالحروف اللاتينية وتقرير الله له على ذٰلك فيه إلغاء لتلك المبررات وإهدار لها؛ فلا يصح بناء الترخيص عليها.

ج ـ إن الذين كتبوا المصحف بالحروف اللاتينية أحسوا بأن مجرد كتابته بها لا يحقق التسهيل لوجود حروف عربية ليس لها مقابل من الحروف اللاتينية؛ فاضطروا أن يقترحوا لها مقابلاً، واضطروا أن يقارنوا بين الحروف العربية وتوابعها من الشكل والمد ونحوها وبين الحروف اللاتينية والرموز التي وضعت للتوابع، واضطروا أن يضعوا إرشادات قد وصلت في بعض النسخ أربع عشرة صفحة وهٰذا يحتاج تعليمه والمِران عليه كتابة وقراءة إلى جهد إن لم يزد على العربية كتابة وقراءة؛ فهو لا

ينقص عنه، وإذن؛ فكتابة القرآن بالعربية أرجح وأسلم؛ لكونها اللغة التي بها نزل، ولبعدها عن مظان التحريف والتبديل.

د ـ أن التجزئة في كتابة كلمات الآية وضم جزء من حروفها إلى ما سبق وآخر إلى ما لحق تشبه تقطيع كلمات البيت من الشعر حسب الأوزان المعروفة عند علماء العَروض ليعرف البحر الذي هو منه، ويتبع ذٰلك صفة نطق القارىء، وتشبه أيضاً النوتة الموسيقية التي يُراعى فيها مطابقة الصوت للمقطع والسلم الموسيقي، وهٰذا من البدع التي تسيء إلى القرآن الكريم.

هـ ـ إن كاتب القرآن بالحروف اللاتينية لم يلتزم ما تعهد به في تعليماته في كيفية الرسم الكتابي؛ فمثلاً نجده أحياناً يثبت الحرف اللاتيني الذي جعله عوضاً عن الحركة في الكتابة العربية وأحياناً يتركه، ونجده أحياناً يثبت خطّاً أفقيّاً بين حرفي المضعف وأحياناً يتركه، من ذٰلك ما وقع منه في كتابة سورة الناس بالحروف اللاتينية في النسخة الهندية والنسخة الأندونيسية الثانية، إلى غير ذٰلك مما ينذر بخطر، ويفضي إلى التلاعب بالقرآن الكريم وتحريفه والإلحاد فيه، ويفتح باباً لأهل الزيغ والزندقة والكفر يدخلون منه للطعن في كتاب الله ويشبهون على المسلمين، ويصيب القرآن بما أصيبت به التوراة والإنجيل من قبل من التغيير والتبديل وتحريف الكلم عن مواضعه.

٤ ـ هناك أمور تقتضي كتابة القرآن بالحروف العربية خاصة، منها:

أ ـ أنه كُتب حين نزوله وفي جمع أبي بكر وعثمان رضي الله

عنهما إياه بالحروف العربية، ووافق على ذٰلك سائر الصحابة رضي الله عنهم، وأجمع عليه التابعون ومن بعدهم إلى عصرنا رغم وجود الأعاجم، وثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي . . . » الحديث؛ فوجبت المحافظة على ذٰلك عملاً بما كان في عهده ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، وعملاً بإجماع الآية.

ب ـ أن حروف اللغات من الأمور المصطلح عليها؛ فهي قابلة للتغيير مرات بحروف أخرى، فيُخشى إذا فُتح هٰذا الباب أن يفضي إلى التغيير كلما اختلف الاصطلاح، ويخشى أن تختلف القراءة تبعاً لذٰلك ويحصل التخليط على مر الأيام، ويجد عدو الإسلام مدخلاً للطعن في القرآن بالاختلاف والاضطراب كما حصل بالنسبة للكتب السابقة؛ فوجب أن يمنع ذٰلك؛ محافظةً على أصل الإسلام، وسد الذريعة إلى الشر والفساد.

ج ـ يُخشى إذا رخص في ذٰلك أو أُقِر أن يصير القرآن ألعوبة بأيدي الناس، فيقترح كلٌّ أن يكتب بلغته وبما يجد من اللغات، ولا شك أن ذٰلك مثار اختلاف وضياع؛ فيجب أن يُصان كتاب الله عن ذٰلك صيانة للإسلام، وقد تنبه علماء الإسلام لذٰلك فحرموا كتابته بغير العربية؛ حفظاً للقرآن، وصيانةً له من العبث والاضطراب.

وليس فيما ذُكر استقصاء لمكامن الشر ومثار الخطر، وإنما هي نماذج مما وقع من الاختلاف والخلط والأخطاء وتمثيل لما يُخشى منه وقوع البلاء.

هٰذا ولم تتعرض اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء لما جاء في مقدمة النسخة الهندية من الكذب في الحديث على رسول الله ﷺ في تفضيل حبر العالم على دم الشهيد، ومن الغلو في الثناء على محمد عبد الحليم الياسي بجعل ما اقترحه ونشره من كتابة القرآن بالحروف اللاتينية مما يتحدى به كما يتحدى بالقرآن، كما لم تتعرض اللجنة لما قد يكون من أخطاء في ترجمة معاني القرآن المطبوعة مع الترجمة الصوتية في النسخة الهندية والنسخة الأندونيسية الثانية، فإن ذٰلك ليس من موضوع بحثها الذي كُلفت به، ثم إن ترجمة معاني القرآن موضوع مستقل يحتاج إلى بحث خاص في حكمه وفي طريق تطبيقه وفيما وقع منه، وقد خاض العلماء فيه من قبل، ونرجو أن يوفقهم الله تعالى لإكمال ما بدؤوه، والله المستعان.

وأخيراً؛ فالبحث في هٰذا الموضوع للكشف عن جوانبه وإيضاح الحق فيه، وإن كان مهماً؛ فأهم منه اللقاء بمن نشروا نسخاً من الترجمة الصوتية للقرآن ومن أثنوا عليها من العلماء، والبحث معهم في الموضوع، وأهم من الأمرين قيام الحكام في الدول الإسلامية بواجبهم نحو حفظ كتاب الله بعد ظهور الحق...

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٣ ـ حكم عقد تأسيس الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

فبناءً على ما رآه مجلس هيئة كبار العلماء في دورته السادسةَ عشرة المنعقدة في شهر شوال عام ١٤٠٠هـ بمدينة الطائف من إبداء اللجنة

الـدائمـة للبحـوث العلمية والإفتاء ما قد يرد من ملحوظات على عقد تأسيس الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ونظامها الأساسي ونظامها الداخلي، وعلى شركات المضاربة التي تقوم بها، والمذكرة التوضيحية المتعلقة بذٰلك، وأن تنظر فيما رآه أصحاب الفضيلة أعضاء المجلس من الملحوظات؛ أعدت اللجنة الدائمة ملحوظات في ذٰلك لعرضها على المجلس لدراستها وإصدار قرار بما يراه.

وفيما يلي ذكر الملحوظات بعد تمهيد في بيان أمر عام مهم في الموضوع:

أولاً: تمهيد في بيان الفـرق بين الشـركـة الإسلامية للاستثمار الخليجي وأنواع شركة المضاربة الإسلامية.

قد ذكر الدكتور إبراهيم كامل مندوب الشركة لإيضاح ما قد يخفى من مصـطلحـات بيان الفـرق بينهمـا من وجـوه؛ فنكتفي ببيانـه طلبـاً للاختصار، قال ما نصه:

«مقـدمـة توضيحية: التفـريق بين الشـركة الإسلامية للاستثمار الخليجي (المضارب وحده) وبين شركة المضاربة الإسلامية (الأولى، والثانية، والثالثة. . . إلخ)، والتي يجتمع فيها أرباب المال من جانب والمضارب من جانب آخر.

الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي: هي شركة مساهمة يشترك فيهـا المؤسسـون بأموالهم في صورة أسهم، ويستعمل رأس مال هٰذه الشركة في مواجهة مصاريفها الإدارية الخاصة بها والمصاريف الخاصة بدورهـا كمضـارب، والتي تخصم فيمـا بعـد من شركـات المضـاربة

المستقلة كل على حدة حسب نصيبها فيها، كما يقوم رأس مالها بضمان التزامات المضارب في شركات المضاربة المستقلة حسب المقرر شرعاً إذا قصر في حفظ المال أو خالف شروط المضاربة.

وهٰذه الشركة مؤسسة حسب القانون المعمول به في دولة الإمارات العربية المتحدة، وعقد تأسيسها مطابق لنموذج هٰذا النوع من الشركات حسب قانون الشركات في دولة الإمارات.

أما شركات المضاربة الإسلامية؛ فكل منها شركة مستقلة تماماً، يمثل جمهور أرباب المال (حملة الصكوك) طرفاً منها بأموالهم والشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي بصفتها المضارب الطرف المشترك بعمله، وهٰذه الشركة مؤسسة حسب الشريعة الإسلامية بموجب مرسوم أميري، وشروطها المسجلة في دولة الإمارات هي نفس الشروط الموضحة بالصك.

أجاب الدكتور إبراهيم كامل:

أولاً: بأن الشركة لم تستأثر بالمقتطع ولا بأرباح ٥٪ من الجميع لغرض الاحتياط، بل تعاد ليستفيد من أرباحها كل من أرباب المال والمضارب، وهي ملك لأطراف شركة المضاربة.

ثانياً: قد يجاب بأن الأصل في الشركة أنها عقد اختياري لكل من أطرافها الانسحاب متى أراد؛ لٰكن قد يطرأ عليها ما يجعل العقد لازماً؛ فلذٰلك اشترط منع الانسحاب في السنتين الأولى والثانية؛ لأن إطلاق الحرية في الانسحاب قد يعرقل بقاءها واستمرارها في عملها.

١ ــ جاء في صفحة (٦) سطر (٤) مما قدم إبراهيم كامل مذكرة

توضيحية مؤرخة ٩ ربيع الأول ١٤٠٠هـ ما نصه:

«وتتمتع المؤسسات حاملة الصك بعائد استثماري يدفع شهرياً» اهـ.

في هٰذا نظر، حيث إن من دفع ماله إلى شركة الاستثمار باسم المضاربة يأخذ فوائد شهرية باسم عائد استثماري؛ فليحرر.

٢ ــ كما جاء بعد هٰذا بنحو سطر ما نصه: كما تستطيع الحصول على خطابات للاعتماد بحد أقصى أربعة أضعاف مبلغ صكوكها.

في هٰذا تأمل حيث يأخذ المضارب أربعة أضعاف مبلغ صكوكها.

٣ ــ وفي الصفحة المذكورة سطر (١٠) ما نصه: «المضاربة الربع سنوية للمؤسسات المالية الإسلامية يوليو ١٩٧٩م، وهي مشابهة للمضاربة الشهرية سابقة الذكر؛ إلا أن أرباحها تدفع كل ربع سنة» انتهى.

وفي المضاربة الشهرية السابق بيانها من التنظير مثل ما في تلك المضاربة ربع سنة، حيث يدفع لأصحاب المؤسسات حاملة الصكوك بعائد استثماري يدفع كل ربع سنة؛ فليتأمل.

وقد أجاب عن ذٰلك الدكتور إبراهيم كامل بما يأتي:

أ ــ العائد الاستثماري الشهري أو الربع سنوي هو (انظر الشرط رقم ٦ في شروط مضاربة المؤسسات) ما يرزق الله به من ربح حلال إن وجد، يوزع بنسبة التسعة أعشار لرب المال والعشر للمضارب، أما الاستثمارات المنصوص عليها في الشرط (رقم ٤) من الشروط الخاصة

بالمضاربة في إطار ما أحلته الشريعة الإسلامية.

ب ــ أما التسهيلات الممنوحة من شركة المضاربة هٰذه إلى أرباب المال فيها بهدف تقديم الخدمات التي ترفع الربا المحرم عن التجار المسلمين؛ فهي مذكورة تحت العنوان السابق في ظهر الصك فقرة (رقم ١)، والتي تقوم الشركة بناءً عليها بإصدار اعتمادات مستندية (تعهد مالي بدفع قيمة البضائع المشحونة من الخارج في مقابل مستندات شحنها لطالبيها)، ويتم ذٰلك من قبل الشركة كخدمة للعميل دون أن تخرب أمواله من المضاربة، وتدفع الشركة قيمة البضائع ثم تسددها من المؤسسة التي طلبتها مقابل تسليمها البضائع.

جاء في الشرط الرابع من شروط المضاربة الثالثة ما نصه: «تتكون أموال شركة المضاربة من الأقساط السنوية المحصلة من المشتركين، وما يرزق الله به من ربح يخصهم سيعاد استثماره لصالح شركة المضاربة».

وجاء في الشرط السابع منها ما نصه: «ما يرزق الله به من ربح خلال أي ربع سنة يكون استحقاقه كالآتي:

أ ــ عشر الربح للمضارب.

ب ــ تسعة أعشار الربح يُعاد استثماره لصالح جميع المشتركين كأصول المضاربة، بما في ذٰلك الاحتياطي المنوه عنه بالشرط السادس البند ج».

وجاء في بيان شروط التكافل ما نصه:

«١١ ــ لما كانت الشريعة الإسلامية الغراء قد حثت على التكافل

والتـرابط والتعـاون بين المسلمين؛ فقـد اتفق المشتـركـون في هٰذه المضاربة فيما بينهم على أن يقوموا بتخصيص جزء من أرباح المضاربة لتحقيق هٰذا التكافل حسب الحاجة.

١٢ ــ من أجل ذٰلك قبل المشتركون عن طيب خاطر ورضا نفس، وتنازل كل منهم عن بعض ربحه بنسبة مشاركته تبرعاً دون مقابل لدفع الأقساط المتبقية على من فاجأته المنية من المشتركين قبل أن يكمل ما تعهـد بسـداده من أقسـاط في هٰذه المضاربة حتى تاريخ الاستحقاق يدفعونها لورثة المتوفى تكافلاً إسلامياً بالشروط الآتية» اهـ.

ممـا سبق يمكن توضيح الفرق بين الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي وشركات المضاربة الإسلامية كالآتي:

أ ــ لكـل منهمـا كيان اقتصـادي مستقـل؛ فالشـركة الإسلامية للاستثمار شركة إدارة أموال وشركة المضاربة محدد هدفها الاقتصادي حسب الهدف المعلن لكل مضاربة، مثلاً مشروعات عقارية أو زراعية أو صناعية. . . إلخ.

ب ــ لكل منهما رقم تجاري مستقل. انظر الصك.

ج ــ لا تُخلط أمـوال أحدهما بالأخرى. انظر المادة رقم ١ من شروط جميع الصكوك.

د ــ نظام الإدارة في الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي أساسه القـانـون العـام الـوضعي المـطبق في دولة الإمارات العربية المتحدة (جمعية عمومية لمساهمين ـ مجلس الإدارة ـ)؛ الامتثال بقوانين البلاد ومحاكمها المدنية، والمسؤولية المحددة بقدر رأس المال، أما بالنسبة

لشركة المضاربة؛ فهي مؤسسة حسب الشريعة الإسلامية، ينفرد المضارب فيها بالإدارة في إطار شروط الصك، وتخضع في حالة المنازعات لهيئة التحكيم الإسلامية المنصوص عليها في الصك.

تعليق على المقدمة:

أولاً: إذا كان واقع الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ما ذُكر من أن نظامها الإداري أساسه القانون الوضعي، وأنها تخضع لقوانين البلاد ومحاكمها المدنية، وأن مسؤوليتها بقدر رأس مالها؛ فكيف توصف بأنها إسلامية؟! فالواجب تعديل ما يخالف الشرع من موادها حتى يصح أن توصف بأنها إسلامية.

ثانياً: إذا كان واقع هٰذه الشركة ما ذُكر؛ فهل يجوز أن تُدْفَع إليها أموال المسلمين لتعمل فيها مضاربة ما دامت أموالها مستقلة عن أموال شركة المضاربة، وعملها في أموالهم التي دفعوها إليها متفق مع الشريعة الإسلامية، وتحاكمها فيما قد يكون من نزاع يتعلق بشركة المضاربة إلى هيئة تحكيم شرعية اعتباراً بعقد المضاربة بينها وبين أرباب رؤوس المضاربة، أو يمنع نظراً إلى ما جاء في نظامها وعقد تأسيسها المستقل والذي التزم به المؤسسون لها المساهمون فيها؟!

قد يقال: نعم يجوز؛ لأن النبي ﷺ قد وقع بينه وبين الكفار عقود في المعاملات متنوعة؛ كالبيع والشراء والإجارة؛ مع العلم بأنهم يتعاملون بالربا والعقود الفاسدة دون مراعاة لأحكام الشريعة الإسلامية... إلخ.

ثانياً: ما قد يرد من المآخذ على عقد التأسيس والنظام الأساسي،

وأنواع شركة المضاربة، والمذكرة التوضيحية.

أ ــ جاء ذكر العبارة الآتية: «الشركة الإسلامية للاستثمار المحدودة» مرات في (ص ٢ ـ ٤) من عقد تأسيس الشركة وفي المادة (٤، ص ٢) من النظام الأساسي للشركة.

ومعنى كونها محدودة أن مسؤوليتها محدودة في رأس مالها الذي تكونت منه الشركة؛ فلا يحق لأحد أن يرجع على مساهميها بصفتهم الشخصية لاستقلالها بصفتها الاعتبارية عن صفتهم الشخصية وعن شركات المضاربة، ومسؤولة برأس مالها فقط عن شركات المضاربة المستقلة عنها في حالة تقصيرها في حفظها أو الإخلال بشرط من شروطها المسجلة في الصك.

وعلى هٰذا يمكن أن يقال: إذا كانت مسؤولية شركة الاستثمار محصورة في رأس مالها لا تتجاوزها إلى أموال المساهمين الشخصية؛ كانت حقوق الذين يحملون صكوك شركة المضاربة عرضة للضياع على تقدير إفلاس شركة الاستثمار وخسارة شركات المضاربة خسارة تزيد على ما بقي من أموال شركات الاستثمار بسبب تقصيرها في حفظ أموال شركات المضاربة أو سوء إدارتها؛ فالواجب أن يُرجع في الخسارة إلى ذمم المساهمين في شركة الاستثمار حتى يضمنوا ما وقع من خسارة بتفريطهم أو سوء إدارتهم في جميع أموالهم لا في حدود رأس مال الشركة.

ب ــ جاء في المادة (١٣، ص ٤) من النظام الأساسي أنه صدرت أسهم جديدة بأكثر من القيمة الاسمية للسهم، أضيف الفرق

حتماً إلى الاحتياطي الإجباري بعد وفاء مصروفات الإصدار» اهـ.

فلماذا أضيف الفرق إلى الاحتياطي الإجباري حتماً؟ وهل له أن ينسحب من الشركة؟ وإذا انسحب؛ فهل يحرم من هٰذا الفرق أو يعطاه؟

ج ــ جاء في (ص ٦) ضمن المادة (٣٠) من النظام الأساسي ما نصه: «لكل مساهم عدد من الأصوات تعادل عدد أسهمه».

فلماذا كانت الأصوات بعدد الأسهم دون عدد المساهمين؟

قد يقال في تعليل ذٰلك: إن المساهم كلما كان أكثر سهاماً؛ كان أحرص على مصلحة الشركة، وأمعن فكراً في تحقيق النجاح لها واستمرارها في عملها، ثم ذٰلك أمر إداري قد جرى العمل به كما جرى بما هو قريب منه وهو الأخذ بأكثرية الأصوات من الأعضاء في المجالس الدينية وغير الدينية مع أن الأقلية قد يكون فيها من هو أرجح عقلاً وأوسع علماً وأدرى بالمصلحة.

جاء في (ص ٤ ـ ٦) من النظام الداخلي ما نصه:

«٤ ــ الإجراءات الإدارية والعملية:

١ ــ طرق البيع.

يقوم المساهم بتوقيع طلب اشتراك على نموذج مطبوع خصيصاً لذٰلك ويرسله إلى مكتب الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي (المكتب الرئيسي) أو لمصرف التوزيع المحدد، ويقوم المستثمر بسداد قيمة الصك بشيك أو أمر دفع مصرفي إلى مصرف الشارقة باعتباره مصرف التحصيل أو إلى مصرف التوزيع المحلي، ومصارف التوزيع

ملزمة بتحويل الأموال إلى مصرف التحصيل وليس إلى الشركة ذاتها.

٢ ـ طرق الإصدار.

يقوم مصرف التجميع بإعداد جداول لجميع المبالغ التي استلمها ويقيدها لحساب الشركة الإسلامية للاستثمار في حساب دائن مغلق خاص بالمضارب، ويقوم كل أسبوع بإرسال تلكس للوكيل الإداري (وهو مصرف تجاري أوروبي لديه القدرة على القيام بهٰذه الأعباء) يخطره برصيد الحساب الأسبوعي للشركة الإسلامية ويحدد النسب الخاصة لكل سند على حدة (أي: نسبة سند الأمانة إلى نسبة سند المشاركة)، وذٰلك عن كل الصكوك التي يتعين إصدارها في الأسبوع نفسه، وينشأ سجل إصدار يمسكه الوكيل الإداري يسجل فيه رقم كل صك وتاريخ إصداره وقيمته ونسبة سند الأمانة إلى سند المشاركة منه.

وتطبع الصكوك في أوروبا بمعرفة الوكيل الإداري، ثم ترسل إلى مصرف التحصيل صاحب التوقيع المعتمد الوحيد على الصكوك، وبذٰلك يراقب ويتأكد أن المبالغ التي صدرت بها الصكوك تتماثل وتتعادل تماماً مع المبالغ التي اسُتلمت وقُيدت في الحساب المغلق.

٣ ـ تسليم الشهادات (الصكوك).

صكوك الشركة الإسلامية للاستثمار والمنفذة بمعرفة الوكيل الإداري تُرسل إلى مصرف التحصيل لتسليمها إلى المستثمر بالاسم المحدد في طلب الشراء أو تُحفظ لدى مصرف التحصيل.

٤ ـ التحويلات من مصارف التحصيل.

سيزود مصرف التحصيل بتعليمات غير قابلة للإلغاء بالتوقيع

المعتمد لمراقب حسابات الاستثمار تفيد المبالغ المحصلة في الحساب المغلق للمضارب على النحو التالي فقط:

أ ـ للحساب العام للشركة في مصرف التحصيل، وذٰلك لخصم مبالغ متساوية للنسبة المئوية المقررة عن عمولة إصدار الصكوك المستحقة لمصارف التوزيع إذا لم تكن قد احتُجزت بمعرفة هٰذه المصارف.

ب ـ يُحول الباقي لحساب الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي لدى مصرف التحصيل بصفتها مضارب.

هٰذا الحساب العام سوف يُستخدم من قبل الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي في سداد قيمة عمولات الإصدار التي قد تُستحَق لمصارف التوزيع.

٥ ـ التحويلات التي تجري من حساب الشركة الإسلامية للاستثمار (المضارب) بمعرفة مصرف التحصيل، مصرف التحصيل لديه تعليمات مكتوبة غير قابلة للإلغاء بأن يحول أسبوعيّاً أي رصيد دائن في حساب المضارب الخاص بالشركة الإسلامية للاستثمار في عملية الإصدار الأول إلى حساب آخر يحمل نفس الاسم في مصرف أوروبي معين يقوم بعمل الوكيل الإداري، وغير مسموح بإجراء أي تحويل آخر من مصرف التحصيل.

٦ ـ حساب الشركة الإسلامية للاستثمار (المضارب) في المصرف الأوروبي.

سوف يُفتح حساب لصندوق الشركة الإسلامية للاستثمار لدى

الوكيل الإداري، وذٰلك لتجميع كل المبالغ النقدية باعتباره مركز لإدارة نقود الصندوق وذٰلك في مواجهة تلك التي تُستثمر، وسوف يُفتح هٰذا الحساب بموجب خطاب تعليمات لا يمكن تعديله إلا بتوقيعين معتمدين: لمراقب حسابات الاستثمار يحدد فيه كيفية التحويلات النقدية التي تجري للمصارف الاستثمارية، وللسماسرة المعينين في هٰذا الحساب باسم الوكيل الإداري، ولٰكن لحساب شركة المضاربة ولمدفوعات للغير عن المصروفات الخاصة بشركة المضاربة أو لسداد المصاريف أو أرباح المشاركة في الشركة تتطلب موافقة مسبقة من مراقب حسابات الشركة.

ب ــ استثمار الشركة الإسلامية للاستثمار للأموال:

١ ــ الحسابات الاستثمارية.

ستُفتح حسابات مع المصارف الاستثمارية والسماسرة المشتركين باسم الوكيل الإداري، وستحدد التعليمات الخاصة بهٰذا الحساب أن المبالغ المودعة فيه خاضعة لأوامر استثمار معطاة من اثنين مفوضين بالتوقيع من المكتب الأساسي الأوروبي للشركة، وأنه لا يجوز إجراء تحويلات المبالغ النقدية أو الأصول إلا بإضافتها لحساب الشركة الإسلامية للاستثمار المضارب لدى الوكيل الإداري، وهٰذه التعليمات غير قابلة للإلغاء؛ إلا بتوقيع مراقب حسابات الاستثمار.

٢ ــ إجراءات التجارة.

إن المكتب الأساسي الأوروبي للشركة الإسلامية للاستثمار والوكيل الإداري سوف يكون في دفاترهم حساباً مستقلاً يمثل مجموع

المبالغ المحولة إلى الشركة الإسلامية للاستثمار حساب (صندوق الاستثمار) المضارب لدى الوكيل الإداري، وذلك عن جميع الاستثمارات التي تمت في نسب مضمونة من صكوك الشركة الإسلامية للاستثمار ـ الإصدار الأول، بالإضافة إلى حساب مستقل خاص بنسبة سندات الأمانة، وكل مصرف استثماري مشارك أو سمسار سوف يمسك حسابان داخليان متطابقان.

وسوف يتم الاتفاق بين المكتب الرئيسي الأوروبي للشركة الإسلامية للاستثمار وبين باقي المصارف الاستثمارية والسماسرة المشتركين على نماذج معينة تضمن وحدة الحسابات بينهم جميعاً، وذلك قبل بدء العمليات، ولن يُسمح بالاستثمار إلا عندما تتأكد الشركة الإسلامية للاستثمار من هيئة الرقابة الشرعية كتابةً أن هذا الاستثمار من نوعيات مقبولة شرعاً.

ولما كانت إشعارات الإضافة من الوكيل الإداري سوف يتسلمها المكتب الرئيسي الأوروبي، ويصدر بشأنها تعليمات للوكيل الإداري لتحويل مبالغ معينة إلى سماسرة مشاركين معينين أو مصارف استثمارية، كما سيقوم المكتب الأوروبي الرئيس بإصدار التعليمات التجارية اللازمة إليهم بواسطة التلكس، فضلاً عن صورة بالتلكس للوكيل الإداري، وعلى السماسرة المشاركين والمصارف الاستثمارية أن ترسل بواسطة البريد تأكيداً يوميّاً لكل ما تقوم به من أعمال إلى كل من المكتب الرئيسي الأوروبي والوكيل الإداري على أسس ربع سنوية، ستجمع كل محفظة في محفظة أخرى عامة مقسمة إلى حسابين فرعيين يمثلان الأصول الخاصة بالصندوق الخاص بحملة صكوك الشركة الإسلامية

للاستثمار الخاصة بذات الإصدار وتاريخ الاستحقاق، وسوف تُجري نفس التقييم طبقاً للمبادىء التي يتم إيضاحها فيما بعد بخصوص التقييم على أسس محاسبية بمعرفة أحد المراجعين القانونيين بمكتب مراقب حسابات الاستثمار.

ج ـ سداد استحقاقات الصكوك وتوزيع الأموال.

جميع الاستثمارات سيتم تصفيتها نقداً في تاريخ الاستحقاق بعد تقديم الحسابات الخاصة بكيفية حساب سعر السداد بما في ذٰلك حساب المصروفات، وكذٰلك تحديد أنصبة المشاركة في الأرباح الواجبة الدفع للشركة والتي يكون مراقب حسابات الاستثمار والوكيل الإداري قد وافق عليها؛ فإنه سوف يتم تحويل حصيلة جميع مستحقات الصكوك لحساب المضاربة الخاص بالشركة الإسلامية للاستثمار لدى المصارف المعينة للعمل كمصارف معتمدة للسداد، أو تحفظ بمثل هٰذه المبالغ لصالح المصارف المعتمدة للسداد.

الوكيل الإداري سوف يصدر تعليمات يطلب فيها من مصرف الدفع بأن يدفع المبالغ المستحقة لحامل صكوك الشركة الإسلامية للاستثمار في تاريخ استحقاقها بالقيمة المحسوبة والمحددة في هٰذا الخطاب، وقبل السداد سيقوم مصرف الدفع بالتحقق من كل صك من صكوك الشركة تقدم إليه للتأكد من جديتها وسلامتها، وذٰلك بمضاهاتها على صورة من سجل الإصدار الذي سيقدمه الوكيل الإداري.

وسيقوم مصرف الدفع بإلغاء هٰذه الشهادة من سجلات الإصدار، كما سيقوم هٰذا المصرف بإرسال كافة التقارير الأسبوعية المثبت فيها

الدفع وكذلك الإلغاءات إلى الوكيل الإداري مصحوبة بالصكوك الملغاة.

ويقوم الوكيل الإداري بمراجعة هذه التقارير على الشهادات أو الصكوك الملغاة الخاصة بالشركة الإسلامية للاستثمار ويجري القيد بإلغائها كذلك في سجلات الإصدار.

تعليق:

أولاً: قد يقال: إن في هذه الإجراءات الإدارية والعملية تمكيناً للبنك من استثمار الأموال المتجمعة من أثمان الصكوك، وقد يستعملها في عمل ربوي أو ينتفع من ورائها فيه بأي وجه من الوجوه، وفي ذلك تعاون على الإثم والعدوان، وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿**ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾.

وقد أجاب عن ذلك الدكتور إبراهيم كامل بقوله: المبلغ المرسل للبنك الأوروبي يستثمر من قبل شركة المضاربة فوراً، ولا يبقى في البنك زمناً يستفيد منه البنك من ورائه، ولا يدفع للبنك إلا أجرة عن تحويل المال فقط.

ثانياً: قد يقال: إذا كان القصد مما ذُكر من الإجراءات الاستيثاق والتحقق من صحة الحساب وضمان السلامة من الخطأ أو الخيانة ليطمئن حملة الصكوك أرباب رؤوس أموال المضاربات على حقوقهم؛ فمن الممكن أن يؤلف جهاز من الخبراء الموثوق بهم من المسلمين ليقوم بهذه المهمة بديلاً عن الوكيل الإداري (أي: المصرف الأوروبي)؛ دفعاً للريبة، وضماناً تامّاً للسلامة من الربا.

جاء في صفحة (٣) من شروط شركة المضاربة سطر (١) ما نصه:

أ ـ سوف تتحمل شركة المضاربة مصاريفها الفعلية الخاصة بها تحت إشراف وموافقة مراقب الاستثمار، وهٰذه المصاريف تشمل المصاريف الإدارية العامة أو المباشرة للمصاريف التي يجوز تحميلها لشركة المضاربة وتكاليف توزيع الصكوك المضاربة أو تكاليف إدارة أموال شركة المضاربة، والقيام بالسداد للمشتركين في شركة المضاربة طبقاً لشروط المضاربة على أن لا تتجاوز كل هٰذه المصروفات (٣) دولارات أمريكية لكل مئة دولار في كل من السنتين الأولى والثانية، (٢) دولار أمريكي في كل من السنوات من الثالثة إلى العاشرة، ودولار أمريكي واحد في كل من السنوات من الحادية عشرة إلى العشرين، فإن زادت في نهاية المضاربة في جملتها عن ذٰلك؛ تحمل المضارب قيمة المصاريف الزائدة عما ذكر خصماً من نصيبه من الأرباح. انتهى.

في هٰذا نظر؛ إذ إن الدولارات المخصومة مقابل تلك الأعمال هي زائدة عما يستحقه المضارب من الربح، سواء كان من جهة رب المال أو العامل، والمعروف أن ما ينفقه العامل أو الشركة المضاربة يكون من رأس الربح قبل القسمة، قلت المصارف أو كثرت ما دام أنها صرفت لأجل تنمية المال، والتحديد بمقدار معين من أعمال الشركة المضاربة، واختلاف هٰذا المقدار باختلاف السنين يحتاج إلى نظر وكلام العلماء معروف في هٰذا.

وقولهم: فإن زادت في نهاية المضاربة في جملتها (أي: بعد العشرين) عن ذٰلك؛ تحمل المضارب قيمة المصاريف الزائدة عما ذكر

خصماً من نصيبه في الأرباح.

وفي هٰذا نظر، حيث خصص ذٰلـك من نصيب المضـارب دون الطرف الثاني، والمعروف أن الربح بين العامل والمالك والخسارة من الربح بين الجميع، لا يختص به أحد الطرفين عن الآخر ما دام أنها لم تقسم.

وأجـاب عن ذٰلـك الدكتور إبراهيم كامل بما يأتي: نود أن نركز الأنـظار على أن المصـاريف المذكورة في هٰذه الفترة هي المصاريف الفعلية، وأن الحد الأقصى قد تم تحديده بهٰذه الصورة للأسباب الآتية:

١ ــ الاستثمـارات الـطويلة الأجـل في المشـروعـات العقارية والزراعية والصناعية تحتاج في سنواتها الأولى إلى مصاريف مرتفعة، وفي السنوات التالية تقل المصاريف تدريجياً لتنحصر في الإدارة العادية للمشروع.

٢ ــ حسب القوانين المحاسبية المعترف بها دوليّاً؛ فإن مراقبي الحسـابات يلتزمون بتحديد حد أقصى من المصاريف حتى لا يحمل الجمهور بمصاريف مبالغ فيها.

٣ ــ إن الشركة الإسلامية للاستثمار تقوم بدور الداعية للاقتصاد الإسلامي في خمسة عشر دولة، وتتحمل نظير ذٰلك من رأس مالها (رأس مال شركـة المسـاهمـة المقـامـة في دولـة الإمارات) تكاليف الدعاية والإعلان والدراسات... إلخ، وقد رأينا أن نطمئن الجمهور بأن هٰذه المصاريف لن تحمل لحساب المضاربات التي يشتركون فيها.

أمـا الشق الثـاني من السؤال؛ فإن زادت المصاريف عن الحد

الأقصى المحدد لها عند تصفية المضاربة في السنة العشرين قد يرجع سبب هٰذه الزيادة إلى صعوبة التقييم الحقيقي الدقيق لممتلكات شركة المضاربة؛ من عقار أو مشروعات صناعية أو زراعية، والتي تقوم بصورة تقريبية دفترياً كل عام؛ فيحق في هٰذه الحالة لمراقب الاستثمارات أن يعدل مجمل المصاريف خلال مدة المضاربة ليتأكد من تحمل المضاربة لمصاريف إدارتها.

أ ــ إذا قلت المصاريف عن الحد الأقصى المربوط في الصك؛ فلا غبار على ذٰلك.

ب ــ أما إذا زادت المصاريف؛ فقد وافق المضارب أن تُخصم هٰذه الزيادة من أرباحه المستحقة في السنة الأخيرة؛ حيث إنه قد تم تعويضه في السنوات السابقة عن مصاريفه بقدر أكبر من الحد الأقصى المذكور، ويهدف ذٰلك إلى إعطائه الطمأنينة لأرباب الأموال حملة الصكوك من جمهور المسلمين؛ لجذبهم للمؤسسات المالية الإسلامية، ورفع الربا عنهم.

وأجاب عن ذٰلك الدكتور إبراهيم كامل بما يأتي:

٥ ــ جاء في صفحة (٣) سطر (١٦) ما نصه:

ج ــ تجنب شركة المضاربة دفترياً ٥٪ من أموال المضاربة كاحتياطي لشركة المضاربة لمواجهة ما قد ينجم من الانسحاب المفاجىء لبعض المشتركين، وعلى أن يعاد استثمار هٰذا الاحتياطي لصالح شركة المضاربة. انتهى.

في هٰذا تأمل، حيث استأثرت الشركة بأرباح ٥٪ المقتطعة من

الكل لغرض الاحتياط، وهل لو اشترط العامل أو الشركة على أن يكون له ربح خاص لجزء من رأس المال كأن يقول العامل: ربح نصف العشر من رأس المال يكون لي ثم الباقي يوزع بين العامل أو الشركة أو بين رأس المال، مع ملاحظة أن الشركة اشترطت بأن تأخذ مبلغاً معيناً ثلاثة دولارات من كل مئة مقابل ما تقوم به من أعمال في السنة الأولى والثانية. . . إلى آخره كما سبق؟

٦ ــ جاء في صفحة (٤) مادة (٩): لا يجوز للمشترك الانسحاب من المضاربة في السنتين الأوليين من تاريخ الاشتراك الموضح بالصك.

في هٰذا نظر؛ أليست المضاربة عقداً جائزاً يجوز لكل منهما فسخها متى شاء؟

وقد رأى ثلاثة من اللجنة المؤلفة لدراسة النظام الأساسي للشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي وعقد التأسيس وشركات المضاربة جواز عقد المضاربة الثالثة، وفيما يلي النص التفصيلي لرأيهم:

قالوا: بعد تداول الرأي في المجتمعين لم يتضح لهم ما يقتضي بطلان عقد الشركة المذكورة؛ غير أنه استوقف نظرهم أمران:

أحدهما: كون الشركة تقبض حصتها من الربح بعد كل ثلاثة أشهر ولا تسمح للمساهم أن يقبض نصيبه من الربح إلا أن يفسخ العقد أو تنتهي مدته؛ إلا أنها تجعل حصته من الربح تابعة لرأس ماله مستقبلاً.

الأمر الثاني: موافقة الشركة على إعطاء ورثة من مات من المساهمين بقية الأقساط التي لم يدفعها من باب التكافل الإسلامي؛ إلا أنها لا تدفعها له من رأس مال الشركة، وإنما تدفعها له من الأرباح إن

وجدت، وبعد مناقشة الأمرين المذكورين، ومراجعة ما تيسر من كلام أهل العلم في باب المشاركة، وملاحظة أن كل أمر يعين المسلمين على السلامة من المعاملات الربوية ويقضي عليها؛ فإنه يجب على أهل الحل والعقد الأخذ به والتسهيل في إجراءاته؛ ما لم يتضح أن شيئاً من ذٰلك مخالف مخالفة واضحة للشرع المطهر، لأن الأصل في عقود المعاملات الحل والإباحة إلا ما حظره الشرع منها بالنص عليه ولا سيما عقود التبرع؛ فإنها أوسع في الحل من عقود المعاوضات كما صرح به أهل العلم رحمهم الله تعالى.

ولهٰذا رأى الحاضرون الموقعون أدناه أن كل واحد من الأمرين لا يقدح في صحة هٰذه الشركة؛ لأن الأول بمثابة تجديد عقد المشاركة، وأن الأمر الثاني مبني على أن المساهمين قد سمحوا بنصيبهم من الربح من باب التكافل المذكور، ومعلوم أن المشارك له أن يتبرع بربع حصته من الشركة فيما شاء من الأمور المشروعة أو المباحة.

والله ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١ ـ محمد بن إبراهيم بن جبير

٢ ـ راشد بن صالح بن خنين

٣ ـ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

وقد خالف في ذٰلك عضو هٰذه اللجنة فضيلة الشيخ عبد الله بن سليمان المنيع، وفيما يلي تفصيل رأيه بنصه؛ قال:

جرى مني دراسة عقد تأسيس الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي، ونظامها الداخلي، والقواعد والأسس التي تسير عليها في

مضـاربـاتهـا، كمـا جرى استعراض المذكرة التفسيرية التي تقدم بها الدكتور إبراهيم كامل، وقد ظهر لي من ذٰلك ما يلي:

أولاً: عقد تأسيس الشركة ونظامها.

بدراستي لعقد تأسيس الشركة ونظامها الداخلي لم يظهر لي ما يوجب الاعتراض عليها من الناحية الشرعية، لا سيما إذا حُمل الإطلاق في بعض موادها إلى القيد العام الصريح بأن تكون متفقة ومتمشية مع القـواعـد والأصـول الشـرعية، وإذا كان لي عليها بعض الملاحظات الهامشية؛ فهي تنحصر في التكرار، وفي الصياغة، وعدم مراعاة الدقة في مدلول بعض المواد.

ثانياً: طريقتها في المضاربة.

أتاحت الشركة لمن يريد التعامل معها بطريق المضاربة الدخول معها في مضاربات متفاوتة الزمن؛ فلديها المضاربة لسنة أو ثلاث سنوات وخمس سنـوات وعشـرين سنـة وخمسين سنـة، والباب مفتوح لإيجاد مضاربات لمدد أخرى إذا وجد المقتضى لذٰلك؛ سواء كان رب المال فرداً، أو مؤسسة مالية، أو حكومية من الحكومات القائمة.

وقد جاء في شروطها وقواعد قيامها أن المحاسبة تتم بعد كل ثلاثة أشهر وأن للشركة المضاربة عُشر الربح، جاء النص على اقتطاعه في شركة المضاربة الثالثة وإعادة المضاربة ومعها نصيب من رأس المال من الربح حتى انتهاء المضاربة أو رغبة رب المال في سحب ماله منها.

والملاحظة على هٰذه الطريقة تتضح فيما يلي:

١ ــ أخذ الشركة المضاربة نصيبها من الربح بعد كل ثلاثة أشهر

خلال المدة المضاربة، وعدم تمكين رب المال من أخذ نصيبه من الربح أسوة بها للثلاثة الأشهر نفسها؛ إلا أن يقرر رب المال انسحابه منها؛ فيأخذه مع رأس ماله.

٢ ــ بعد تنضيض شركة المضاربة وافتراض خسارتها لا تعيد الشركة ما سبق لها أخذه من الأرباح لكل ثلاثة أشهر من مدة المضاربة المحددة بسنة أو بثلاث سنوات أو خمس أو غير ذٰلك من المدد المتفق عليها.

ولا شك أن العلم اليقين بخسارة الشركة وربحها لا يتضح تنضيض الشركة، وأن المضاربة الخاسرة ليس للعامل من رأس المال شيء فيه ألبتة؛ فكيف يسوغ لها أن تأخذ ما لا يحق لها أخذه من أموال عباد الله؟!

ثالثاً: المضاربة الثالثة للاستثمار والادخار والتكافل.

يلاحظ على هٰذا النوع من التعامل وجود الجهالة فيما يأمل ورثة المتوفى أخذه من أقساط توفى مورثهم دون سدادها، وفيما يأمل رب المال أخذه من أرباح لماله المستثمر بعد انتهاء مدة المضاربة، يتضح ذٰلك فيما يلي:

أولاً: ليس هناك ذمة قائمة يتعلق بها حق الورثة في الأقساط الواجبة لهم بعد وفاة مورثهم، وإنما حقهم قائم في الأرباح المظنون وجودها، فإذا لم توجد أرباح؛ فلا حق لهم في المطالبة بتلك الأقساط المتبقية.

بهٰذا نستطيع القول: إن حقهم في تلك الأقساط ظني وإن التكافل

بهٰـذا لا تتوفر الثقة في اعتباره؛ ففيه إذن تقرير المتعاملين مع الشركة وجهـالـة فيما يأخذونه من أقساط؛ حيث يحتمل أن يأخذ الورثة كامل الأقساط، ويحتمل أن يأخذوا بعضها، ويحتمل ألا يجدوا شيئاً يأخذونه.

وليس هٰذا النوع من قبيل التأمين التعاوني أو التعادلي؛ لأن المبلغ المستحق لقاء التأمين في أي نوع من أنواعه مضمون على الجهة المؤمن لديها.

ثانيـاً: إن قواعـد التكـافـل مع المضاربة صريحة في أن مبالغ التكافل مقتطعة من أرباب المال، وهٰذا يعني أن رب المال بعد أن يعرف أن الشركة رابحة لا يضمن استلامه ربح ماله إلا بعد اقتطاع مستحقات التكافل من هٰذا الربح، وهٰذه المستحقات مجهولة قد تأتي على كل الربح؛ فلا يكون لرب المال غير رأس ماله بعد مدة المضاربة مع أن المضاربة رابحة حسب الافتراض.

ثم بين ما يجب أن تكون عليه المضاربة في نظره؛ فقال: الرأي في تصحيح المضاربة أن تلتزم الشركة المضاربة بما يلزم به رب المال، بحيث لا يسوغ لها أن تأخذ حصتها من أرباح المال إلا بعد انتهاء مدة المضاربة وتنضيض المال، أو رغبة أحد طرفي شركة المضاربة في إنهاء عقدها، فإذا ظهر للشركة بعد ذٰلك ربح؛ كان للشركة المضاربة الحق في أخـذ نصيبها منه، وأن يُمكن رب المال من أخذ نصيبه من الربح بعد كل ثلاثة أشهر أسوة بالشركة في ذٰلك.

الـرأي في تصحيح التكـافـل أن تقوم الشركة المضاربة بضمان الأقسـاط الواجب دفعها لورثة المتوفى بغض النظر عن ربح الشركة أو

خسارتها.

ودفعاً للاعتراض بأن ذٰلك مضر على الشركة المضاربة وقد يأتي على أموالها تقوم الشركة باقتطاع نسبة معينة من كامل ربح كل مضاربة، تكـون تلك النسبـة ملكاً لها وفي مقابل التزامها بدفع الأقساط الواجبة عليها، وبهٰذا تنتفي الجهالة فيما يأخذه رب المال من أرباح وفيما يأخذه ورثة المتوفى من أقساط واجبة.

هٰذا ما ظهر لي، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عضو هيئة كبار العلماء

عبد الله بن سليمان بن منيع

وكتب فضيلة الشيخ محمد خاطر كلمة تحت عنوان: «أثر الغرر في عقود التبرعات» هٰذا نصها:

مذهب المالكية: يقرر فقهاء المالكية قاعدة عامة بالنسبة للغرر في عقود التبرعات، وهي أن جميع عقود التبرعات لا يؤثر الغرر في صحتها.

وقـد قرر القـرافي ذٰلك في كتابه «الفروق» (ج ١، ص ١٥٠ - ١٥١) الفرق الرابع والعشرون، وسنجمل ما سجله القرافي فيما يلي:

لقد فصل مالك بين قاعدة ما يجتنب فيه الغرر والجهالة وقاعدة ما لا يجتنب فيه الغرر والجهالة، وانقسمت التصرفات عنه ثلاثة أقسام: طرفان، وواسطة.

فالـطرفـان: أحـدهما معاوضة صرفه؛ فيجتنب فيها ذٰلك إلا ما دعت الضرورة إليه عادة.

ثانيها ما هو إحسان صرف، لا يقصد به تنمية المال؛ كالصدقة والهبة، فإن هٰذه التصرفات إن قامت على من أحسن إليه بها لا ضرر عليه؛ لأنه لم يبذل شيئاً، بخلاف القسم الأول إذا فات بالغرر والجهالة؛ ضاع المال المبذول في مقابلته؛ فاقتضت حكمة الشرع وحثه على الإحسان التوسعة فيه بكل طريق بالمعلوم والمجهول، فإن ذٰلك أيسر لكثرة وقوعه قطعاً، وفي المنع من ذٰلك وسيلة إلى تقليله، فإذا وهب له بعيره الشارد جاز أن يجده؛ فيحصل له ما ينتفع به، ولا ضرر عليه إن لم يجده لأنه لم يبذل شيئاً.

وألحق مالك الخلع بهٰذا الطرف؛ لأن العصمة وإطلاقها ليست من باب ما يقصد للمعاوضة، بل شأن الطلاق أن يكون بغير شيء؛ فهو كالهبة، ثم إن الأحاديث لم يرد فيها ما يعم هٰذه الأقسام، حتى تقول يلزم منه مخالفة نصوص صاحب الشرع، بل إنما وردت في البيع ونحوه.

وأما الواسطة بين الطرفين؛ فهو النكاح، وقد أجاز فيه المالكية. جاء في الشروط الأساسية لشركة المضاربة الإسلامية الثالثة ما نصه:

٢ ــ المشتركين في شركة المضاربة هٰذه يقتصرون على المسلمين المتزوجين الذين بلغوا سن العشرين ولم يبلغوا سن الأربعين في أول أكتوبر ١٩٧٩م. اهـ.

أجاب عن ذٰلك الدكتور إبراهيم كامل بما يأتي:

أما بالنسبة لشرط الزواج؛ فمرجعه إلى أمرين:

أ ــ استكمال حياة الرجل والمرأة الدينية والدنيوية بالزواج؛ فهو توجيه إسلامي.

ب ـ الزواج يعني المسؤوليات التي تؤثر على تصرفات الرجل، والإحصائيات تثبت ارتفاع الحوادث على أنواعها بالنسبة لغير المتزوج.

وأما بالنسبة لتحديد سن العشرين إلى الأربعين سنة للمشتركين؛ فأسباب ذٰلك:

أ ـ احتمالات الوفاة بالنسبة لهٰذه المرحلة من العمر حسب الإحصائيات متساوية.

ب ـ العدالة بين المشتركين في تحملهم المخاطر لتسديد نصيبهم في أموال التكافل.

ج ـ العدالة الاقتصادية حيث يتحمل كل جيل تبعات التكافل لإخوانه من نفس الجيل؛ علماً بأن التضخم الكائن بالاقتصاد العالمي ينتج عنه فوارق كبيرة بالنسبة لدخل كل جيل إذا قورن بالجيل الذي يسبقه.

سؤال: لماذا يخصم ٥٪ للاحتياطي ويحرم منها المنسحب من المضاربة الإسلامية الثالثة للاستثمار والادخار والتكافل بين المسلمين؟

جواب: يرجع ذٰلك إلى:

أ ـ استحالة تصفية أموال شركة المضاربة من العقارات أو عمليات التجارة كلما انسحب منها شخص؛ ففي هٰذه الحالة يتم حساب ما يستحق من أرباح أو خسائر لحامل الصك المنسحب حسب القيمة التقديرية (الدفترية) لهٰذه الممتلكات، ويخصم ٥٪ من هٰذه المبالغ احتياطيّاً لتغطية التقييم الدفتري سابق الذكر، وحتى لا يضر ذٰلك بأموال

باقي المشتركين في المضاربة.

ب ـ يشكل هٰذا الاحتياط الدفتري مصدراً لشركة المضاربة يمكنها من خلاله تغطية احتياطها الطارىء حيث يعاد استثمار هٰذا الاحتياطي لصالح كل المشتركين في المضاربة.

سؤال: جاء في شروط المضاربة لحامله لمدة سنة أو ثلاث أو خمس ما نصه:

مسؤولية حملة صكوك المضاربة محدودة بقدر مساهمة كل منهم في شركة المضاربة، وقد يقال: إن معنى كونها محدودة أن مسؤوليتها محصورة في رأس مالها الذي تكونت منه؛ فلا يحق لأحد دائن لشركة المضاربة أن يرجع على حملة صكوكها في أموالهم الشخصية لاستقلالها بصفتها الاعتبارية عنهم بصفتهم الشخصية، وفي ذٰلك إضاعة لحقوق دائنيها؛ فالواجب تعلق حقوق دائنيها بذمم حملة الصكوك ـ أرباب رؤوس أموال شركات المضاربة ـ حتى يرجع دائن أي شركة منها بحقه على أرباب رؤوس أموالها في أموالهم جميعها التي في الشركة وغيرها.

جواب: وقد يجاب عن ذٰلك بأن المستثمر لأموال أي مضاربة من مضارباتها لا يجوز له التصرف في الاستثمار إلا في حدود أموالها، وعلى ذٰلك؛ فلا يمكن أن تكون مدينة لأحد إلا بما يمكن سداده من مالها أصلاً وربحاً. هٰذا ما تيسرت كتابته في الموضوع مع المناقشة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

اللجنة

• ثالثاً: تقريرات عن بعض الكتب المطبوعة

١ ـ تقرير عن كتاب «الكافي» لابن عبد البر وعن التعليق عليه:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

فبناءً على ما أشار به سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد من الاطلاع على كتاب «الكافي» للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري رحمه الله، وكتابة تقرير عنه قرأت منه أبواب الطهارة والصلاة والحج وأبواباً من المعاملات وأبواباً من الجنايات ومسائل من المواريث؛ فوجدته كما يلي:

أولاً: سلك المؤلف في كتابه «الكافي» مذهب مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ، وجمع فيه من المسائل أصولاً يُبنى عليها كثير من الفروع، واستقى ذٰلك من كتب المالكيين ومذهب المدنيين، وتعهد في مقدمة كتابه أن يقتصر على الأصح علماً والأوثق نقلاً، وعول على كتاب «الموطأ» رواية يحيى بن يحيى، وكتاب «المدونة»، وكتاب «المختصر الكبير» لعبد الله بن عبد الحكم، وكتاب «المبسوط» للقاضي إسماعيل بن إسحاق البغدادي، وكتاب «الحاوي» لأبي الفرج القاضي، و«مختصر أبي مصعب» أحمد ابن أبي بكر الزهري، و«موطأ» عبد الله ابن وهب القرشي، وكتاب «الموازين» لابن المواز، وكتاب «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب.

ثانياً: التزم المؤلف طريقة المتقدمين في تأليفهم من عدم التكلف في التعبير؛ فكان كتابه سهل العبارة، قوي الأسلوب، حسن التنسيق

والترتيب، قريب المأخذ، يستفيد منه الطالب دون عناء.

ثالثاً: كثيراً ما يعبر المؤلف في كتابه «الكافي» عن المسألة بلفظ الحديث أو الأثر بما يقارب ذٰلك، وقد يستدل بالآيات والأحاديث والآثار أحياناً بعد ذكر المسائل، لٰكنه لا ينسب ذٰلك إلى ديوان من دواوين السنة ولا يبين درجته، وإنما يعنى ببيان وجه الاستدلال والترجيح، وأقرب الكتب شبهاً به في طريقته من حيث السهولة والاستدلال: كتاب «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني، وكتاب «المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات»، وكتاب «الكافي» لابن قدامة.

رابعاً: قام محقق هٰذا الكتاب بإصلاح الأخطاء الإملائية وبيان معاني المفردات الغامضة، وخرّج الأحاديث التي استدل بها المؤلف في كتابه «الكافي» وبين درجتها باختصار، معتمداً في ذٰلك غالباً على ما ذكره أبو البركات ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه «المنتقى» و «شرحه» للشوكاني، وعلى ما ذكره ابن حجر ـ رحمه الله ـ في كتابه «بلوغ المرام» وكتابه «التلخيص الحبير»، كما أنه بيَّن مواضع الآيات من سورها، وذكر نبذة من اختيارات المؤلف ليدل على أنه حرر المسائل ودققها وعقَّب عليها، وليس مجرد ناقل لها، وجمع هٰذه الاختيارات في الفصل الثامن من القسم الأول من رسالته ابتداءً من (ص ١٣٢) إلى (ص ١٤٨)، وترجم أصحاب الأعلام المذكورة في الكتاب، وعرف المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في جمع مسائل كتابه «الكافي»، والتي أشار إليها في مقدمة «الكافي» وفي خاتمته.

خامساً: ذكر محقق الكتاب أثناء التعريف بعمله فيه (ص ١٥٧)

أن أبا عمر أشار في مقدمة كتابة خاتمته إلى مصادره التي استقى منها كتابه، وذكر في تعليقه على كتاب «الكافي» (ص ١٧١ ـ ١٧٣) أن أبا عمر سيذكرها في الخاتمة بأسانيده إلى مؤلفيها، وبرجوعي إلى النسخة الأصلية الموريتانية التي اعتمد عليها محقق الكتاب؛ وجدت الإشارة إلى المصادر في مقدمة كتاب «الكافي»، ولٰكني لم أجد شيئاً يتعلق بهٰذه المصادر ولا بأسانيدها في خاتمتها، وإنما وجدت أسانيد المؤلف إلى هٰذه المصادر أو الدواوين بآخر صفحتين، ذكر المحقق أنهما من النسخة الفاسية التي كان يرجع أيضاً إلى ما وجده من صفحاتها.

سادساً: وجدت غلطات مطبعية كثيرة في النسخة المكتوبة على الآلة، وتفاوتاً يسيراً في حروف أو كلمات بينها وبين النسخة الأصلية المخطوطة، لٰكن يمكن تدارك ذٰلك عند الطبع بالرجوع إلى الأصل.

سابعاً: في الكتاب ثروة علمية مع سهولة تناولها والانتفاع بها، وقد خدم به المؤلف مذهب المالكية، وسهل على رواده معرفة أحكامه والانتفاع به، فلو طُبع؛ كان فيه إحياء للتراث العلمي ولذكرى المؤلف، وخدمة لطلاب العلم، وينبغي أن يُرجع عند الطبع إلى الأصل وإلى نسخة أخرى أو أكثر.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٢ ـ تقرير عن كتاب «العقيدة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة» لأبي الحسن الندوي:

سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الموقر. . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

قال ـ رحمه الله ـ: فبناءً على كتاب سماحتك في ١٤ / ١٢ / ١٤٠٣هـ الـذي تطلب فيه مراجعـة كتـاب «العقيدة والسلوك في ضوء الكتـاب والسنـة والسيرة النبـوية»، الـذي ألفه الأخ الكريم الشيخ أبو الحسن الندوي والإفادة عما أراه؛ بناءً على ذٰلك قرأت الكتاب، فوجدته سهل العبارة، نافعاً في الجملة؛ غير أن لي عليه مآخذ أجملها فيما يلي:

أولاً: إطراؤه الغزالي وإفراطه في الثناء عليه وعلى كتابه «إحياء علوم الدين»، ومعلوم أن هٰذا الكتاب ـ وإن كان فيه فوائد جمة ـ؛ فيه كثير من البدع والخرافات، والدعاية إلى التصوف، والتركيز على مبادئه، كما أن فيه التركيز على مذهب التفويض في توحيد الأسماء والصفات الخبرية، ودعوى أنه مذهب السلف، وشرح مذهب أهل التأويل باعتباره مذهب الخلف، واعتمـاده إياه بالنسبـة لطوائف قد لا تقنـع عقـولهم بالتفويض ـ كسائر الأشعرية ـ، والتزامه مذهب ابن كلاب في صفات الأفعال؛ كصفة الكلام، والرضى، والحب، والغضب، والسخط... إلخ.

ولا يخفى أن في إطرائه بالثناء عليه وعلى هٰذا الكتاب إغراء بقراءة مؤلفاته عامة وكتابه «إحياء علوم الدين» خاصة، وقراءة مختصراته مع ما فيها جميعاً من الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة التي لا يدرك حالها إلا العلماء. انظر: (ص ٥ ـ ٧) من الكتاب.

ثانياً: إطراؤه الشيخ عبد القادر الجيلاني والإفراط في الثناء على كتبه وطريقته (ص ٨ ـ ١٠)، والشيخ عبد القادر ـ وإن كان في رأيه في استواء الله على عرشه ونحوه من صفات الله سديداً ـ لا يلزم أن يكون

رأيه في سائر ما يراه في الدين سديداً؛ فقد عرف عنه أنه قال: «قدمي هٰذه على رقبة كل ولي لله»، وروي عنه ذٰلك من طرق عدة، وتأوله له من يحسن الظن به! من ذٰلك ما ذكره الشيخ أبو حفص السهروردي في «عوارفه»؛ أنه من شطحات الشيوخ التي لا يُقتدى بهم فيها، ولا يُقدح في مقاماتهم ولا في منازلهم؛ فكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وقد قيل: إن أبا الفرج ابن الجوزي صنف كتاباً ينقم فيه على الشيخ عبد القادر أشياء كثيرة.

انظر: ترجمته (ص ٢٩٠ ـ ٢٩٩) من كتاب «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب.

فإذا كان هٰذا حاله؛ ففي الإفراط في الثناء عليه تغرير بالناس وحث لهم على التزام طريقته وقراءة كتبه، وأكثر الناس لا يميز بين الحق والباطل، والسنة والبدعة؛ فيقع بذٰلك فيما لا تحمد عقباه.

وكذا الحال في إطرائه الشيخ محمد بن أبي بكر السمرقندي وكتابه «شرعة الإسلام إلى دار السلام» (ص ١٢).

ثالثاً: عدم الدقة في نقل الأحاديث والآثار والقصور في الحكم عليها.

انظر: (ص ٢٨، ٤٠، ٦٢، ١٠٩، ١١٢، ١١٤، ١١٨، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٣١، ١٣٥، ١٥١، ١٦٥، ١٩٢).

رابعاً: خطأ في العقيدة وفي الأحكام، وتساهل في الحكم على بعض العلماء بأنه سلفي أو من أهل السنة والجماعة (ص ١٣، ١٥، ٤٥، ٧٥، ٧٧، ٢٠٣، ٢١٧).

خامساً: ضعف في التعبير أحياناً (ص ٨، ١١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٦٣، ٧٢، ٩١، ٩٣، ١٠٢، ١٠٤، ١٢٠).

وأخيراً أرى أن غير هٰذا الكتاب مما هو أنفع للناس أولى بالشراء منه؛ تيسيراً لحصول الناس عليه ونشره بين الجمهور.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٣ ـ تقرير عن ثلاثة كتب:

سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ رعاه الله ـ:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبناءً على كتاب سماحتكم (رقم ١٤٦٤ / ١ / ك) في ٦ / ٨ / ١٤٠٣هـ حول طلبك مراجعة الكتب الثلاثة الأولى المشفوعة بالمعاملة (رقم ٩٦٥ / ٥)، وتاريخ ٢٧ / ٧ / ١٤٠٣هـ الواردة إليكم من مراقبة الكتب، وهي: كتاب «الزهد» للحافظ أبي بكر أحمد الشيباني المتوفى سنة ٣٨٧هـ، و«مسانيد أمهات المؤمنين» لجلال الدين السيوطي، و«غزوات النبي ﷺ في ضوء القرآن والحديث» للدكتور محمد غوث الندوي، وطلبكم الإفادة عن رأيي فيها، بناءً على ذٰلك راجعت هٰذه الكتب؛ فوجدتها كما يلي:

أولاً: كتاب «الزهد».

أ ـ ذكر مؤلفه أحاديث بأسانيدها في الدنيا والزهد فيها وفي الصمت وحفظ اللسان والعزلة، وقام بنشره الشيخ مختار أحمد الندوي، وحققه الدكتور عبد العلي بن عبد الحميد، وخرّج أحاديثه، وترجم لأكثر

رجال أسانيده، وبيَّن درجة الأحاديث نقلاً عن العراقي، والمنذري في «الترغيب والترهيب»[1]، والهيثمي في «مجمع الزوائد»، والسخاوي، والعجلوني، وشيخه الشيخ محمد ناصر الألباني.

ب ـ الطباعة جيدة ومعتنى بها، وقَل أن يوجد فيها خطأ مطبعي أو سقوط كلمة؛ مثل ما جاء في التعليق (ص ٦١٥): «فأقبل نضر» ـ بالضاد ـ، والصواب: نفر ـ بالفاء ـ، ومثل ما جاء في الحديث: «وككنكم غثاء السيل»، والصواب: «ولٰكنكم غثاء كغثاء السيل».

ج ـ الكتاب يشتمل على أحاديث صحيحة وأخرى ضعيفة، وقد كشف المحقق عن أكثر ذٰلك بترجمته للرواة وبيان درجة الحديث؛ فجزاه الله خيراً.

د ـ الكتاب نافع ويصلح مرجعاً في موضوعه للوعاظ وغيرهم.

ثانياً: «مسانيد أمهات المؤمنين».

أ ـ هٰذا الكتاب فيه ما ذكره فضيلة مدير إدارة مراقبة الكتب؛ من إسقاط جمل في مواضع عدة، ومن قصص خرافية وبدع محدثة منقولة عن عبد القادر الشاذلي والشعراوي ونحوهما من المبتدعة.

ب ـ كما فيه الحث على اعتقاد التفويض في أسماء الله تعالى وصفاته، أو تأويلها (ص ٢٥)، ولم يذكر مؤلفه من الأسانيد سوى الصحابية، ولم يستدرك ذٰلك المحقق ولم يخرج الأحاديث.

ج ـ فيه عجمة في التعبير، وضعف في تراكيبه، وأخطاء نحوية

---

(١) في الأصل: «الترغيب والتوحيد»، ولعله خطأ مطبعي.

وإملائية ومطبعية كثيرة، يتبين ذلك لمن راجع ما تحته خط[1] في كثير من صفحاته.

د ــ أخيراً أرى أن هذا الكتاب غير صالح لنشره بين طلبة العلم فضلاً عن العامة لما تقدم بيانه؛ محافظةً على سلامة العقيدة، وبعداً عن مصادر البدع والخرافات، وفي غيره من الكتب المؤلفة في الموضوع ما يغني عنه مع السلامة من آفاته.

ثالثاً: «غزوات النبي ﷺ في ضوء القرآن والأحاديث».

أ ــ هذا الكتاب اختصره مؤلفه اختصاراً يكاد يذهب بالفائدة المنشودة من قراءته، وليس فيه دقة في التعبير ولا تحرير للمطلوب، ولم يخرج ما فيه من الأحاديث.

ب ــ في عبارته عجمة وضعف في التراكيب والأساليب، وكثير من الأخطاء النحوية والمطبعية والإملائية، وفي ذلك ما فيه من التأثير على قارئه.

ج ــ أرى ألا يُساعد على نشر هذا الكتاب، ولا يُوجه أحد من الطلبة إلى قراءته.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٤ ـ تقرير عن كتاب «الدعاء المستجاب» لأحمد عبد الجواد:

سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الموقر:

---

(١) من نسخة الشيخ رحمه الله.

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبناءً على طلب سماحتك شفويّاً يوم الثلاثاء الموافق ٢٧ / ٥ / ١٤٠٤هـ قراءة كتاب «الدعاء المستجاب» جمع وترتيب أحمد عبد الجواد؛ قرأت هٰذا الكتاب، فوجدته كما يلي:

أولاً: أنه اشتمل على كثير من الأحاديث الضعيفة وبعض أحاديث موضوعة، وقد بينت ذٰلك بعلامة في الصفحات التالية[1]: (١١، ١٤، ١٨، ٢٤ ـ ٣٠، ٣٩، ٤١، ٤٥، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٢، ١٧١، ١٧٥، ١٨٠).

ثانياً: جعل المؤلف سبعة أوراد تبدأ من (ص ١٢١) وتنتهي في (ص ١٩٧)، لكل يوم من أيام الأسبوع ورد، يبدأ كل ورد منها بقراءة سورة الفاتحة مرة وقراءة الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ثلاث مرات، ثم الصلاة على النبي ﷺ عشر مرات، ثم يقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب؛ ثلاث مرات، ويختم كل ورد بآيات وببعض آيات معينة، ويكرر ذٰلك في كل ورد بدءً وختماً، مع تكرار بعضها ثلاث مرات أو سبع مرات، وبين ما بدأ به وما ختم به أذكار وأحاديث كثيرة منها ضعيف، وهٰذا من البدع المحدثة.

ثالثاً: ليس عند المؤلف دقة في التعبير، انظر: المقدمة (ص ٣).

وأخيراً أرى ألا يُشترى منه للمستودع ولا غيره، وألا يُساعد على نشره؛ صيانة للناس من البدع ومن التعبد بالأحاديث الضعيفة

---

(١) من نسخة الشيخ رحمه الله.

والموضوعة، وفيما سواه من الكتب السليمة من ذٰلك غنىً للمسلمين.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٥ ـ تقرير عن كتاب «مختصر تفسير ابن جرير»:

قال ـ رحمه الله ـ: فضيلة نائب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد رعاه الله:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبناءً على كتابك (رقم **٥٣٩ / ١١**) في **١١ / ٧ / ١٤٠٣هـ**، المعطوف على كتاب سماحة الرئيس العام (رقم **٢٢٧١**) في **٢٢ / ٥ / ١٤٠٣هـ**؛ راجعت «مختصر تفسير ابن جرير الطبري» للقرآن الكريم، فوجدته كما يلي:

١ ـ ليس دقيقاً في التعبير عما فهمه واختصره من «تفسير ابن جرير»؛ كما في تفسير الرحمة بالرقة في ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم**﴾، وقد يقتصر على بعض المعنى المطلوب؛ كما في سورة الفاتحة.

٢ ـ لم يستوعب تفسير الكلمات الغريبة، بل اكتفى بتفسير جملة من الكلمات.

٣ ـ قد يخطىء في اختياره:

كقوله في قصة زينب بنت جحش: كان رسول الله ﷺ قد رأى زينب بنت جحش زوجة زيد، فأعجبته، فأوقع الله في نفس زيد كراهتها، فأراد فراقها، فذكر ذٰلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ له: «أمسك

عليك زوجك، واتق الله»، وهو في ذلك يحب أن تكون قد بانت منه لينكحهـا، ويخشى النـاس أن يقـولوا: أمر رجلاً أن يطلق امرأته، ثم نكحها حين طلقها، ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾: حاجة منها، وهي الوطء، ﴿لكيلا﴾: لئلا. ﴿حرج﴾: إثم. . .

وكقوله في تفسير سورة النجم: ﴿ذو مرة﴾: ذو منظر حسن أو ذو قوة. ﴿فاستوى﴾؛ أي: ارتفع واعتدل، ومعنى الكلام: فاستوى جبريل ومحمد عليهما السلام وهو بالأفق الأعلى.

وكقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾: قيل: علا عليها.

٤ ــ وضع الكلمات القرآنية في الهامش على شكل مربع بالرسم الإملائي، وقد حافظ على رسمها العثماني في المصحف.

وعلى كل حال؛ لا يمتاز في تفسير الكلمات عن غيره؛ فالجميع فيه مآخذ.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وأرى أن يُكتفى بشراء مصاحف مجردة من التفسير وتُوزع على الفنادق.

٦ ـ تقرير عن كتاب «حكم القراءة على الأموات»:

سمـاحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الموقر:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبناءً على كتاب فضيلتكم إليَّ بتاريخ ٢٨ /٤/ ١٤٠٣هـ بشأن

فراءة الرسالة المرفقة لكتابك «حكم قراءة القرآن للأموات» وإفادتكم؛ أفيد سماحتكم أني قرأت هٰذه الرسالة ومقدمتها، ولم أجد فيها ما يخالف الشرع؛ غير أن مقدمة الطبعة الرابعة التي كتبها الأخ عبد العزيز الجهني فيها ضعف في التعبير، وتخلخل في الربط بين التراكيب، وهٰذا عيب لا ترد الرسالة من أجله.

ثم هو لم يبعه على المستودع، ولا اشترى للمستودع كما يتبين ذٰلك من الأوراق المشفوعة به، وإنما جعل عند فضيلة مدير المستودع ليوزعه على من طلبه، وذٰلك بغير الطريقة التي رسمت للتوزيع من المستودع؛ لأنه لم يدخل فيه رسميّاً، وليس الحال كما ذكره الأخ المكرم محمود الإستانبولي، وإن كان للأخ الشيخ محمود حق في منعه من طبع هٰذه الرسالة؛ فليمنعه عن طريق الجهات الرسمية، لا عن طريق هٰذه الرئاسة المعاقبة، هٰذا...

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٧ ـ تقرير عن كتاب «الاعتقاد» للبيهقي:

سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الموقر:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبناءً على كتاب سماحتك (رقم ...) في .. / .. / ١٤٠٤هـ الذي تطلب فيه تقريراً عن كتاب «الاعتقاد» للبيهقي؛ قرأت الكتاب، فوجدته موافقاً للسلف في مواضع كثيرة، ومخالفاً لهم في مواضع أخرى،

وسأجعل فيما يلي ما يؤخذ عليه مما خالف فيه السلف في العقيدة:

١ ــ يصف الله وأسماءه بالقدم، ويسميه القديم؛ كما يتبين مما تحته خط في الصفحات[1] التالية: (٦، ٢٠، ٢٢، ٣٧، ٦٠، ٦١).

٢ ــ استدل على حدوث الكونيات بأنها محل للحوادث كسائر الأشعرية؛ فلزمهم بذٰلك نفي قيام الصفات الفعلية بالله، والتزموا تأويل النصوص المثبتة لصفات الأفعال بما يسمونه قديماً؛ كما تبين ذٰلك بالرجوع إلى ما تحته خط في (ص ٧).

٣ ــ تأويل اسم الرحمٰن بالمريد لرزق كل حي في الدنيا، واسمه الرحيم بالمريد لإكرام المؤمنين في الجنة، وقال: فيرجع معناهما إلى صفة الإرادة التي هي صفة قائمة بذاته تعالى. ويعني بالإرادة الإرادة الكونية الأزلية، لا الإرادة الدينية التي بمعنى المحبة، يتبين ذٰلك مما تحته خط من (ص ١٥ ـ ١٩).

أيضاً فسر الإلهية بالقدرة على اختراع الأعيان.

٤ ــ ذهب في صفة الكلام إلى مذهب الكلابية كسائر الأشعرية؛ فجعلها صفة نفسية ذاتية قديمة قائمة بذات الله تعالى، ورد صفة الحكم المفهومة من اسم الله الحَكم، وقال: وقد يكون بمعنى حكمه لواحد بالنعمة والآخر بالمحنة؛ فيكون من صفات فعله.

وقال مثل ذٰلك في اسم الله الشكور وفي اسمه العدل، يتبين ذٰلك مما تحته خط من (ص ١٦).

---

(١) الصفحات المشار إليها هي في طبعة حديث أكاديمي التي وزعتها إدارة البحوث العلمية والإفتاء.

٥ ـ فسر اسم الله العليّ بالعالي القاهر، وبالذي علا وجل عن أن يلحقه صفات الخلق، وقال: هٰذه صفة يستحقها بذاته.

وتأول محبة الله عباده بإرادته رحمتهم وبمدحهم؛ قال: فيرجع معناه إلى صفة الإرادة والكلام، بمعنى الإرادة الكونية والكلام النفسي. وقال: وقد يكون بمعنى إنعامه عليهم؛ فيكون من صفات الأفعال كما تقدم بيانه. يتبين ذٰلك مما تحته خط من (ص ١٧ ـ ١٩).

٦ ـ قال في اسم الله المتعالي: هو المنزه عن صفات الخلق، وهٰذه صفة يستحقها بذاته، وقد يكون العالي فوق خلقه بالقهر. اهـ. وهٰذا فرار من إثبات علو الله على خلقه بذاته (ص ١٧ ـ ١٩).

٧ ـ بعد أن فسر أسماء الله الحسنى، وذكر ما رآه فيها من احتمال ووجوه؛ قال: وهٰذه الوجوه التي في معانيها كلها صحيح، وربنا جلّ جلاله وتقدست أسماؤه متصف بجميع ذٰلك؛ فله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا شبيه له في خلقه، ولا شريك له في ملكه، وليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. اهـ. (ص ٢١).

٨ ـ قال في (ص ٢١) أيضاً: فلله عز اسمه أسماء وصفات، وأسماؤه وصفاته أوصافية. اهـ. فجعل أسماءه صفاته، ومعلوم أن الاسم يتضمن الصفة، وأنها بعض مفهومه لا أنه الصفة.

٩ ـ في (ص ٢١ ـ ٢٢) قسم صفات الله قسمين: صفات ذات، وصفات أفعال، وقسم صفات الذات قسمين:

عقلياً: وهو ما كان طريق إثباته أدلة العقل مع ورود السمع به، فإذا دل وصف الواصف به على الذات؛ فالاسم عين المسمى؛ مثل:

شيء، ذات، موجود، جليل، عزيز، عظيم، متكبر. . . وإن دل وصف الواصف به على صفات زائدة على ذاته قائمة به؛ مثل: حي، عليم، قادر، سميع، بصير، متكلم. . . فالاسم في هٰذا لا يقال: إنه هو المسمى، ولا إنه غير المسمى.

وأما السمعي؛ فما كان طريق إثباته السمع فقط؛ كالوجه، واليدين، والعين. . . وهٰذه أيضاً صفات قائمة بذاته، لا يقال فيها: إنها هي المسمى ولا غير المسمى، ولا يجوز تكييفها؛ فالوجه صفة وليست بصورة، واليدان له صفتان وليستا الجارحتين، والعين له صفة وليست بحدقة. . . إلى آخر ما ذكره في (ص ٢٢ ـ ٢٤).

ولا يخفى ما في هٰذا من المخالفة للسلف أهل السنة والجماعة؛ إذ فيه نفي تفصيلي، والسلف على خلافه، وإنما يمنعون الخوض في الكيف ويقولون: إنه مجهول، أو: غير معلوم؛ فيفوضون علمه إلى الله تعالى، كما يمنعون عموماً الخوض فيما لم يخوضوا فيه نفياً وإثباتاً.

١٠ ـ قال في صفات المعاني السبعة: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام: إنها زائدة على الذات، قائمة بها؛ ليرد على المعتزلة.

وقال: إنما قال النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامة. . .»[1] على طريق التعظيم. اهـ. يعني أن الجمع للتعظيم، لا لكون كلامه تعالى

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، ٦ / ٥٩٣)، والترمذي في (الطب، باب ما جاء في الرقية بالعين، ٢١٣٦)، وأبو داود في (السنة، باب في القرآن ٤٧٢٢).

متعدداً، بل هو شيء واحد، هو الكلام النفسي الأزلي، يتبين ذٰلك مما تحته خط في (ص ٢٥ ـ ٢٩، وص ٣٢ ـ ٣٧).

١١ ــ ذكر في الاستواء طريقتين: طريقة التفويض في معناه مع نفي الكيفية، وطريقة حمله على وجه يصح استعماله في اللغة، واتبع في ذٰلك نفياً تفصيليّاً للكيفية في الاستواء وفي النزول وفي المجيء والإتيان... إلخ (ص ٤٤)، وأحال في ذٰلك على كتابه «الأسماء والصفات».

١٢ ــ أحسن في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة بالأبصار، وفي إقامة الأدلة على ذٰلك، وفي رده على منكري رؤيته تعالى، ولٰكنه يرى أن الله عز وجل لا يرى في جهة، بل يراه الراؤون في جهاتهم كلها؛ لأنه يتعالى عن جهة (ص ٥١).

١٣ ــ قال في أفعال العباد: إنها كسب لهم؛ على معنى تعلق قدرتهم بمباشرتهم التي هي أكسابهم، ووقوع هٰذه الأفعال أو بعضها على وجوه تخالف قصد مكتسبها، يدل على موقع أوقعها كما أراد غير مكتسبها، والله ربنا خلقنا وخلق أفعالنا... إلخ (ص ٦٠ ـ ٦١).

وهٰذا إلى القول بالجبر أقرب منه إلى القول بإثبات الاختيار للعبد في أفعاله.

١٤ ــ وفسر ما جاء في الحديث من أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمٰن بأن المراد به كون القلب تحت قدرة الرحمٰن.

١٥ ــ أخطأ في تفسير آيات المشيئة (ص ٧١).

١٦ ــ ذكــر كثيراً من الأحــاديث ولم يبين درجتهـا من الصحـة والضعف، والمقام مقام استدلال في العقيدة.

وبالجملة؛ فالكتاب نافع، وفيه خير كثير، ويمكن التعليق عليه في مواضع الخطأ، أو التنبيه على ذٰلك في مقدمة له.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٨ ـ ملاحظات على تتمة «أضواء البيان» التي كتبها فضيلة الشيخ عطية سالم:

١ ــ كان المتوقع أن تكون تتمة «أضواء البيان» من مذكرات فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي التي أملاها على طلابه وهو يدرس لهم التفسير بمعهـد الـرياض العلمي، وأن تصاغ على منهجه في الأجزاء السبعة الأولى التي كتبها ورتبها بنفسه أيام حياته، ولٰكن لم يتم ذٰلك، بل جاءت التتمة على خلاف المطلوب، يتبين ذٰلك لمن قرأ الصفحات التي تبدأ من ٥٧٢ وتنتهي بـ (٥٩١) من الجزء الثامن مثلاً.

٢ ــ الخـطأ في جعـل حديث «من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفـوتـه صلاة؛ كتب له براءة ونجـاة من العـذاب. . . » إلخ، وحديث «من صلى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى؛ كتب له براءتـان. . . » إلخ حديثاً واحداً مروياً بروايتين، مع أنهما حديثان، بالإضافة إلى قلق في العبارة وضعف في الأسلوب. انظر: (ص ٥٧٢ من ج ٨).

٣ ــ اعتماده على غيره من المعاصرين في الحكم بقبول حديث «من صلى في مسجدي أربعين صلاة. . . » إلخ، والعمل به دون مناقشة

إلى المسجد عن زيارة النبي ﷺ، ولا لزيارته عن المسجد؛ فلا موجب للنزاع (ص ٥٨٣).

٤ ــ تكلف الحكمة في الحث على الأربعين صلاة في المسجد النبوي في ثمانية أيام (ص ٥٧٤).

٥ ــ حكمه بأن الزيارة تتركب من تحية المسجد النبوي، والسلام على رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، والدعاء لنفسه وللمسلمين بالخير (ص ٥٧٥).

٦ ــ إقحامه زيارة القبر والدعاء عنده لنفسه وللمسلمين في تفسير آية ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾، دون أن يتكلم بكلمة عن واقع الناس عند القبر وما فيه من بدع شركية، مع أن مقصود الآية بيان التوحيد وألا يُدعى إلا الله، والقضاء على الشرك، رحم الله الشيخ الشنقيطي! لقد مرت به مناسبات في سورة الحج والنور والحجرات ولم يتكلم فيها بما يثير البدع في المساجد أو غيرها أو يؤيد خرافة من الخرافات، بل تكلم في تفسير سورة الحجرات بما يحفظ للأمة عقيدتها؛ فبين فيها حق الله وحق العباد، وبين فيها حدود الأدب مع الله ومع رسوله ﷺ حتى لا يصرف الإنسان حق أحدهما للآخر.

٧ ــ إقحامه الكلام على حديث شد الرحال في تفسير آية ﴿**وأن المساجد لله . . .**﴾ الآية [الجن: ١٨]، واعتماده في ذٰلك على النقل عن الشيخ السبكي والشيخ ابن حجر كل الاعتماد، دون أن يعطي للطرف المقابل حقه في النقل عنه والانتصار له بالنقل المماثل التفصيلي عن شيخ الإسلام ابن تيمية وعن الشيخ ابن عبد الهادي من كتابه

«الصارم المنكي»، وذٰلك مما يشعر بعصبية ممقوتة في المسائل الخلافية واتجاه مريب.

٨ ــ زعمه أن النزاع بين شيخ الإسلام ابن تيمية ومخالفيه في مسألة شد الرحال شكلي لا حقيقي، وأنه لا وجود له عمليّاً (ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣).

٩ ــ زعمه أن المسجد النبوي ما هو إلا بيته ﷺ، وأن الزيارة السنية لا تكون إلا من داخل المسجد بعد التحية، وأنه لا انفكاك لشد الرحال إلى المسجد عن زيارة النبي ﷺ ولا لزيارته عن المسجد؛ فلا موجب للنزاع. (ص ٥٨٣).

١٠ ــ زعمه أن الخلاف جاء من تقوُّل الناس على ابن تيمية ما لم يقله صراحة؛ فافتروا بذٰلك خلافاً في موضوع حديثه شد الرحال، ولو فهموا كلامه على وجهه؛ لم يكن خلاف. (ص ٥٨٦ ـ ٥٩١).

● ملاحظات شكلية على ما كتبه الشيخ عبد العزيز الربيعان في نقده لما كتبه الشيخ عطية سالم:

١ ــ ينقصه التنسيق وبسط القول أكثر في رسالة «البحث الأمين في حديث الأربعين».

٢ ــ فيه الإكثار من ذكر كلمة فضيلته والشيخ حفظه الله ونحو ذٰلك، والمطلوب التقليل من ذٰلك.

٣ ــ غلوه في مدح فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في مدح كتابه بأنه في اعتقاده لا يماثله كتاب في هٰذا الفن مما

سبقه من كتب التفسير، وقد يكون معذوراً لعدم معرفته مراجعه وأصوله التي يعتمد عليها في كتابه «أضواء البيان». انظر صفحة الخطبة.

ينبغي أن تطبع الرسالتان مع الجزء التاسع؛ استدراكاً لما فات التنبيه عليه في الجزء الثامن، وألا يُجلَّد الجزء التاسع ولا يُغلَّف حتى تُرسل منه نسخة وتُقرأ، حتى إذا كان هناك مآخذ؛ تدرك، وينبه عليها قبل التجليد والتوزيع في نفس الجزء.

● فهرس لكتاب «الحموية» وبعض التعليقات عليه وضعه الشيخان عبد العزيز بن باز وعبد الرزاق العفيفي:

صفحة

الصفات أولى لأنها أكثر.

١٠٤ مذهب أهـل التجهيل أن الـرسول وجبريل والسابقين الأولين لا يعرفون معاني نصوص الصفات.

١٠٥ احتجاجهم بالوقف على لفظ الجلالة في آية: **﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾** والرد عليهم.

١٠٥ معاني التأويل الثلاثة، معناه عند المتأخرين، معناه عند جمهور المفسرين.

١٠٦ معنى التأويل في لغة القرآن والتمثيل له بما يوضحه.

١٠٦ إن وقف في آية آل عمران على **﴿والراسخون في العلم﴾** فالتأويل بمعنى التفسير لما يخطر من معاني النصوص في الأذهان، وأن وقف على قوله **﴿إلا الله﴾** التأويل بمعنى الحقائق الموجودة في الأعيان وكنه ذات الله وكيفية صفاته ونحو ذلك من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله.

١٠٧ الأمر بتـدبـر القرآن والإنكار على من لم يتدبروه دليل على أن الرسول وخير القرون تدبروه وعلموا معناه وخاصة نصوص أصول الدين.

١٠٧ تعليم الـرسول لأصحابه ما في القرآن من العلم والعمل وتعليم أصحابه لمن بعدهم كذلك صريح في علمهم بمعانيه وخاصة ما يتصل منه بأصول الدين.

١٠٧ تجهيلهم للرسول والسلف في العقليات ومعاني السمعيات.

١٠٨ حكـاية الأوزاعي شهـرة القـول بأن الله فوق عرشـه ومتى حكاه والحامل له على ذلك.

تأويل.

١١٥ يترك تدريس ما نقل عن عمرو بن عثمان المكي.

١٢٦ يترك تدريس ما نقل عن أبي عبد الله المحاسبي كله.

١٣٠ يقرأ من كلام أبي عبد الله محمد بن خفيف إلى قوله: واعلم أن لفظ الصوفية وعلومهم تختلف ويترك باقيه.

١٥١ يترك ما نقل عن أبي المعالي الجويني كله.

١٥٢ ابن تيمية لا يقول بكل ما قاله من نقل مقالتهم من المتكلمين وغيرهم في باب الصفات وغيره ولٰكنه يقبل من كان من ذٰلك حقّاً.

١٥٢ ليس في الكتاب والسنة تناقض بل فيهما الهدى والنور لمن تدبرهما وفتح لهما قلبه.

١٥٣ نصوص الفوقية لا تناقض نصوص المعية وبيان ذٰلك.

١٥٣ إذا أطلقت كلمة مع عن التقييد؛ فمعناها مطلق المقارنة وإن قيدت فسرت بمعنى يناسب ما قيدت به ودل عليه السياق.

١٥٤ كلمة مع إما أن يكون معناها المقارنة وما يتبعها من المعاني كالعلم والتأييد والنصر يسمى مقتضاها وحكمها ولازمها وليس معناها وإما أن تكون موضوعة لقدر مشترك ويستدل على المراد منها في كل موضوع بالقرائن والسياق ووضح ذٰلك المؤلف بما ذكره في كلمة رب وعبد.

١٥٤ الفرق بين المتواطىء والمشكك والمشترك اللفظي وترجيح أن مع ونحوها من المتواطىء.

١٥٥ من فسر ﴿**أأمنتم من في السماء**﴾ بأن السماء تحتوي رب العالمين فقد أخطأ ومن جعل ذٰلك ظاهر الآية ثم تأولها فقد تكلف والصواب

ذاته ونظير البحث في أرواح المخلوقات وفي نعيم الجنة. . . إلخ.

١٦١ كل من المؤولة والمفوضة قال بنفي ما دلت عليه النصوص من الصفات إلا المؤولة عينت المعنى المجازي المراد في اعتقادهم والمفوضة لم تعين.

١٦٢ من نصوص الصفات ما هو قطعي الدلالة على الصفات كنصوص علو الله على عرشه ومنها ما يفيد غلبة الظن بالصفة وذٰلك مختلف باختلاف ما يؤتى العبد من نور الله.

١٦٢ إنْ لم يَزُلْ الاشتباه بالبحث في النصوص وجب الفزع إلى الله بالدعاء رجاء أن يزيله.

١٦٢ من عرف طريقة المتفلسفة والمتكلمين تبين له بطلانها وأنها شبه لا أدلة ووضح له الحق بما جاء في الكتاب والسنة وطريقة السلف.

١٦٣ من قرأ في كتب الكلام ولم يسبر غور المتكلمين خيف عليه الحيرة والضلال.

١٦٣ من لم يقرأ في كتب المتفلسفة وعلماء الكلام فهو في عافية.

١٦٣ حيرة المتفلسفة والمتكلمين دليل على أنهم لا حجة عندهم.

١٦٣ استحقاقهم للتنكيل من وجه والرفق من وجه.

١٦٣ ذم السلف لعلم الكلام وتحذيرهم من الخوض فيه وسبب ذٰلك.

انتهت التعليقات.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

● رابعاً: تقريرات عن بعض الأشخاص[1]

● تقرير عن الشيخ مصطفى درويش:

قال ـ رحمه الله ـ: سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الموقر:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبناءً على كتاب سماحتك الذي تطلب فيه الإفادة عما إذا كان الشيخ مصطفى درويش لا يزال على عقيدته في إنكار السنة النبوية كما ذكر عنه ذٰلك الأستاذ رشاد الشافعي، بناءً على ذٰلك؛ قرأت خمس رسائل من مؤلفاته:

١ ــ رسالة بعنوان: «السقطات التشريعية في تعديل قانون الأحوال الشخصية»، وهي مفيدة في بابها وإن كان فيها تساهل في التعبير.

٢ ــ ورسالة بعنوان: «القرآن والنصرانية».

٣ ــ ورسالة بعنوان: «الخرافات المقدسة أقلام الشياطين في أسفار الإسرائيليين».

كلتاهما مفيدة في الرد على مزاعم شنودة والقسس وغيرهم من المبشرين بالنصرانية والدعاة إليها وتناقض الأناجيل، وفي رسالة «الخرافات المقدسة» كلمات لاذعة، واستهزاء بالأناجيل المحرفة،

---

(١) للشيخ ـ رحمه الله ـ عدة تقريرات عن بعض الأشخاص، منهم حسن أيوب وغيره.

وسخرية من عقول من يؤمن بما فيها من خرافات في العقائد والأحكام، ويمن يبرر عقيدة التثليث، ويضرب الأمثال لجعل الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة.

٤ ـ والرسالة الرابعة بعنوان: «محمد الرسول في التوراة والإنجيل»، وقد أجاد كثيراً في هٰذه الرسالة، واستدل فيها على رسالة خاتم النبيين بنصوص من التوراة والإنجيل، وبنصوص من القرآن والأحاديث، وظهر من كتابه اعتبار السنة أصلاً ثانياً في الإسلام؛ لأن للمسلمين التمسك به.

انظر: (ص ٩، ١٥، ٣٠، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٦٢، ٧٥، ٧٦)؛ ففي هٰذه الصفحات الاحتجاج بالأحاديث، وأن طريق الحق لا يزال مفتوحاً أمامنا، لا ينتظر إلا الأيدي الأمينة التي لا تعرف إلا الإخلاص لله وكتابه وسنة نبيه ﷺ، وأن التمسك بها عماد سعادتهم، والذي يظهر لي أن بعض إخواننا أنصار السنة المحمدية ينكر بعض الأحاديث لشبهة تمكنت من نفسه أو قلد فيها بعض من سبقه؛ كحديث الذباب، وفقء موسى عين ملك الموت، وحديث سحر النبي ﷺ، ونحو ذٰلك، لا أنه ينكر كل الأحاديث، وهٰؤلاء يجدي معهم إن شاء الله المناقشة الهادئة والجدال بالتي هي أحسن، نسأل الله أن يحفظنا من الزيغ ويهدينا سواء السبيل.

٥ ـ أما الرسالة الخامسة؛ فهي بعنوان: «نداء إلى الفاتيكان... راجعوا أسفاركم المقدسة»، وهي مفيدة أيضاً في بابها؛ إلا أن فيها حديثاً عن دوران الأرض والاستدلال على ذٰلك بالقرآن، وانفصال الأرض ونحوها عن الشمس والاستدلال على ذٰلك بالقرآن أيضاً (ص ٩، ١٠)،

وفي ذلك ونحوه ما فيه بالإضافة إلى التساهل في التعبير وضعف بعض التراكيب.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

• خامساً: التراجم

١ ـ ترجمة السيف الآمدي[1]:

هو أبو الحسن علي بن أبي علي محمد بن سالم التغلبي الآمدي، ولد بآمد ـ بلدة بديار بكر ـ عام ٥٥١هـ، وقدم بغداد وتعلم وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وحفظ كتاب «الهداية» لأبي الخطاب، ثم صار شافعياً، واشتغل بعلم الخلاف، وتفنن في علم النظر، ويقال: إنه حفظ «الوسيط» لأبي حامد الغزالي.

ويذكر عن ابن عبد السلام؛ أنه قال: «ما علمت قواعد البحث إلا من السيف الآمدي، وما سمعت أحداً يلقي الدرس أحسن منه، وكان إذا غير لفظة من «الوسيط»؛ كان اللفظ الذي يأتي به أقرب إلى المعنى. قال: ولو ورد على الإسلام من يشكك فيه من المتزندقة؛ لتعين الآمدي لمناظرته.

وذكر ابن خلكان أنه لما انتقل إلى الشام اشتغل بالعلوم العقلية، ثم انتقل إلى مصر وتصدر بالجامع الظافري، وانتشرت فضائله، فحسده أقوام فسعوا به، وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل

---

(١) من «الميزان» للذهبي، و«لسان الميزان» لابن حجر، و«البداية» لابن كثير، و«الوفيات» لابن خلكان، و«الطبقات» لابن السبكي، مع بعض تصرف.

والانحلال، وطلبوا من بعضهم أن يوافقهم، فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداء له وخصوم

فانتقل الآمدي إلى حماة وصنف بها التصانيف، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بالعزيزية، ثم عزله الأشرف لاشتغاله بالمنطق وعلوم الفلسفة.

وذكر الذهبي في «الميزان»؛ أنه صح عن الآمدي أنه كان تاركاً للصلاة. اهـ.

ويظهر أن الذهبي استند في ذلك إلى ما نقله في كتابه «تاريخ الإسلام» عن شيخه القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة أبي الفضل المقدسي حكاية عن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر؛ قال: كنا نتردد على السيف الآمدي، فشككنا؛ هل يصلي؟ فتركناه حتى نام، وعلمنا على رجله بالحبر، فبقيت العلامة نحو يومين مكانها.

أقول: قد يبقى الحبر أياماً على العضو مع تتابع الوضوء والغسل، وخاصة عضو من لا يرى التدليك فرضاً في الطهارة، بل يكتفي بإسالة الماء في غسله ووضوئه، ولا أدري كيف سكت من كان يتردد عليه لطلب العلم عن الإنكار عليه أو التصحيح له أو الحديث معه في الصلاة إن كان ما ذكروا دليلاً عندهم على تركه الصلاة؟

وعلى كل حال؛ فالأصل البراءة حتى يثبت الناقل.

وقال ابن كثير في «البداية»: كان حنبلي المذهب، كثير البكاء،

رقيق القلب، وقد تكلموا فيه بأشياء الله أعلم بصحتها، والذي يغلب على الظن أنه ليس لغالبها صحة، وقد كان ملوك بني أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه وإن كانوا لا يحبونه كثيراً، وقد فوض إليه المعظم التدريس بالعزيزية، فلما ولي الأشرف؛ عزله لاشتغاله بالمنطق وعلوم الأوائل؛ فلزم بيته حتى توفي في صفر سنة ٦٣١هـ عن ثمانين سنة. اهـ.

وقد برأه ابن كثير مما رُمي به في الجملة، فأنصفه من خصومه، وأنصف خصومه منه.

أقول: إن الآمدي درس الفلسفة بأقسامها المختلفة، وتوغل فيها، وتشبعت بها روحه، حتى ظهر أثر ذٰلك في تأليفه، ومن قرأ كتبه، وخاصة ما ألفه في علم الكلام وأصول الفقه؛ يتبين له ما ذكرت؛ كما يتبين له منها؛ أنه كان قوي العارضة، كثير الجدل، واسع الخيال، كثير التشقيقات في تفصيل المسائل والترديد والسبر والتقسيم في الأدلة إلى درجة قد تنتهي بالقارىء أحياناً إلى الحيرة.

فمن كره من الولاة والعلماء منطق اليونان والخوض في سائر علوم الفلسفة وخاصة ما يتعلق منها بالإلهيات، وكره كثرة الجدل والاسترسال في الخيال والإكثار من تأويل النصوص وذكر الاحتمالات خشية ما تفضي إليه من الحيرة والمتاهات، مع قلة الجدوى منها تارة وعدم الفائدة أحياناً ـ كالأشرف والذهبي ـ؛ كره الآمدي ديناً، وأنكر عليه ما رآه منكراً، وقد يجد في كتبه ومسلكه في تأليفه ما يؤيد فيه رأيه ويدعو إلى النيل منه.

ومن لم يكره ذٰلك، لٰكنه ضاق ذرعاً بالآمدي؛ لعجزه عن أن يصل

إلى ما وصل إليه من التبحر في العلوم، وقوة عارضته، وحضور بديهته في الجدل والمناظرة، وحسن أسلوبه، وبارع بيانه في التدريس وصناعة التـأليف؛ حسـده حيث لم يؤت مثل ما أوتي في نظره، كما ذكره ابن خلكان عن بعض العلماء في سبب خروجه عن مصر مستخفياً.

ومن لم ير بأساً بدراسة المنطق وسائر علوم الفلسفة، وألف التأويل للنصوص وكثرة الفروض والاحتمالات دراسة ومناظرة وتأليفاً؛ رفع من شأن الآمـدي، وعني بالـذب عنه، وانهال بالملامة على من حط من قدره، أو اتهمه في دينه، أو طعن في تأليفه؛ كابن السبكي؛ حيث عاب الذهبي في انتقاصه للآمدي.

وقصارى القول أن العلماء لهم منازع شتى ومشارب متباينة؛ فمن اتفقت نزعاتهم؛ تحابّـوا وتناصروا وأثنى بعضهم على بعض خيراً، ومن اختلفت أفكارهم ووجهات نظرهم؛ تناحروا وتراموا بالنبال؛ إلا من رحم الله.

وأسعدهم بالحق من كانت نزعته إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ووسعه ما وسع السلف، مع رعاية ما ثبت من مقاصد الشريعة باستقراء نصـوصهـا؛ فكلمـا كان العالم أرعى لذلك وألزم له؛ كان أقوم طريقاً وأهـدى سبيلاً، والمعصـوم من عصمـه الله، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك؛ إلا رسول الله ﷺ، وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

وما الآمدي إلا عالم من علماء البشر، يخطىء ويصيب؛ فلننتفع بالصواب من قوله، ولنرد عليه خطأه، ولنستغفر الله له، وليكن شأننا معه كشأننا مع غيره من علماء المسلمين، وليكن شعارنا مع الجميع: ﴿ربنا

اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

٢ ـ ترجمة الشيخ العلامة محمد الصنعاني رحمه الله:

هو العالم، الفاضل، محدث وقته، وفقيه زمانه، الشيخ محمد بن إسماعيل بن صلاح، الأمير، الكحلاني، ثم الصنعاني.

ولد بكحلان عام ١٠٥٩هـ، وحُبِّبت إليه الرحلة في طلب العلم، وانتقل إلى صنعاء وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى الحجاز وأخذ عن كبار علماء مكة والمدينة، ثم عاد إلى صنعاء لنشر العلم وإحياء السنة والقضاء على البدعة؛ فجلس للتدريس وبذل فيه جهده؛ حتى اشتهر أمره، وعلا قدره، وارتفع سهمه، وصار مرجعاً لأهل العلم ببلاده، ونهض بالدعوة إلى الإصلاح؛ فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وصدع بالحق، وشدد في النكير على المبتدعة والمنحرفين، لا يبالي بما يصيبه من أذاهم، ولا يخشى في الله لومة لائم؛ فكفاه الله غائلتهم، واجتمع حوله خلق كثير، وكان له من الأثر المحمود ما نرجوا أن يجزيه الله به خير الجزاء.

وإلى جانب ما قام به بعد التدريس والوعظ والإصلاح ألف كتباً ورسائل كثيرة؛ منها: «سبل السلام شرح بلوغ المرام»، و«العدة» ـ وهي تعليقات حشى بها «الأحكام» لابن دقيق العيد على «عمدة الأحكام» ـ، و«قصب السكر نظم نخبة الفكر» لابن حجر، وشرحه بكتاب سماه «إسبال المطر وإرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد»، و«تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد».

تعريف بكتاب «تطهير الاعتقاد»:

إن هٰذا الكتاب[1] - «تطهير الاعتقاد» - مع صغر حجمه؛ عظم نفعه، وعمت فائدته، وقد رتبه المؤلف على مقدمة وخمسة أصول وجملة فصول.

أما المقدمة؛ فذكر فيها ما حمله على تأليفه؛ من انتشار الشرك في الأمصار والبلاد بتعظيم السواد الأعظم من الناس للقبور ومن فيها تعظيماً لا ينبغي أن يكون إلا لله وحده، واعتقادهم في الكهنة الذين يزعمون الكشف وعلم الغيب، وتصديقهم إياهم في ذٰلك.

وأما الأصول؛ ففي بيان أن القرآن حق وقول صدق، وأن الرسل إنما بعثوا بتوحيد الألوهية، وأنه أساس صحة العبادة وقبولها، أما توحيد الربوبية؛ فهو مركوز في الفطر، وقد أقر به المشركون، ولٰكنه لا يغني عنهم شيئاً؛ لإخلالهم بتوحيد العبادة.

وأما الفصول؛ فقد فصل فيها ما أجمله في الأصول الخمسة من أنواع العبادة والاستدلال عليها، وذكر فيها كثيراً من الشبه التي يتعلل بها المبتدعة لشركهم وأجاب عنها، وجعل ذٰلك على صور السؤال والجواب؛ تحديداً للمطلوب، وتيسيراً للفهم؛ حتى تقوم الحجة، ويتم الإعذار.

فالله أسأل أن يغفر لنا وله، ويفيض علينا من رحماته، ويسكننا فسيح جناته. . . إنه مجيب الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) كتبها في مقدمة كتاب «تطهير الاعتقاد».

٣ ـ ترجمة الشيخ العلامة محمد الشوكاني رحمه الله:

هو العالم، الفاضل، الشيخ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ثم الصنعاني.

ولد في ذي القعدة عام ١١٧٢هـ، وتوفي في جمادى الآخرة عام ١٢٥٠هـ ـ رحمه الله ـ، حفظ القرآن وجوده على جماعة من المعلمين بصنعاء، وحفظ كثيراً من المتون في الفقه وأصوله، وفي النحو، والبلاغة، والمنطق، وأدب البحث والمناظرة. . . وغيرها من الفنون المختلفة.

ثم حضر مجالس العلماء؛ فتلقى عنهم شروح هٰذه المتون وغيرها من المؤلفات، وبذل جهده في ذٰلك؛ حتى تفوق في كثير من علوم الشريعة واللغة العربية.

واشتغل بالتدريس والتأليف حتى لقي ربه؛ فانتفع به خلق كثير، وانتشرت مؤلفاته بين المتعلمين في الأمصار والبلاد، وهي كثيرة؛ منها: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، و«إرشاد الفحول في علم الأصول»، و«الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد»، و«مفيد المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد»، و«رسالة شرح الصدور في تحريم رفع القبور»، وهي:

تعريف بكتاب «شرح الصدور»:

بدأ المؤلف هٰذه الرسالة ـ «شرح الصدور» ـ ببيان وجوب الرد عند الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنهما الحكم العدل الذي يفصل بين الحق والباطل عند الاختلاف، واستدل على ذٰلك بالكتاب

والسنة والإجماع.

وأذن في العلماء وإن تفاوتوا في تحمل المسؤولية وفي الفضل والجزاء تبعاً لتفاوتهم في العلم والإمامة والوجاهة، ولا يصح أن يتعلل بذلك في جعل بعضهم حجة بعض عند التنازع في المسائل العلمية، وإنما يوجب ذلك التعاون بينهم؛ فيأخذ القوي بيد الضعيف، ويكشف عن غامض المسائل وأدلتها، ويدله على طرق الاستدلال؛ حتى ينهض ويصير في عداد العلماء.

ثم ذكر مسألة التحريم ورفع القبور والبناء عليها على سبيل المثال؛ ليوضح بذلك طريقة العلماء في الرجوع عند التنازع إلى الكتاب والسنة؛ فذكر الأحاديث الكثيرة في تحريم رفع القبور والبناء عليها، ووجوب هدم ما كان مبنياً عليها، وتحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ولعن من فعل ذلك، وبيَّن وجه الاستدلال بها على المطلوب، والحكمة التي روعيت في ذلك، وأفاض في ذكر الفتن التي تنشأ عن هذه البدع، وأنها ذريعة إلى الشرك الأكبر.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وجمعنا وإياه في دار كرامته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٤ ـ ترجمة الشيخ العلامة أحمد بن إبراهيم بن عيسى رحمه الله:

هو العالم، الفاضل، الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدي، من قبائل بني زيد، ومساكنهم الوشم.

أخذ العلم عن كبار علماء نجد؛ منهم: الشيخ عبد الله بن عبد

الـرحمٰن بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن العائذي الحنبلي، المعروف كأسلافه بأبي بطين، والشيخ عبد الرحمٰن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، وابنه الشيخ عبد اللطيف.

وأخـذ عنـه العلم ابن عمه الشيخ إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن عيسى، الذي ذيَّل كتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» بكتابه «عقد الدرر»، وأخذ عنه أيضاً لما سكن مكة الشيخ عبد القادر التلمساني، وحصلت بينهمـا مناظرات في مسائل من علم التوحيد، انتهت باقتناع الشيخ عبد القادر بما بيَّنه له الشيخ أحمد، وعن الشيخ عبد القادر أخذ الشيخ محمد نصيف وجيه جدة، ونفع الله بهما في نشر عقيدة السلف بمكـة وجدة وغيرها من البلاد عن طريق الدعوة والإرشاد، وعن طريق طباعة الكتب السلفية ونشرها بين الناس.

ومن مؤلفـاتـه: «تـوضيح المقاصد وتصحيح القواعد» في شرح قصيدة ابن القيم المـوسـومـة بـ «الكـافية الشـافية في الانتصار للفرقة النـاجية»، ومنهـا «الرد على شبهات المستغيثين بغير الله»، وله رسالة كتبها عام ١٣٠٢هـ، وأرسلها إلى آل سعود حين تفرقوا واختلفت كلمتهم وكثر النزاع بينهم؛ يحضهم فيها على الاجتماع، وينهاهم عن التفرق والاختلاف، ويذكرهم بما حصل عليهم بسبب ذٰلك من الذل والهوان وخروج بلادهم من أيديهم وطمع أعدائهم فيها، وأرسل منها قصيدة في هٰذا المعنى تبلغ زهاء (٣٧) بيتاً، مطلعها:

متى ينجلي هٰذا الدجى والدَّياجِرُ ... متى ينتهضْ للحقِّ منكم عساكرُ
متى تنتهوا من غَمْرَة النومِ والردى ... وينهضْ لنصر الدين منكم أكابرُ
متـى تتـجـدَّد دعـوةٌ حنـفـيةٌ ... يكـون لهـا بالصَّدْعِ ناهٍ وآمـرُ

متى ترعوي منك قلوبٌ عن الرَّدى　　متى ينقضي هٰذا القَـلاَ والتَّهاجُرُ

وقد اتصل أيام إقامته في مكة المكرمة بالشريف عون، وكان له عنـده كلمـة مسمـوعـة؛ فنصحـه في إنكار جملة من البدع الشركية، فاستجاب لها ومحا كثيراً منها؛ إحياءً للسنة، وصيانةً للتوحيد.

توفي بالمجمعة عام ١٣٢٩هـ بعد أن ترك أثراً حميداً، رحمه الله وجمعنا به في دار كرامته.

٥ ـ ترجمة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله:

هو فضيلة الشيخ عبـد العـزيز بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله آل باز.

ولد في الرياض في شهر ذي الحجة عام ١٣٣٠هـ، وحفظ فيها القرآن وجوَّده على الشيخ سعد وقاص البخاري بمكة المكرمة.

أخذ علومه في الشريعة واللغة العربية عن مشاهير علماء نجد؛ منهم: الشيخ محمـد بن عبـد اللطيف بن عبـد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ، والشيخ صالـح بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن حسين آل الشيخ، والشيخ سعـد بن حمد بن علي بن محمد بن عتيق، والشيخ حمد بن فارس، وسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ.

وكان أكثر ما تلقاه عن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، وعليه تخـرج في علوم الشريعة واللغة العربية، ورأى أن من الغبن لنفسه أن يكتفي بما حصَّله من تلك العلوم أيام طلبه وتلقيه عن مشايخه؛ لما في ذٰلك من هضمها حقها، وحرمانها من الحظ الوافر في العلم والدين؛

فتابع الاطلاع والبحث، ودأب في التحصيل، وبذل جهده في تحقيق المسائل بالرجوع إلى مظانها في أمهات الكتب كلما دعت الحاجة إلى ذٰلك في تدريسه، وفيما يعرض له من القضايا المشكلة أيام توليه القضاء، وفي إجابته عما يوجه إليه من أسئلة تحتاج إلى بحث وتنقيب، وفي رده على ما ينشر من أقوال باطلة وآراء منحرفة؛ فازداد بذٰلك تحصيله ورسوخه، ونبغ في كثير من علوم الشريعة وخاصة الحديث متناً وسنداً، والتوحيد على طريقة السلف، والفقه على مذهب الحنابلة؛ حتى صار فيها من العلماء المبرزين.

وقد ولي القضاء أول عهده بالحياة العملية أربعة عشر عاماً تقريباً ابتداءً من ١٣٥٧هـ، ثم دُعي إلى التدريس بالكليات والمعاهد العلمية في الرياض أول عام ١٣٧٢هـ؛ فكان مثالاً للعالم المحقق المخلص في عمله؛ فنهض بطلابه، واستفادوا منه كثيراً.

واستمر على ذٰلك إلى أن أنشِئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فعين نائباً لرئيسها العام فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ؛ فأحسن قيادتها والإشراف عليها.

وإلى جانب ما كُلِّف به من أعمال وحمله من أعباء ومسؤوليات كان ينتهز الفرصة لوعظ الناس وإرشادهم في المساجد، ويغشى النوادي لإلقاء المحاضرات، ويحرص على قراءة الكتب النافعة مع إخوانه، ويستجيب لمن رغب إليه من طلبة العلم في دراسة بعض الكتب عليه؛ فيحقق لهم أمنيتهم بصدر رحب ورغبة صادقة.

ولم يحرم نفسه من نفع الناس بالتأليف مع قلة فراغه؛ فألف جملة

من الكتب والرسائل في مناسبات وظروف تدعو إلى ذٰلك؛ منها: «الفوائد الجلية في المباحث الفرضية»، و«نقد القومية العربية»، و«توضيح المناسك»، ورسالة في «نكاح الشغار»، ورسالة في «التبرج والحجاب»، و«الجواب المفيد في حكم التصوير»، ومقال نشر في الصحف تحت عنوان «ما هٰكذا تعظم الآثار» وهو الرسالة التي طُبعت ضمن رسائل وكتب «الجامع الفريد».

ويغلب على مؤلفاته وضوح المعاني، وسهولة العبارة، وحسن الاختيار، مع قوة الحجة والاستدلال، وغير ذٰلك مما يدل على النصح، وصفاء النفس، وسعة الأفق والاطلاع، وحدة الذكاء، وسيلان الذهن.

وبالجملة؛ فالشيخ وهب نفسه للعلم والمتعلمين، وبذل جهده في تحقيق المصالح لمن قصده ممن عرفه أو عرف به، مع رحابة صدر وسماحة خاطر؛ فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وأرجو أن أكون صادقاً فيما ذكرت من الحديث عنه، وألا يكون ذٰلك فتنة لي ولا له، وأن يزيده الله به رغبة في الخير وقوة في الإقدام عليه، إنه مجيب الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

● سادساً: الرسائل

● نموذج من رسائله للأديب سعد أبو معطي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الرزاق عفيفي إلى حضرة الأديب المحترم سعد أبي معطي الموقر:

السلام عليك وعلى والدك وأخوتك وأنجالك ورحمته وبركاته . . .

وبعد :

فكل عام وأنتم بخير، أعاد الله علي وعليكم رمضان والعيد بخير وسلام . . . شاء الله أن أراك قريباً وأمتع نفسي بحديثك الشيق وجلساتك المباركة ؛ فقد كتب إليَّ الشيخ محمد بن إبراهيم بأن جلالة الملك أمر المعارف بانتدابي إلى الرياض على أن أحضر في غرة شوال سنة ١٣٧٠هـ ؛ فعسى أن يكتب الله لي اللقاء، وأن يكون سفري إلى نجد صحبتك .

لعلك قضيت أيام رمضان بالطائف في قربة وعبادة وصحة وعافية ؛ فتمتعت بهوائه العليل، ووفيت لرمضان بحقه، وما أخالك إلا فعلت ؛ فإن ذٰلك العهد بك .

أولادي كلهم بخير إلا إبراهيم ؛ فعنده ضعف، وهم يسلمون عليك ويقرؤونك السلام .

أما الشيخ عبد الله وعلي ؛ فقد سألا عنك وعن نتيجتك ؛ فبشرتهما مقدماً، وهما بخير ولا يزالان يذكرانك بالخير، وقد أرسلت الخطاب إليهما، وسأكون معهما قريباً لعمل إجراءات السفر للرياض إن شاء الله . . . أرجو أن تسمح بتبليغ سلامي والدك وأخاك ومن لديك من الإخوان، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١٣٧٠ من رمضان

من عند عبد الرزاق عفيفي[١]

---

(١) انظر صورة لهٰذه الرسالة بخط الشيخ في الملحق .

الفصل السابع
صفاته وأخلاقه

أولاً: التمسك بالكتاب والسنة.

التمسك بالوحيين والأصلين منبعا النور والهداية ومصدر الخير والرشد هو سمة العلماء الربانيين.

وقد كان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ متمسكاً بهما قولاً وعملاً.

يقول الشيخ عبد الله السعد: «تميز ـ رحمه الله ـ بالتمسك بالكتاب والسنة قولاً وعملاً، وقد حدثنا ـ رحمه الله ـ أنه عندما كان بالأزهر وكان مقرراً عليهم مختصر «صحيح البخاري»؛ كان ـ رحمه الله ـ يكتفي بالوقوف عند النصوص الشرعية وبالاستنباط منها، ويستعين بتراجم الأبواب الموجودة في المختصر ولا يرجع إلى الشروح..».

ثانياً: دماثة خلقه رحمه الله.

كان ـ رحمه الله ـ ذا روح خفيفة، لا يخلو مجلسه من إلقاء نكتة مهذبة واقعية تنشط السامع وتسره، وتؤدي غرضاً وتوجيهاً، وكان بعيد النظر، عميق الفكر، له جولات نقدية موجزة يدركها الواعون من

جلسـائـه، ولا يذكـر في مجلسـه أحداً بسوء، وكانت معرفته بالرجال المعاصرين من الأعلام معرفة دقيقة، وكان حكمه عليهم حكماً سديداً، يعرف أوضاعهم الاجتماعية وعادات بيئاتهم ومدى تأثرهم بذٰلك كله، وكان كريماً كرماً أصيلاً، لا يتكلف ما يتيسر وما كان أعده لنفسه، وكان مع ذٰلك قادراً على أن يقيم في كل يوم وليمة، وكان إذا علم بمجيء عالم يعـرفه؛ دعاه إلى الطعام، وقد حضرت الكثير من هٰذه الولائم، وبيته مفتوح كل ليلة للزائرين وطلاب العلم والمستفتين والذين يبغون الشفاعة في أمر من أمورهم»[1].

يقول الشيخ العلامة عبد الله بن جبرين: «أما أخلاقه؛ فقد عُرف منـه لين الجـانب، وطلاقة الوجه، وحسن الملاطفة؛ فهو أمام الزوار والتـلاميذ والـزمـلاء دائماً يظهر الفرح والسرور والانبساط في الكلام، والإجابة على الأسئلة بدون غضب أو ملل أو تبرم أو رد شديد للسائل؛ فجليسه يلقى منه كل المؤانسة والتبسم بحيث لا يمل جليسه، ولا يزال يتلقى عنه أنواعاً من الفوائد واللطائف والمعارف وغرائب المسائل، كما أنه يكرم من زاره، ويقدم ما حضر بدون تكلف، ويجود بما يقدر عليه دون أن يمن بما أعطاه، أو يرد من سأله، وهٰكذا دأبه مع العلماء وطلبة العلم والأصحـاب والزملاء؛ فهو جواد كريم بما اعتاده، ومجيب لمن دعاه بدون تكلف أو تشدد».

ويقول الشيخ الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي: «وكان ـ رحمه الله ـ في أخـلاقـه محل القدوة والأسوة، شديد التواضع، تغلب عليه

(١) القائل د. محمد لطفي الصباغ.

البساطة في مجلسه، إذا ارتاح لمحدثه؛ استرسل في ذكر بعض الأحداث والمواقف، ونزل معه على قدره صغيراً كان في سنه أو منزلته.

ولذا كان ـ رحمه الله ـ محبوباً من كل من يعرفه، ممن عمل معه أو تتلمذ عليه، محل الإجلال من الجميع والتقدير، شديد الزهد في أعراض الدنيا، يلبس الخشن من الثياب في آخر حياته ويرتاح لذلك، ويعلله بأنه يناسب بدنه صحيّاً، وكان يكره الجدل والمراء، وقل أن يسمح لمحدثه بالاستمرار في ذلك، أو ينساق له» اهـ.

وقال أيضاً: «كان يعرف للناس أقدارهم ولا سيما إن كانوا غرباء، وكان متواضعاً يكرم الصبيان والفتيان، ولا يدعوهم إلَّا بألقاب التكريم، ويتودد إليهم، وقد رأيته يوم أن جاء الشيخ حسن حبنكة أحد كبار علماء الشام لزيارة مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ؛ رأيته في قمة التواضع؛ إذ كان يؤثر الكثيرين في الجلوس في المقاعد المتقدمة مع أنه أجدر منهم بهذا التقديم.

وكان حكيماً في تصرفاته، يفرض احترامه على الآخرين مهما كان رأيهم فيه؛ فما يقدم على تصرف يُعرِّضه إلى الحرج والانتقاد.

وكان بعيداً عن المراء والجدل الذي لا طائل من ورائه، ولا يخوض في الموضوعات التي لها حساسية ويتركها للآخرين».

ولما سألت الشيخ العلامة ابن قعود ـ حفظه الله ـ عن الأخلاق التي كان يتصف بها ـ رحمه الله ـ؛ أجمل الجواب بعبارة جميلة فقال: «أما عن أخلاقه ـ رحمه الله ـ؛ فهي أخلاق المؤمن».

ثالثاً: زهده في الدنيا.

كان ـ رحمه الله ـ متقللاً من الدنيا، زاهداً فيها، راغباً فيما عند الله.

يقول الشيخ عبد الله الحكمي: «كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ متواضعاً زاهداً في متاع الدنيا ومناصبها، لا يغشى منازل الوجهاء والأغنياء إلا إذا دُعي، وكان يتعفف إن حضر، ولا يقول إلا ما يرضي ضميره، ولعل زهده هٰذا هو السبب في عزوفه عن إلقاء المحاضرات وحضورها، وكان يبذل جاهه في خدمة الصالحين ومعونتهم، ولا يرد صاحب حاجة يستطيع أن يقضيها له...».

ويقول الدكتور محمد الصباغ: «كان مما يمتاز به: سعة صدره، وبعد نظره، وزهده في الدنيا ومتاعها، وحبه الخير للناس جميعاً، وبذله جاهه في مساعدة الآخرين».

رابعاً: الورع.

كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي عفيفاً ورعاً، ومن صور ورعه التي نقلت عنه؛ أنه كان لا يأخذ الكتب التي توزعها إدارة البحوث العلمية والإفتاء، بل كان يهديها وكأن هٰذا تورعاً من الشيخ ـ رحمه الله [1].

خامساً: اتساع صدره للمسائل الخلافية.

يقول الدكتور محمد الصباغ: «كان ـ رحمه الله ـ يتصف بسعة الصدر، وحسن المناقشة، والحلم، وإلانة القول لمن يسأله ويناقشه؛

---

(١) من رسالة للشيخ عبد الله السعد.

فقد ذكر لي الشيخ ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله ـ؛ أنه في أول قدمة جاء فيها إلى المملكة من بضع وأربعين سنة قابل عدداً من المشايخ وذاكرهم في مسألة قررها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وهي مشكلة في نظره وقد أنكرها؛ فاشتدوا عليه؛ إلا واحداً، وكان هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي الذي تلطف به وناقشه في الموضوع، وكان الشيخ الألباني يذكر هٰذه القصة مشيداً بالصفات الكريمة التي تميز بها الشيخ ـ رحمه الله ـ».

ويقول الشيخ عبد الله الحكمي: «كانت له آراء خاصة[1] في بعض المسائل العلمية لا يذكرها إلا للخاصة من أصحابه، ولا يسوؤه أن يكون هناك من يخالفه فيها، وإذا ذُكرت الآراء المخالفة له أمامه؛ لا ينفعل ولا يتشنج لأنها تخالفه، بل يقول: «لكلٍّ رأيه»، وهٰذا خلق عظيم ما أحوج العلماء إليه! لماذا نمنع أن يكون للعالم المؤهل للاجتهاد والنظر آراء تخالفنا؟ إن الحق ليس مقصوراً على مذهب معين، ولا يحتكره ناس معينون، وقد يدرك المتأخر أمراً لم ينتبه إليه المتقدم».

سادساً: عبادته.

يقول الشيخ الحكمي: «وقد حججت معه، وأشهد أنه كان في المواقف ولا سيما في عرفات كثير التضرع، يدعو ربه ويجتهد في الدعاء والدموع تنهمر على لحيته، يسأل الله المغفرة والرضوان وإصلاح أحوال المسلمين، ويطيل في ذٰلك، وقد حجَّ في هٰذا الموسم الأخير ـ ١٤١٤هـ ـ على الرغم من ضعفه بسبب الشيخوخة وإصابته ببعض

(١) انظر منها مسألة الهدي.

الأمراض».

سابعاً: صبره.

ومن أبرز الصفات والأخلاق الحميدة التي تميز بها الشيخ ـ رحمه الله ـ الصبر؛ فقد كان ـ رحمه الله ـ صابراً محتسباً... نزلت به كوارث شديدة فلم تضعفه، ولم تخرجه عن اتزانه وخلقه، أصيب في عام ١٣٧٦هـ بشلل نصفي وعافاه الله منه، وأصيب بعدد من الأمراض كان فيها نعم العبد الصابر، وقُتِل ولده الكبير أحمد ـ رحمه الله ـ في حرب ١٩٦٧م التي قامت بين اليهود ومصر؛ فتلقى الخبر صابراً، وكان في مجلسه يلهج بالحمد والثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ثم توفي ولده الأصغر عبد الرحمٰن ـ رحمه الله ـ؛ فكان كذٰلك في غاية الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، ثم توفي ابنه عبد الله في ٣٠ / ٦ / ١٤١٣هـ فجأة في جدة؛ فكان أيضاً مثالاً يُحتذى به في الصبر والاحتساب والتسليم.

وسافرت زوجته إلى مصر، وعندما أرادت أن تعود إلى الرياض إلى زوجها وأولادها؛ مُنِعت من العودة مدة طويلة لمضايقة الشيخ وإيذائه؛ فصبر وصابر حتى أذن الله بالفرج وعادت إلى بيتها.

يقول الدكتور صالح بن سعود آل علي: «كان الشيخ صابراً محتسباً؛ فبالإضافة إلى الأمراض التي عرضت له في العقد الأخير من عمره؛ أصيب باثنين من أبنائه وهما في ريعان الشباب: عبد الرحمٰن الذي كان يلازمه في شيخوخته كظله يخدمه ويساعده؛ فإذا به يفاجأ بوفاته بسبب انفجار أسطوانة غاز، ومن قبله أحمد أكبر أبنائه الذي جاء نعيه قتيلاً في حرب الدبابات مع «إسرائيل» في سيناء عام ١٩٧٣م.

ومما يلفت النظر في جَلَد الشيخ ـ رحمه الله ـ وصبره؛ أنه لما جاءه خبر وفاة ابنه أحمد، وهو مدير ومحاضر في المعهد العالي للقضاء؛ لم يتوقف عن برنامجه اليومي؛ فقد جاء إلى طلابه في مرحلة الماجستير وكنت واحداً منهم، وألقى المحاضرة كالعهد به دون أثر أو تلعثم، وكانت من بعد صلاة العصر إلى المغرب، وكان الطلاب كعادتهم بعد أن ينتهي من المحاضرة يوجهون الأسئلة سؤالاً تلو الآخر، وإذا به يجيب عنها دون أن يظهر عليه ما يلفت النظر، ومع انتهاء المحاضرة خرج من القاعة ونحن وراءه، وإذا بنا نحن الطلاب نفاجأ [بطابور] من الأساتذة وطلاب آخرين يقبلونه معزين بوفاة ابنه، ولا تسأل عن ذهولنا نحن! ليس من الوفاة، ولٰكن لأن الشيخ لم يترك المحاضرة، بل لم يخبرنا، ولم يظهر عليه أي أثر للصدمة!» اهـ.

ثامناً: حبه للنفع وبذل النصيحة.

ومن الأخلاق التي تميز بها ـ رحمه الله ـ حبه للنفع وبذل النصح.

يقول الشيخ صالح الأطرم ـ حفظه الله ـ: «وقد اشتهر الشيخ عبد الرزاق بحبه للنفع وبذل النصح؛ فهو المستشار الناصح لكل من استشاره من مسؤول أو من سائر الأفراد.

ومما أستحضره من نصحه لما اقترح من اقترح اختبار نصف العام جاءت مشكلة المكفوفين؛ فحل المشكلة بأن يختبروا شفوياً، فكأن المكفوفين لم يرغبوا، فما زاد على كلمة واحدة وهي قوله: إنه أرفق بكم؛ فليس كل واحد سيجد كاتباً، وبعد خروج النتيجة حصل الرضا، فأدرك المكفوفون نصح الشيخ.

ومن نصحه لي شخصياً لما درست السنة الأولى في المعهد العالي للقضاء لم أدخل الاختبار، فغلظ عليَّ اللَّوم، فاعتذرت بعدم المذاكرة؛ فقال لي: ادخل الاختبار وأجب بما عندك. فلم أفعل، ولما بدأت الدراسة في العام الثاني بالمعهد العالي للقضاء أعاد عليَّ النصح بمواصلة الدراسة، فلبيت الرغبة. فاستشرت الشيخ عبد الرزاق عمَّن أذاكر معه، وذكرت له شخصاً؛ فقال: اعزم على مواصلة الدراسة، وأنا أعرف من يناسبك وتناسبه في المذاكرة. فحقق ما قال، غفر الله له، وجزاه الله عني وعن الإسلام والمسلمين خيراً، وكان نصحه مع كل أحد، ولٰكني ذكرت نموذجاً مما يتصل بي».

يقول الشيخ علي اليحيى: «ذكر لي ـ المترجم له ـ أن الشيخ مناع القطان لما أراد أن يدخل الجامعة استشار الشيخ أن يدخل في كلية اللغة العربية؛ فأشار الشيخ عليه بأن يدرس العلم الشرعي، ومثل له علم اللغة بمن عنده عُددُ البناء ولا يعرف يبني، وذكر لي ـ رحمه الله ـ أن الشيخ صالح بن محمد اللحيدان لما تولى إمامة أحد المساجد؛ استشاره في أن يقرأ على جماعة مسجده رياض الصالحين، فقال له الشيخ: لا! اقرأ عليهم في الكتب الستة، وتحضّر قبل القراءة عليهم، وما كان من حديث ضعيف أو لا يناسب العامة تستفيد بحثه ولا تقرأ به على الجماعة» اهـ.

ولما تولَّى الأستاذ محمد صفوت نور الدين رئاسة جماعة أنصار السنة بعث له بخطاب يهنئه على هٰذا المنصب، ويدعو له بالتوفيق والهداية، وينصحه في الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً.

وإلى القارىء الكريم نص الخطاب:

من عبد الرزاق بن عفيفي إلى الأخ الكريم الأستاذ محمد صفوت نور الدين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فأبارك لك في هٰذا المنصب تولي جماعة أنصار السنة المحمدية، وأرجو الله أن يوفقك للقيام بواجبه وأن يسدد خطاك في نصرة الحق، وإني أنصحك بالتزام الكتاب الكريم والسنة المحمدية، والله معك ويؤيدك بفضله وتوفيقه، إنه سميع مجيب الدعاء.

أسأل الله أن ينفع بك الجماعة وينفعك بهم؛ فهو نصير للحق جلّ شأنه وتعالى جدّه، بلغ سلامي لجميع الأعضاء.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

أخوك في الله
عبد الرزاق بن عفيفي[1]

ومن ذٰلك تلك الوصية العظيمة التي أوصى بها ـ رحمه الله ـ قبل وفاته مرشداً الناس إلى تقوى الله، وأنها خير زاد يتزود به المسلم؛ فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه.

تاسعاً: رجوعه للحق.

كان ـ رحمه الله ـ رجّاعاً إلى الحق، فإذا ذُكر له أن القول الذي قاله مخالفٌ للدليل؛ قال: هاتِ الدليل، فإذا أُحضر الدليل، ورأى

(١) في الملاحق صورة لهٰذه الرسالة.

الشيخ صحته ودلالته؛ اتبعه ورجع عن قوله.

يقول الشيخ علي اليحيى: «وأذكر[1] في هٰذا قضيتين:

الأولى: قضية ذكرها لي الشيخ حمد العبيدان أثناء تدريس الشيخ لهم في كلية الشريعة، رجع فيها الشيخ إلى قول تلميذه حمد، وكانت فيما أذكر مسألة أصولية.

والثانية: حدَّثني بها أحد تلاميذ الشيخ وهو الشيخ عبد الله السعد؛ قال: ذهبنا إلى الشيخ في الإفتاء، فسألنا عن مسألة، فقال: هاتوا الدليل أقول به. قال: فأحضرنا له الدليل من «صحيح مسلم»، فلما اطلع الشيخ عليه. قال: أنا أقول به وأرجع عن قولي الأول»[1].

عاشراً: موقفه من قضايا المسلمين.

كان ـ رحمه الله ـ يحمل هموم الأمة في قلبه، ومن ذٰلك دعمه المادي والمعنوي لقضية المجاهدين الأفغان حتى فتح كابُل، فلما اختلفوا؛ أحجم عن الحديث عنهم، وكان لا يخوض في خلافهم، ويترك أمرهم إلى الله تعالى، كما أنه كان شديد الحرقة والألم لما يتعرض له المسلمون في البوسنة والهرسك والصومال وغيرها من الأماكن التي يُضطهد فيها المسلمون.

حادي عشر: موقفه من وسائل الإعلام.

من المعروف أن وسائل الإعلام سلاح ذو حدين، فإن استعمل في الخير؛ كان مقبولاً، وإن استعمل في خلافه؛ كان مرفوضاً.

---

(١) ذكر هٰذا الشيخ علي اليحيى في رسالة خاصة.

يقـول أحد أبناء الشيخ : «كان والدي ـ رحمه الله ـ يغضبه حقّاً الاستغـلال السيىء لوسـائـل الإعلام من بعض أعداء الإسلام ؛ سواء المسموعة أو المقروءة أو المرئية، ونظراً لخوفه على أهله من التأثر بما يرد فيها من مخالفات ؛ فقد منع دخول التلفاز والراديو إلى منزله» .

* * * * *



الفصل الثامن
معاناته، مرضه، وفاته، وآثاره الصالحة

● أبناء الشيخ:

تزوج ـ رحمه الله ـ من سيدة فاضلة من أسرة كريمة من الإسكندرية، وهي من أصل صعيدي من سينا، هي أسرة سالم، وأنجب منها عشرة أبناء وثلاثاً من البنات، توفي بعضهم في حياة الشيخ؛ فكان صابراً محتسباً.

ولقد كان ـ رحمه الله ـ يقول: «لقد ابتليت بفقد الأبناء؛ فأسأل الله أن يصبرني»؛ فاستجاب له رب العالمين، فصبر واحتسب.

أما أبناؤه؛ فهم:

الاسم	تاريخ الولادة	تاريخ الوفاة
محمود	١٩٣٩م	١٩٤٠م
إبراهيم	١٩٤٠م	١٩٤١م
محمد رشاد	١٩٤١م	١٩٤٢م
سعاد	١٩٤٣م	—
أحمد عاصم	١٩٤٤م	حرب رمضان ١٩٧٣م

الاسم	تاريخ الولادة	تاريخ الوفاة
محمد وسمية (توأمان)	١٩٤٦م	—
محمود	١٩٤٩م	—
إبراهيم	١٩٥١م	١٩٥٢م
مجيدة	١٩٥٢م	—
علي	١٩٥٤م	١٩٥٥م
عبد الله	١٩٥٧م	١٩٩٢م
عبد الرحمٰن	١٩٦٠م	١٩٨٨م

والذي حدى بي لذكر تاريخ الولادة والوفاة ليعلم القارىء لسيرة الشيخ رحمه الله ما واجهه من مصائب؛ فقد كان بعض أبنائه لا يعيش أكثر من عام واحد، ومع ذٰلك كان راضياً بقضاء الله وقدره؛ فأسأل الله أن يعوضه عما أصابه بجنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

● وفاته يرحمه الله:

بدأ الشيخ في الضعف في نهاية عام ١٤١١هـ، وكان يشكو من البروستات منذ سنين، وقد أجرى عملية في مستشفى الملك خالد عام ١٤٠٧هـ، واستؤصل بعضها، ولٰكن لم يتماثل الشيخ للشفاء، بل استمر معه المرض.

واقترح عليه طبيب استشاري في مستشفى الشميسي بالرياض باستئصال الجزء المتبقي؛ فآثر الصبر، ورفض رأي الطبيب؛ لأنه يعلم قول النبي ﷺ: «ما يصيب المسلم من وَصَب ولا نَصَب ولا سُقْم ولا

حُزْن حتى الهم يهمه؛ إلا كفر الله به سيئاته»[1].

ثم لا زالت آلام البروستات تعاوده حتى حصل له نزيف مع البول عدة مرات. . .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الثلاثاء الموافق ١٦ / ٣ / ١٤١٥هـ أدخل الشيخ رحمه الله العناية المركزة بالمستشفى العسكري بالرياض، ثم أخرج من ذلك القسم في يوم الأحد ٢١ / ٣ / ١٤١٥هـ وهو يعاني من ألم شديد أيضاً في الكبد، وضعف في الكلى، ووجود سوائل في الرئتين، وهبوط في ضربات القلب، وظل بالمستشفى حتى وافاه الأجل المحتوم في يوم الخميس ٢٥ / ٣ / ١٤١٥هـ في حوالي الساعة السابعة صباحاً.

وكان ـ رحمه الله ـ قبل وفاته في كامل وعيه وفي حالة ذكر الله عز وجل؛ حتى ازداد ضيق نفسه، وهبط الضغط لتخرج روحه إلى بارئها.

وقد صُلي على جنازته عقب صلاة الجمعة في ٢٦ / ٣ / ١٤١٥هـ في جامع الإمام تركي بن عبد الله ـ الجامع الكبير ـ بالرياض، وكان إمام المسلمين في الصلاة على جنازته تلميذ الشيخ ـ رحمه الله ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ حفظه الله، عضو هيئة كبار العلماء، وكان ذلك اليوم يوماً عظيماً مشهوداً؛ حيث امتلأ الجامع الكبير بالمسلمين، واكتظت المواقف والشوارع المؤدية إلى المقبرة بمشيعي

---

(١) رواه البخاري في (المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ١٠ / ٩١)، ومسلم في (البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٢٥٧٣)، والترمذي في (الجنائز، باب ما جاء في ثواب المريض، ٩٦٦).

الشيخ ـ رحمه الله ـ، وحضر دفنه بمقبرة العود بالرياض جمع كبير من العلماء وطلبة العلم وتلامذة الفقيد، يغمرهم الحزن على فراقه، داعين الله جل وعلا أن يغفر له ويرحمه.

يقول الشيخ عبد الله بن حافظ الحكمي حفظه الله: «وإن كانت وفاته ـ رحمه الله ـ بعد أن جاوز التسعين عاماً؛ فقد كان رغم ما توالى عليه في السنين الأخيرة من العلل والأمراض مع كبر سنه تام الحواس، سليم الإدراك، لم يتغير في علمه».

● وصيته يرحمه الله:

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فأوصيكم أولادي وأقربائي وإخواني بتقوى الله وطاعته، والوقوف عند حدود شريعته، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تتمسكوا بما صح من سنة نبيه محمد ﷺ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم والشذوذ؛ فإن من شذ؛ شذ في النار، وإياكم ومخالطة الأشرار؛ فإنها عار وشنار، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً في الله متحابين؛ يكتب الله لكم العزة والقوة، ويمددكم برحمة منه وفضل، وصِلوا الأرحام، واجتنبوا القطيعة؛ فإن من وصل الرحم وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأكرموا الضيف، وارحموا الضعيف، وافعلوا الخير لعلكم تُرحمون.

أهلي! أولادي!

إذا أنا مت؛ فإياكم والنياحة، والندب، والصياح، ولطم الخدود، وشق الجيوب، ودعوى الجاهلية؛ فإنها مسخطة للرب، مضرة للعبد.

أولادي!

إذا أنا مت؛ فليغسلني رجل من إخواني أهل الخير، وليصلِّ عليَّ أهل التقوى والصلاح، وليعجل بدفني في الدولة التي أموت فيها، ومن أحبني؛ فليخلص لي الدعاء بالمغفرة ورحمة الله ورضوانه، وإن أحب أن يتصدق بشيء لله من ماله؛ فليفعل عسى الله أن ينفعني بذلك وينفعه به.

أولادي!

ليرحم كبيركم صغيركم، وليوقر صغيركم كبيركم، والحذر الحذر من الأثرة والتكالب على الدنيا؛ فإن متاعها قليل، وحطامها إلى الفناء، والآخرة هي دار القرار.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم[1].

● أعماله الخيرة يرحمه الله:

قال عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان؛ انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

---

(١) انظر إلى الوصية بخط الشيخ في الملحق.

(٢) رواه مسلم في (الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ١٦٣١)، وأبو داود (باب ما جاء في الصدقة عن الميت، ٣٨٨٠)، والترمذي في (الإحكام، باب الوقف، ١٣٧٦)، والنسائي في (الوصايا، باب فضل الصدقة عن الميت، ٦ / ٢٥١).

وأحسب أن الشيخ ـ رحمه الله ـ قد خلف هٰذه الأشياء الثلاث جميعها.

وللشيخ ـ رحمه الله ـ أعمال خيرية كثيرة؛ منها ما عرف في حياته، ومنها ما لم يعرف إلا بعد وفاته.

وقد أخبرني من لازم الشيخ ـ رحمه الله ـ عن كثير من أعماله الخيرية، ومن أعماله الخيرية ـ رحمه الله ـ التي لا تُنسى ما قام به من وقف منزله الواقع في مكة على دار الحديث الخيرية، وقد وقع في يدي صورة للوقف الذي وقفه الشيخ، وفيما يلي ذكره:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه... وبعد:

فقد وقَّفت أنا عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بيتي بحي السبهان، التابع لمكة المكرمة، المبني من طبقتين؛ على دار الحديث الخيرية، بشارع جياد بمكة المكرمة، وأستثني من ذٰلك سكناي ومعي أسرتي في الطبقة الأولى منه ما دمت حيّاً.

أرجو ثوابه من الله تعالى لي ولوالديَّ ولزوجتي ولأولادي الذكور والإناث الأحياء منهم والأموات.

وقعت على ذٰلك بشهادة الشهود، والله خير الشاهدين، أسأله سبحانه أن يتقبل ذٰلك مني، وينفع به طلبة العلم؛ إنه سميع مجيب.

تحريراً في ٦ من شهر محرم ١٤١١هـ.

الحمد لله وحده وبعد:

الوقف المذكور صحيح موافق للقواعد الشرعية، وقد اعترف به

عنـدي الـواقف الشيخ عبـد الرزاق المذكور حال كونه صحيح العقل والبدن، تقبل الله منه وضاعف مثوبته.

قاله وأثبته الفقير إلى عفو ربه عبد العزيز بن عبد الله بن باز، غفر الله له، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حُرِّر في ٨ / ١ / ١٤١١هـ

صورة لفضيلة مديـر دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة للإحاطة والحفظ والعمل بمقتضى الوقف[١].

وقـد أرسـل الشيخ علي بن عامـر بن عقلان الأسدي مدير دار الحديث الخيرية الرسالة التالية:

فضيـلة والـدنا الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية وفقه الله ومتعه بالصحة والعافية وزاده من فضله توفيقاً في الخير آمين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فقد تسلمت صورة من وقفيتكم لدار العامر بمكة المكرمة بحي السبهان على دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة، التي يشرف عليها سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله تعالى، بموجب الشروط التي ذكرتموها.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم؛ أن يتقبل منكم، ويجعل ذلك من الصدقة الجارية التي لا ينقطع عنكم ولكم أجرها وثوابها، وأن يضاعف لكم الأجر والمثوبة، كما أسأله أن يوفقنا ومن جاء بعدنا في دار

---

(١) انظر إلى صورة الوقف في الملحق.

الحـديث الخيرية للعمـل على الانتفـاع من هٰذا الـوقف لصـالح دار الحديث الخيرية وطلاب العلم فيها؛ إنه سبحانه سميع مجيب.

بارك الله في حياتكم في صحـة وعافية وزيادة في الخير، ونفع بعلمكم، وجزاكم الله عن العلم وطلابه خير الجزاء، آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ في نهاية حياته يوقف بعض كتبه؛ خدمةً للمسلمين، وإعانةً على نشر العلم.

كما كان له ـ رحمه الله ـ مساهمات في إقامة المكتبات الثقافية، ومن ذٰلك هٰذه الرسالة العجيبة التي أرسلها سماحة والدنا وشيخنا الشيخ عبـد العـزيز بن باز ـ وفقه الله ومتعنا بحياته ـ إلى سماحة الشيخ عبد الرزاق، وفيما يلي نص الرسالة:

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي وفقه الله آمين:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد يا محب:

قد عزمنـا هٰذه الأيام على فتح مكتبة تجارية مساهمة بعنوان دار الثقافة الإسلامية، ونحن في حاجة إلى قرض (٧٠٠٠) سبعة آلاف ريال لتسديد أجرة محل المكتبة وبعض لوازمها؛ فنرجوا منكم قرض المبلغ

---

(١) انظر صورة لهٰذه الوثيقة في الملحق.

وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ في نهاية حياته يوقف بعض كتبه؛ خدمةً للمسلمين، وإعانةً على نشر العلم.

المذكور وتسليمه بيد مدير المكتبة الشيخ محمد رشدي مفتي بن مصطفى، وعن قريب ـ إن شاء الله ـ تعاد إليكم.

شكر الله سعيكم، والله يتولاكم، والسلام.

وقد تم تسديد سماحة الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ هٰذا المبلغ، وفيما يلي رسالة الشيخ عبد الرزاق يقر فيها بأنه استلم المبلغ الذي أدانه للشيخ عبد العزيز بن باز ـ حفظه الله ـ:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تسلمت أنا عبد الرزاق عفيفي من الأخ الشيخ عبد الرحمٰن بن مقرن بصفته وكيل عن الشيخ عبد العزيز بن باز في شؤون دار الثقافة وتسديد المبالغ التي عليها من ثمن مبيعاتها مبلغاً وقدره (٥٠٠٠) خمسة آلاف ريال سعودي من أصل مبلغي طرف الشيخ باعتباره مشرفاً على الدار.

ثم تسلمت الباقي من ثمن الكتب أيضاً وصار المبلغ خالصاً.

تحريراً في ١٩ / ٧ / ١٣٨٣هـ
المقر بما فيه
عبد الرزاق عفيفي

ومن الأعمال التي تسجل في فضائل الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه في أثناء إدارته للمعهد العالي للقضاء كان هناك نقص في عدد المحاضرين؛ فقام الشيخ ـ رحمه الله ـ بالتدريس بالإضافة إلى إدارته للمعهد، وكان النظام ينص على أن المحاضر يتقاضى راتب معين،

ولٰكن لم يعلم أحـد أن الشيخ لا يتقاضى على تدريسه راتب إلا بعد سنوات، ولما نُقل الخبر إلى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم؛ عمَّد الجهات المسؤولة بصرف راتب للشيخ، وفيما يلي نص خطاب سماحة الشيخ:

عدد (٥٣٥٦)

١٥ / ١٠ / ١٣٨٨هـ

من محمد بن إبراهيم إلى فضيلة نائبنا لشؤون الكليات والمعاهد العلمية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

نظراً لعدم استكمال المعهد العالي للقضاء نصابه من المدرسين المتفرغين، وحاجته إلى أساتذة من ذوي المؤهلات العلمية العالية لإلقاء محاضرات على الطلاب في حدود ما هو مقرر نظاماً، ولمسيس الحاجة إلى تكليف فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي مدير المعهد بالمشاركة في هذا المجال؛ فقد عهدناه بإلقاء محاضرات في المدة من ٢٠ / ٧ / ٨٨هـ إلى أول رمضـان ٨٨هـ، وبلغ ما ألقاه خلال تلك المدة سبعة وأربعين محاضرة يستحق عليها مبلغ صافياً مقداره ألفان وتسع مئة وواحد ريال وخمساً وسبعين هللة بموجب البيانات المشفوعة بهٰذه؛ فعمدوا الجهة المختصة بصرفها له، والسلام عليكم.

الرئيس العام

* * * * *

الفصل التاسع
بعض المراثي التي نظمت في الشيخ

لما توفي هٰذا العَلَم العامل؛ أخذ شعراء عصره يرثون فقيدهم.

ومن تلك المـراثي مرثية الأستـاذ محمد بن سعد المشعان التي يقول فيها:

وقفتُ لكي أرثي العفيفي فصدَّني ... وجـومٌ وقـد حلَّ النوى وبكـاءُ

وقمتُ أعـزِّي فيه مَن رام علمَـهُ ... فقـالـوا: وهـل يسليكَ عنهُ عزاءُ

فعـدتُ أنـاجي ذكرياتٍ ترحَّلت ... وقـد ضمـنـي والشيخ ثَمَّ لقـاءُ

وأبصرتُ فيها الشيخَ يَرْقى بِعِلْمِهِ ... وعـاينتُ فيهـا الشيخَ وهُـو بهـاء

ونـاجيتُ فيها الشيخَ فازورَّ طيفهُ ... ومـا في ازورار الطيف منه جفاءُ

لقـد سار في درب الشريعة يافعاً ... يطير به عزم له وإبـاءُ

وأنفق في بسط الشـريعـة عُمـرَهُ ... يسـيرُ به خوفٌ له ورجـاءُ

ثمـانـون عامـاً والحياةُ مصـاعـدٌ ... ولـلشيخ فيهـا منهـجٌ وسنـاءُ

إذا المحفـلُ الراقي تناظرَ جمعهُ ... رأيت مقـال الشيخ فيه سخـاءُ

شواهــده الآيات جَلَّ دلـيلهـا ... وحـشـدٌ أحـاديث لهن صفـاءُ

يســربــل بالإقنـاع كلَّ مقـالـة ... فيصغي له الكُتَّـابُ والخـطبـاءُ

إلى عرصات الخلد يا وافر النُّهى لعلك عند الله حيث تشاءُ
وإنَّ قصيدي حينَ يندى بذكركُم حريٌّ بأن يندى به الشعراءُ

* * * * *

ومنها مرثية بعنوان (قدر الرجال)، كتبها محمود عبد النبي[1] محمد، الطالب في الدراسات العليا في قسم الشريعة الإسلامية في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وقد جاء فيها:

الشعرُ باكٍ والقصائدُ أدمعُ والقلبُ مذبوحُ المشاعرِ موجعُ
والحزنُ في شفتيَّ نزفٌ دائمٌ صعبٌ على العشّاقِ ألاَّ يفجعوا
وأسى الفجيعةِ ماثلٌ في خاطري في كل جسمي ليس يخلو موضعُ
وإذا كتمت لواعجي في أضلعي فضحت خفيَّ الحزن هذي الأضلعُ
ماذا دهى عيني تجمد دمعها وكأنها أخرى فليست تجزعُ
الهول أخرسها فغاضت لحظةً وكأنها في جوفها تتجمعُ
لتسيل حزناً كلها في دمعة ويسيل جسمي بعدها المتفجِّعُ
قلت بواكي المؤمنين بأرضنا لله هٰذا المشتكى والمفزعُ
يمضي الرجال وليس ثمة شاعرٌ يرثي الرجال كأننا لا نسمعُ
إنِّي ليحزنني ويقلق خاطري أنَّ المسافر ليس يوماً يرجعُ
وإذا بكيت فليس شيء راجعاً ماذا عساها تستردُّ الأدمعُ
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمةٍ لا تنفعُ
طوبى لأرضٍ كفَّنتك بثوبها ضمَّت فتيت المسك إذ يتضوَّعُ

---

(١) التعبيد لغير الله سبحانه وتعالى لا يجوز، والصواب في مثل هٰذا أن يقال: عبد رب النبي.

وعلت على بعض البقاع بفخرها فرنت إليها في أسىً تتطلَّعُ
«المجد أخسر والمكارم صفقةً من أنْ يعيش لها الهمام الأروعُ»
«والناس أنزل في زمانك منزلاً من أن تعايشهم وقدرك أرفعُ»
قدر الرجال ضياعهم في عمرهم ومماتهم والله ليس يضيِّعُ
وإذا غداً وفدوا عليه بفضله لبسوا الكرامة ليس عنهم تُنزَعُ
ضاقت عليهم في الحياة معايشٌ أمّا غداً فالعيش رغدٌ أوسعُ

*****

ومنها مرثية كتبها وليد بن إدريس بن عبد العزيز منيسي، تلميذ الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله تعالى:

هوى نجمُ عَبْدٍ في الأنامِ فأُفجعوا وذا الخطب جَلٌّ والمصابُ مُرَوِّعُ
فلله نعشٌ شيَّعوه عشيةً به الحلم والعلم الذي كان يُتبعُ
فيا عبدَ رزَّاق البرايا تركتنا ومنا قلوبٌ للفراق تَصَدَّعُ
فتسعون عاماً قد قضيت مجيدة بمصر ونجد فالبلاء موزعُ
وفي أزهر حزت العلوم بعرش مذ هب المالكيين الكرام تربعُ
لقد كنت ردءً للفقي[1] بمصرنا وقد كنتما حرباً على من تبدعوا
فكم قد نصرتم سنة لنبينا وفي أزمن عز النصير المشجع
فظلتم بأرض مصر نوراً ومفخراً وما زال فضلكم بها يتوسع
إلى أن دعيتم للبلاد فقمتم بنشر الفنون بين قوم تطلعوا
مع النفر الألى إليهم يشار بالـ ـبنان بنيتم ومعاهد تُرفع

(١) إشارة إلى دور الشيخ عبد الرزاق في مناصرة دعوى الشيخ حامد الفقي وتأسيس جماعة أنصار السنة بمصر.

مع ابن حميد والأمين وحبـرنـا   وأعني ابن بازٍ عطركم يتضـوَّعُ[1]
وفي هيئـة الكبـار صلتم وجلتم   وفي لجنـة الفتوى قلوب وأضلع
عزا أهــل مصـر فيكم أن تركتم   عبيد العـزيز حبـر برْمَا المُفَرَّعُ[2]
وأمــا بنجـد كم شهـاب أفضتم   عليهـم سيوبكم فأرووا وأرتعـوا
وتلميذك المحزون يأسى لفقدكم   وكـم من محبٍّ قلبـه يتـوجـع

* * * * *

ومنها مرثية أخرى بعنوان (طوى الجزيرة حتى جاءني خبر) حازت على المركز الثاني في مسابقة الشعر على مستوى جامعة الملك سعود عام ١٤١٥هـ، جاء فيها:

أيهـا المشتكي صروف الـزمـان   انقـع الشمس في أسـار الأواني
وابتغ الأرض خندقاً ـ طلع غيط ـ   والـسـمـا سلمـاً فلست بغـان
ليس للدهـر ذمـة الـخلصـان   لا ومـا كان خالـد الـشـنـآن
إنـمـا الـمـرء فيه دلـو قليب   يتـداعـى ما بين قاصٍ ودانِ
يعـتـلي مثـقـلاً ويكـبـو خواء   ساخـراً من سجـية الـمـيزان
لا يحـابي الورى ولٰكن له أنس   بمـضًّـاغ علقـم الـحـدثـان
والـليالـي كأنهـن الـغـوانـي   ناقضـات الـوصـال بالهجـران
حانـقـات عليك طوراً وطـوراً   لابـسـات خلائـق الإخـوان
فاسلُ عن صرفهن واقصد رحيب الـ   ـبـاع ذا الـعـلم والـحجـا والبيان

---

(١) إشارة إلى دور الشيخ عبد الرزاق في نشأة المعاهد الشرعية والمعهد العالي للقضاء ومع الشيخ عبد الله بن حميد والشيخ محمد الأمين الشنقيطي والشيخ ابن باز.

(٢) إشارة إلى أجل تلامذته بمصر: الشيخ عبد العزيز بن علي البرماوي.

حازم الـــرأي والـمـــذاهب شتى فارس والـــجــواد جم الـحـــران

ذاك عبــد الـــرزاق لمـــا تولـــى نفـــج الشـــر بعـد طول احتقـان

وخـــلا الـجـــو لليالـي فعـــادت طاحـــنـــات بكـــلكـــل وجـــران

يا إمـــامـــاً كأنـــه ضربـــة الـسيـ ـف إذا طيرت فؤاد الـــجـــبـــان

وكـــأن الـــنـــجـــوم ترنـــوا إلـــيه حين تهـــدي قوافـــل الـــركبـان

أغـفـلوا ذكـــره ومـــا عجـب أن يشغـــل الـمـــرء بالـــذي هو فانِ

فلقـــد أغـــفـــلوا الـقـيامـــة طرّاً وهـــو في الناس مثلها في الزمان

وادعـــوا موتـــه ومـــا مات لُكـــن مات من بعـــد فقـــده الثقـــلان

* * * * *



الفصل العاشر
ثناء أهل العلم عليه

يقـول الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ ـ حفظه الله ـ: «الشيخ أحد الأعلام الفضلاء الذين هيأ الله لهم فرصة تربية الأجيال، وهـو أحـد العلمـاء الـذين عُرِفوا بالجد والاجتهاد والإخلاص في أداء الـواجب، وهو ذو علم واسع، وله اطلاع في الحديث والتفسير والفقه وأصول اللغة العربية، وقد تخرج على يديه أفواج كثيرة، ويذكر له طلابه إخلاصه ومحافظته على أداء الواجب وجده واجتهاده، ولقد كان الشيخ عبد الرزاق يلقي دروساً بعد العشاء في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم في التفسير، وكانت دروسه نافعة وتوجيهاته قيمة».

يقول الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله ـ عن الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ: «إنه من أفاضل العلماء، ومن القـلائـل الـذين نرى منهم سمت أهل العلم، وأدبهم ولطفهم، وأناتهم وفقههم».

وقـال فيه: «التقيت به غير مرة في مواسم الحج، وكنت أستمع أحيانـاً إلى إجابته العلمية على استفتاءات الحجاج المتنوعة؛ فكانت

إجابات محكمة تدل على فقه دقيق واتباع ظاهر لمنهج السلف».

ويقول الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ـ حفظه الله ـ: «إن شيخنا عبد الرزاق عفيفي ـ يرحمه الله ـ شخصية علمية فذة؛ فهو شيخ المدرسين وقدوة العلماء السلفيين في هٰذا الوقت، فله الفضل بعد الله على كل متعلمي هٰذا الجيل ممن تخرجوا في الدراسات الشرعية؛ في التفسير، والحديث، والعقيدة، والأصول؛ فقد درس في كل مراحل التعليم من الثانوي والعالي والتخصصي، وكانت طريقته في التدريس طريقة فذة نادرة، وقد أعطاه الله القدرة على إيصال المعلومات إلى أذهان الطلاب بطريقة سهلة جذابة، مع جدِّيَّة حازمة وظرافة مليحة وحفظ للوقت.

وقد تأثر بهٰذه الطريقة كل من تتلمذ عليه؛ فصاروا يتميزون عن غيرهم من المدرسين، ولقد أفنى عمره المبارك في التدريس والإفتاء وعضوية هيئة كبار العلماء والدعوة إلى الله؛ إذ لا يقتصر نشاطه على التدريس المنهجي، بل كان يدرس في المسجد الحرام في أوقات المواسم وفي غيره من المساجد، ويحضر دروسه الجم الغفير من الناس، وكان يشارك بإلقاء المحاضرات والندوات في مختلف الأماكن، وكان يشرف على الرسائل العلمية في الماجستير والدكتوراه ويشارك في مناقشتها، وهٰكذا كان كل وقته يصرفه في نشر العلم والإفادة؛ حتى في آخر أيامه وهو يعاني من المرض؛ كان يستقبل الزائرين، ويجيب على تساؤلاتهم، ويرد على أسئلة المستفتين عن طريق الهاتف، والآن ولقد لقي ربه من ذا سيسد ثلمته؟!

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

إن مصابنا فيه كبير، وواجبنا أن نقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، رحم الله شيخنا أبا أحمد، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أولاده وأهله الصبر واحتساب الأجر».

وقال الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «الشيخ ـ يرحمه الله ـ ممن عُرف علمه وفضله وورعه، وهو أول من عمل في المعاهد العلمية، وكان وجوده فيها كسباً لها؛ لما له من سعة علم واطلاع وخبرة وفهم، وهي الآن خسرت خيرة الرجال والعلماء في الداخل والخارج، وقد لازمتُ الشيخ طويلاً واستفدت منه كثيراً».

وقال الشيخ عبد العزيز بن عبد المنعم: «درسني الشيخ في دار التوحيد عام ١٣٦٩هـ، ثم درست في المعهد العالي للقضاء عندما كان مديراً له، وعملت معه في التدريس بالمعاهد، وكان ـ يرحمه الله ـ مثالاً للعالم الباذل لجهده ووقته في الفتاوى والبحوث العلمية، كما كان دمث الأخلاق طيباً، والكل يألفه ويحبه، وبحسن خلقه نال ثقة الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان يأنس برأيه فيما يتعلق بالمناهج».

وقال الشيخ صالح بن غانم السدلان ـ حفظه الله ـ: «وأعتبره ـ الشيخ عبد الرزاق ـ كما يقول المثل: قلبه فوق لسانه؛ فهو لا يتكلم إلا بعد معرفته أبعاد ما يقول، ويعتبر من العلماء الأوائل، ولا تكاد تجلس معه قليلاً من الوقت؛ إلا وتخرج بفائدة علمية أو أدبية أو خلقية... وأعرفه لا يحب الكلام في أحد، كما تميز ـ رحمه الله ـ بوضوح العبارة، ولم أر مدرساً مثله في إيصال المعلومات وقلة الحشو...».

وقال الشيخ علي الرومي ـ حفظه الله ـ: «كان الشيخ أول من

باشر في المعهد العلمي بالرياض منذ أول يوم لافتتاحه في عام ١٣٧١هـ، وله اطلاع واسع ـ يرحمه الله ـ في الفقه والحديث والتفسير والتأريخ، وله علم في التاريخ والجغرافيا، وبرغم كبر سنه؛ فقد بقي في وعيه وذكائه وعلمه».

وقال الشيخ إبراهيم بن محمد عثمان ـ حفظه الله ـ: «كان الشيخ عبد الرزاق عميق التفكير، مطلعاً، يقلب الأفكار بعضها مع بعض، كما كان مفسراً من الطراز الأول؛ حتى إنك لتشعر أن الشيخ يستلهم التفسير استلهاماً».

وقال الشيخ سعود الفنيسان ـ حفظه الله : «كان لي الشرف بأن قام الشيخ بالإشراف على رسالة الدكتوراة، حيث استفدت منه في أثناء جلسات عدة معه من خلال ما لديه من معلومات وملاحظات ما لم أستفده في سني دراستي الجامعية كلها وما دونها وما بعدها، وقد كان للشيخ فضل في توحيد وتأسيس منهج الدراسات العليا في الجامعة، وبالأخص في تخصص التفسير وأصول الفقه، وكان من المقربين والمحبوبين جدّاً من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ حفظه الله ـ إلى آخر لحظة في حياته».

وقال الشيخ حمد الجنيدل ـ حفظه الله ـ: «كان ـ يرحمه الله ـ من العلم بمكان، وله طريقة مميزة في إلقاء الدروس، وتأثير عجيب على مستمعيه بأسلوب سهل متين وعلم جم وجوامع كلم، يتقن عدة علوم، من أبرزها: علم التفسير والعقيدة، والفقه وأصوله، وعلم المنطق، وشيئاً من علم الحديث، كان في علم التفسير أستاذاً، وفي كل ما أشرت إليه قمة يتمنى كل طالب علم أن يسمع له، وكان لا يدرس عن كتاب، بل

له حافظة قوية جدّاً، كما كانت له نكتة حلوة طريفة يعرفها كل من عاشره، مع صراحة تامة ببراءة وطهر.

وعندي من إملائه ما يزيد عن مئة ورقة من التفسير، كتبتها بقلمي في أثناء تدريسه لنا في المعهد العالي للقضاء، أعتبرها أنفس ما لدي في مكتبتي الخاصة، ولعل الله أن يسهل لنا إخراجها وطبعها».

«رحم الله الوالد الشيخ عبد الرزاق؛ فقد كان بحر علم زاخر، صدر عنه الكثير من طلبة العلم الشرعي، ولا سيما في هٰذه البلاد بخاصة، وإن فقده مما يؤلم، ولٰكن سنة الله ماضية وكل نفس ذائقة الموت... نسأل الله أن يسكنه فسيح جناته، وأن يغفر له، وأن يجزيه على ما قدم لأمة محمد خير الجزاء، ويرفع درجته مع الصالحين من عباده، وأن يخلفه على المسلمين بخير الخلف؛ إنه سميع قريب...».

ويقول الدكتور محمد بن لطفي الصباغ: «صحبته ما يزيد على اثنين وثلاثين عاماً، ما تركت مجلسه في أسبوع إلا أن يكون أحدنا مسافراً، وقلما كانت سفراتنا تطول، وقد جاورته سنين عديدة؛ فكان نعم الأستاذ والجار.

ولقد تعلمت منه في هٰذه الصحبة أموراً كثيرة؛ منها ما يتعلق بالناحية السلوكية، ومنها ما يتعلق بالناحية الشخصية... لقد كنت ألجأ إليه في كل أمر من هٰذه الأمور، وكان ـ رحمه الله ـ يمدني بالرأي السديد والتوجيه القويم، لقد أكرمه الله بالعقل المسدّد والعلم الواسع والرأي المحكم.

وعلى الرغم من تلمذتي عليه ما كان يعاملني إلا على أنني زميل له؛ تواضعاً منه وكرماً، أحسن الله إليه وجزاه عنا الخير».

وقال أيضاً: «منذ طفولتي إلى هٰذه الساعة وأنا أعاشر العلماء، أتتلمذ على أيديهم وأتلقى فهم أبحاثهم، ولا والله لم ألق عالماً مثله في سعة اطلاعه، ودقة استحضاره وحفظه، وسلامة منهجه، واستقامة حياته، وجولان ذهنه، وقدرته على إعطاء الحكم الدقيق في المسألة المطروحة، ومعاصرته لأحداث زمانه، لقد كان يعيش عصره، يدرك بعمق شراسة الغزو الفكري والاستعماري للمسلمين، ويعرف التيارات الفكرية والسياسية التي تسود العالم وتغزو بلاد المسلمين، يعرفها تمام المعرفة، وهٰذه صفة لم تكن موجودة في كثير من علماء عصره».

يقول الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي: «إن فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي يتصف بصفات يندر أن تجتمع في شخص: غزارة العلم، ورجاحة العقل، والزهد في الدنيا ومظاهرها، وحب الخير للآخرين، وبذل جاهه وماله في ذٰلك.

لقد امتاز ـ رحمه الله ـ عن غالب زملائه وأقرانه الذين درسوا في الأزهر وفي غيره من المؤسسات العلمية بشدة متابعته لسلف الأمة الصالح، وتركيزه في آرائه وتدريسه على العقيدة الإسلامية الصافية المرتبطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولقد كان يقوِّم كل بحث أو رأي في ضوء الأسس والأصول الصحيحة، التي التزمها السلف الصالح والأئمة الكبار حينما واجهوا الفلسفات المادية والاختلافات في الأصول والفروع».

ويقول الأستاذ محمد بن عبد الله الشريف: «كان ـ رحمه الله ـ يتميز بطيب المعشر، والزهد في الدنيا والبعد عن مباهجها ومظاهرها، وبالتواضع، واحترام وتقدير غيره مهما كانت منزلته، وقد حببه ذٰلك إلى كل من عرفه أو جالسه أو درس على يديه ونهل من مناهل علمه الغزير».

ويقول الشيخ عبد الله بن محمد العجلان: «لقد عرفت هٰذا الرجل أستاذاً في علوم الشريعة، واستمعت لدروسه، وتلقيت عنه في فترات مختلفة؛ فأدركت مكانته العلمية، وصدق لهجته، وسداد توجيهه، وجاورته في السكن؛ فكان خير جار، ورافقته في السفر؛ فكان نعم الرفيق والمؤانس، وجالسته؛ فرأيت فيه حسن الأدب وصواب الرأي، وتعرفت على بعض مراجعه في الدراسة وإعجابه ببعض العلماء وبعض الأئمة في بعض الأمور، كان تلميذاً مخلصاً على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، قرأ نتاجهما العلمي قراءة مكررة؛ حتى وعى ما فيهما عن قناعة، وتشرب فقههما ومنحاهما في الاجتهاد واستغلالهما في أخذ الأحكام من الأدلة الشرعية، وهو يُظهر الإعجاب بهما، ولا يخفى على مجالسه تقديره لهٰذين الإمامين الجليلين.

كما كان معجباً بحركة الإصلاح والتجديد في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومنهجه في الدعوة، وحسن معالجته للمشكلات التي تواجهه في دعوته».

يقول الأستاذ زهير الشاويش: «عرفت أستاذنا وفقيد الأمة الإسلامية قبل خمسين سنة، وتوثقت صلتي به منذ أربعين سنة على أمتن ما تكون الصلة، تغمده الله برحمته، ومنذ عرفته حتى يوم فقدته ما رأيت

منه؛ إلا العلم الغزير، .والأخلاق السامية، والنبرة الصادقة، والعقل الراجح، والورع الحقيقي، والترفع عن سفاسف الأمور، والصبر عند الملمات؛ مما لا تكاد تجده مجموعاً عند غيره من الرجال.

كان عالماً، عاملاً، ينشر العقيدة الصحيحة والتربية السليمة والأخلاق المحمدية؛ فكان مدرسة فريدة في جمع الناس على الخير».

ويقول الشيخ صالح بن عبد الرحمٰن الأطرم ـ حفظه الله ـ: «صفات الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ صفات العلماء الأفذاذ، الذين مضوا وسجل التاريخ لهم ما يبقى في المحاسن إلى يوم القيامة، والذين شملهم قول الرسول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»؛ لأنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم تعليماً وتدويناً.

والشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ جمع العلم والعقل؛ فيا سعادة من جمع العلم والعقل إذ لا يستغني أحدهما عن الآخر؛ فالعقل يزن به ما يقول ويفعل ويتأمل في العواقب، والعلم الشرعي يعرف به أحكام التصرفات في الأقوال والأفعال، والشيخ عبد الرزاق عفيفي نفع الله به في جميع مستويات الدراسة النظامية منذ أن بدأت النهضة العلمية النظامية في المملكة العربية السعودية، مع أنه شارك في حلق التدريس في مسجد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ أول ما قدم إلى الرياض في سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة وألف».

ويقول الشيخ عبد الله بن قعود ـ حفظه الله ـ: «منذ رأته عيناي وأنا لم أنقطع عنه، وهٰذه مما أحتسبها عند الله ـ جل وعلا ـ».

الفصل الحادي عشر
بعض الأقوال المأثورة عنه رحمه الله

يقول الشيخ عبد الله الحكمي ـ حفظه الله ـ: «كان ـ رحمه الله ـ شديد الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيمية، كثير الرجوع إلى مؤلفاته، وكان مما سمعته منه قوله: «لم أر لدى أكثر المؤلفين في العصور المتأخرة جديداً، بل تكرار لما ذكره من سبقهم؛ سوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ؛ فإنك تجد في مؤلفاته الكثير من العلم مما لم يُسبَق إليه».

وكان يقول عن بعض العلماء في بعض البلاد: «الطيب منهم أشعري؛ إلا من تتلمذ على كتب شيخ الإسلام».

وفي نقاش في حكم بعض المخدرات ذكر أحدهم بأن المشاهد في من يستعمل هٰذا أنه لا يغيب عقله ولا تتغير تصرفاته، قال: «هٰذا لا يقدح إذا ثبت تغيير في بعض الحالات؛ فقد رأيت في شبابي من المدمنين للخمر من يشرب الكثير منه ولا يتغير فيه شيء».

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: «لو لي من الأمر شيء أحرقت بعض كتب المذاهب».

يقول الشيخ ابن قعود ـ حفظه الله ـ: «لما أتى ـ رحمه الله ـ إلى المملكة أُعجب به الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ، وقال له: سأعطيك كتاب «الإنصاف» ـ وأراد أن يعرف مذهبه ـ. فقال: «أنا أعرف الإنصاف، ليس فيه (ﷺ) إلا في ثلاث مواضع».

وكان ـ رحمه الله ـ من أهل الحديث، وكان ـ رحمه الله ـ يقول في وصف تغير العصر وانقلاب المفاهيم: «بعض الناس الآن كنبت البصل: رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى»[1].

ويقول الشيخ عبد الله بن حافظ الحكمي ـ حفظه الله ـ أيضاً: «سمعت منه كلاماً في عدم الجهل بما يحل ويحرم، وأن الإنسان يعرف ذٰلك غالباً من نفسه؛ قال: «حتى الحيوان قد يدرك ذٰلك، ألا ترى الهرة إذا ناولتها قطعة اللحم أكلتها وهي بجوارك آمنة، وإذا غافلتك وخطفتها من غير رضىً منك؛ هربت بها بعيداً عنك»».

يقول الشيخ العلّامة ابن قعود ـ حفظه الله ـ: «كنا ندرس قول النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»، وأن قبر النبي ﷺ لم يعبد، فلما شرح الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ هٰذا الحديث؛ قال: «الصحيح أن قبر النبي ﷺ عُبد، والواقع شاهد على ذٰلك»» اهـ.

* * * * *

---

(١) سألت شيخنا العلامة ابن قعود ـ حفظه الله ـ عن هٰذه المقولة؟ فقال: «كان ـ رحمه الله ـ يقولها في بعض الأشخاص».

الفصل الثاني عشر
دروس مستفادة من حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ

المتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجد فيهما قصصاً كثيرة، وقد بين سبحانه أن الغرض من ذكر القصص وحياة الأمم وأخبار الماضين هو أخذ العظة والعبرة؛ قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١].

فأولو الألباب هم الذين يستفيدون من القصص، وبذلك يُفهم ما رُوي عن بعض السلف من كلمات تدل على اهتمامهم بالسير والتراجم.

يقول أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليَّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم»[١].

وقد بينت هذا الأمر في الجزء الأول من هذا الكتاب[٢].

والمتأمل في حياة الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ يجد أنها حياة متكاملة من عدة جوانب، ولذلك استنبطت بعض الدروس المفيدة لطلبة العلم من حياة هذا العَلَم الفذ الهمام، ومنها:

(١) «جامع بيان العلم وفضله»، «الإعلان بالتوبيخ» (٤٨).

(٢) راجعه إن شئت للتفصيل.

● أولا: الصبر:

الصبر منزلة عظيمة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، يتحلى بهٰذه الحلية أولو الألباب والعقول، وحقيقته أنه خلق فاضل من أخلاق النفس؛ يبعثها ويحملها على كل ما يجمل ويزين، ويصدها ويصرفها عن كل ما يقبح ويشين.

وقد بين العلماء ـ رحمهم الله ـ أن الصبر على ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر على معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله.

والناس يتفاوتون في هٰذه المراتب بتفاوت الإيمان في قلوبهم؛ فتجد من الناس من عنده صبر على طاعة الله، فيقوم مثلاً في الليلة المطيرة الباردة من الفراش الدافىء الوثير من أجل أن يصلي صلاة الفجر مثلاً، ومع ذٰلك لا تجد عنده صبر على معصية الله؛ فتجده يقترف الفواحش ولا يصبر عنها، ومن الناس من هو بالعكس، وأكملهم من عمل هٰذه المراتب الثلاث.

ولا يستكملها إلا من وقر الإيمان في قلبه، وذٰلك أن القلب إذا تعلق بالله سبحانه وتعالى، وأحبَّ الله ـ جل وعلا ـ؛ أصبحت النقم عنده نِعماً، والبلاء عافية، والمصائب محاسن يحمد الله سبحانه وتعالى عليها، ولذا كان بعض السلف يتلذذ بالبلاء كما نتلذذ بالعافية، وبعضهم إذا طال عليه الزمن ولم يصب بمصيبة؛ خشي على نفسه من عذاب الله سبحانه وتعالى، وظن أنه استدراج من الله.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الصابرين؛ فقال: ﴿**وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولٰئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولٰئك هم المهتدون**﴾.

وقال ﷺ: «الصبر ضياء. . .»[1]؛ يستضيء به المؤمن في عقبات الطريق.

وقال بعضهم:

صبرت فكان الصبر خير مغبة ... وهل جزع يجدي عليَّ فأجزع

ملكت دموع العين حتى رددتها ... إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

ولما كان الصبر بهٰذه المنزلة العظيمة والرتبة الرفيعة؛ كان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ من الصابرين المحتسبين ـ نحسبه كذٰلك والله حسيبه ـ.

والمتأمل في حياة الشيخ يجد أن هٰذه الصفة شملت جوانب حياته كلها، ونذكر لذٰلك بعض الأمثلة:

أولاً: الصبر في طلب العلم.

احترق الشيخ ـ رحمه الله ـ في أول حياته فأشرق في آخرها، يقول بعض العلماء: «من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة»، وطلب العلم لا يأتي براحة الأجساد بل لا بد فيه من سهر الليالي وإتعاب الجسد، ومن ظن أن العلم يأتي في يوم وليلة أو في سنة

---

(١) رواه مسلم في (الطهارة، باب فضل الوضوء، ٢٢٣)، والترمذي في (الدعوات / رقم ٣٥١٢)، والنسائي في (الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٥ / ٥).

أو في عشر سنوات، أو ظن أنه بقراءته لكتاب أو كتابين أنه سيصبح شيخاً للإسلام والمسلمين؛ فهو مخطىء في ظنه هٰذا.

فالشيخ ـ رحمه الله ـ كان صابراً في طلب العلم منذ بدأ في الطلب وحينما انتقل إلى الأزهر؛ فقد كان يتنقل من شيخ لآخر حتى يثبت عند عالم يشعر أنه يستفيد منه، وكان هٰذا يؤخره عن التخرج، ومع ذٰلك؛ فقد كان صابراً؛ لأنه لم يكن طالباً للشهادة، بل طالباً للعلم.

ثانياً: الصبر في الدعوة إلى الله.

الصبر من أهم صفات الداعية؛ فلا استمرار للدعوة بدون الصبر، ومن العوامل التي تثبت دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو صبرهم على أممهم؛ فقد مكث نوح عليه السلام في قومه تسع مئة وخمسين عاماً؛ كما قال سبحانه: ﴿**فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً**...﴾ [العنكبوت: ١٤]، كلها من أجل أن يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، كذٰلك نبينا ﷺ، والأمثلة الدالة على صبره أشهر من أن تشهر وأبين من أن تبين.

والداعية إلى الله سبحانه وتعالى تواجهه في طريق دعوته بعض العقبات التي تعوقه عن الاستمرار في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فإن لم يكن متسلحاً بهٰذا السلاح، وإلا وقع في زلات الطريق وتوقفت دعوته.

لقد كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يدعو إلى الله ويصبره على ما يصيبه من العوائق التي تصده عن ذٰلك، كما كان ـ رحمه الله ـ يواجه بعض الجفاة والأعراب؛ فكان يدعوهم باللين وبالكلمة الطيبة؛ اقتداءً بإمام

الدعاة ﷺ، فكان لكلماته المنورة بنور الكتاب والسنة وقع في قلوب الخاصة والعامة، وذلك بما حباه الله من فصاحة في اللسان وحجة في الكلام، والقصص التي ذكرتها في ثنايا الكتاب دالة على ما ذكرت.

ثالثاً: الصبر على المصائب.

يتعرض المسلم في حياته لبعض المصائب والابتلاءات حتى يُمتحن بها الصادق من الكاذب في دعوى الإيمان، قال سبحانه وتعالى في أول سورة العنكبوت: ﴿**آلم . أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقد تكون هذه المصائب تكفيراً للسيئات، أو رفعاً للدرجات، وقد تكون ابتلاءً واختباراً من رب البريات وخالق الأرض والسماوات.

تعرض الشيخ - رحمه الله - لمصائب في بدنه وأهله وولده؛ فكان فيها نعم العبد الصابر الشاكر لله سبحانه وتعالى.

ففي آخر حياته، أصبح لا يقوى على المشي؛ فكان - رحمه الله - يُدفع بالعربة إلى المسجد ومقر عمله.

أما إصابته في أهله؛ ففي إحدى الزيارات التي قامت بها زوجته لمصر منعت من العودة إلى أرض الإسلام نكاية بالشيخ - رحمه الله -؛ فصبر حتى انفرجت هذه الأزمة، وهاجرت زوجته إلى أرض الإسلام ودار السلام.

أما إصابته في أولاده وأبنائه؛ فكان - رحمه الله - يجمل القول في هذه البلية، ويقول: «إن الله ابتلاني في أولادي؛ فأسأله أن يصبرني

على ذٰلك»؛ فقد كان بعضهم لا يتم له سنة واحدة حتى يتوفى، ومنهم من توفي أثناء حرب مصر، ومنهم من توفي في حادث انفجار غاز.

ومعلوم أن فقد الولد ليس بالأمر السهل على النفس، ومع هٰذه المصائب كلها؛ فقد كان الشيخ ـ رحمه الله ـ صابراً محتسباً راضياً بقضاء الله وقدره.

وأسأل الله أن يكون صبره هٰذا من أسباب دخوله الجنة؛ فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «ما لعبدي المؤمن عِندي جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛ إلا الجنة»[1].

وروى البخاري أيضاً عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن النَّاس من مُسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنثَ؛ إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إيَّاهُم»[2].

● ثانياً: الدعوة إلى الله:

من الدروس المستفادة من حياته ـ رحمه الله ـ الحرص على

(١) رواه البخاري في (الرقاق، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله، ٨ / ١١٢)، وأحمد في «المسند» (٢ / ٤١٧، ٣ / ٤٤٣، ٤ / ٢٣٧، ٥ / ٢٥٣).

(٢) رواه البخاري في (الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، ١ / ٢١٧)، ومسلم في (البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، ٤ / ٢٠٢٨)، والنسائي في (الجنائز، باب من يتوفى له ثلاثة)، وابن ماجه في (الجنائز، باب ما جاء في ثواب من أصيب بولده، ١ / ٥١٢)، والترمذي في (الجنائز، باب ما جاء في ثواب من قدَّم ولداً، ٣ / ٣٧٥).

وانظر للفائدة: «فضل الجلد عند فقد الولد» للسيوطي.

هداية الناس وإرشادهم، ومعلوم أن الدعوة إلى الله فضلها عظيم وأجرها كبير عند الله سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾[1] [فصلت: ٣٣].

يقول الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسير الآية: «أي: لا أحد أحسن مقالاً ممن دعا الناس إلى عبادة الله وكان من الصالحين المؤتمرين والمسلمين وجوههم إليه تعالى في التوحيد»[1].

ولذا؛ فإنه يجب على طالب العلم أن يكون حريصاً على القيام بهٰذه الشعيرة العظيمة ـ الدعوة إلى الله ـ؛ فإنها شِعار الأنبياء والصالحين.

ومعلوم أن الإسلام رفض فكرة الاهتمام بالنفس، وقال ﷺ: «حب لأخيك ما تحب لنفسك»، فطالب العلم حينما يجد الراحة واللذة في التزامه بشرع الله سبحانه وتعالى؛ فإنه يحب أن يكون المسلمون كلهم ذٰلك الرجل؛ امتثالاً لقول النبي ﷺ.

والشيخ ـ رحمه الله ـ سلك هٰذا السبيل بالحكمة والموعظة الحسنة؛ امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النحل: ٢٥]؛ فكان ـ رحمه الله ـ يخاطب كل إنسان على قدر فهمه، وكان يعامل كل إنسان بما يليق به وبمكانته، وهٰذه لفتة عظيمة لطالب العلم ينبغي له أن يراعيها إذا تصدى للدعوة إلى الله سبحانه.

---

(١) «تفسير القاسمي» (١٤ / ٢٧٣).

كما أنه ـ رحمه الله ـ كان داعية هدى وخير في كل قطر حل فيه أو ارتحل؛ فكان في مصر يحرص على إلقاء المواعظ النافعة في المساجد ومجتمعات المسلمين، كما أنه ـ رحمه الله ـ كان حريصاً على إقامة المعاهد الدينية لتكون عوناً له في الدعوة إلى الله سبحانه ونشر العلم بين المسلمين.

● ثالثاً: الإذعان للدليل والرجوع للحق:

هٰذه الصفة لا يتحلى بها إلا العظماء ومن له قدم راسخة في العلم، وذٰلك أن الإنسان قد يخالف الدليل؛ لأنه لم يبلغه أو غير ذٰلك من الأسباب، فإذا ما عرف بالدليل؛ انقاد له وأذعن، وهٰذا ما كان عليه السلف الصالح من جمع بين القول والعمل، لذا كان الأئمة الأربعة ـ أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد ـ ومن انتهج نهجهم واقتفى أثرهم ولحق بركبهم يقولون: «إن صح الدليل؛ فهو مذهبنا».

كذٰلك من رسخ العلم في هٰذا الزمان نجده كثيراً ما يرددها، وقد سمعت هٰذه الكلمة كثيراً في دروس سماحة والدنا وشيخنا شيخ الإسلام والمسلمين عبد العزيز بن باز، وشيخنا العلامة عبد الله بن جبرين، والشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين.

وكلما كان الإنسان في العلم أرسخ كلما كان للدليل وللحق أرجع؛ لأنه يعلم أن الفتوى بلا دليل جرمها عظيم، ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هٰذا حلال وهٰذا حرام لتفتروا على الله الكذب**﴾[النحل: ١١٦].

أما بعض طلبة العلم؛ فنجد أنه إذا عرف مسألة وتبين له فيما بعد

أنه أخطأ؛ فإنه لا يتوب ولا يرجع لأنه يخشى أن يظهر في وجوه الناس صغيراً أو حقيراً، وهٰذه من الإملاءات التي يمليها الشيطان لبني آدم؛ ليغويهم ويصدهم عن دين الله، نعوذ بالله منه.

ومن هنا يُعلم أهمية أن يكون طالب العلم ملازماً لشيخ عالم حكيم ورع؛ لأنه يأخذ من أدبه قبل علمه، ومن خلقه قبل درره.

والشيخ ـ رحمه الله ـ كان رجَّاعاً للحق، أواباً إليه متى ظهر له، وقد ذكرت في ثنايا الترجمة شيئاً من هٰذا.

فعلى طالب العلم أن يكون حريصاً على التحلي بهٰذه الصفة؛ فهي سمة من سمات المتقين، وخصلة من خصال عباد الله الخيرين، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

● رابعاً: احترامه لآراء العلماء والمجتهدين:

قد يجتهد العالم في مسألة من المسائل فيخالف غيره من العلماء، وهٰذا كثير في الفروع الفقهية، والواجب أن لا يثرب بعضهم على بعض؛ لأن كل واحد منهم لم يحكم في المسألة إلا بعد تروي وتفكير، لذا نجد أن العلماء الربانيين يحترمون آراء بعضهم البعض.

أما بعض طلبة العلم؛ فللأسف يجلبون بخيلهم ورجلهم في التقليل من العالم الذي يفتي بخلاف ما يرومون، وقد يكون بعضهم لم يمض له في الطلب إلا سنة أو سنتين، ومع ذٰلك ترى بعض الألفاظ التي تدل على ما ذكرته؛ مثل: «ما كنت أظن أن العالم الفلاني يفتي بهٰذا القول»، أو «هداه الله»؛ يقصد بها الحط منه، أو «كلٌّ يخطىء ويصيب»، أو «هٰذه من شطحاته»، أو «هو وشأنه» أو «أنا لا أدري كيف يفتي الشيخ

بهٰذه الفتوى؛ لعله سها، لعلـه أُجبِر؟!»، ونحو ذٰلك، وتجد أكثر من يتلفظ بهٰذه الألفاظ هم من المبتدئين في طلب العلم.

وهنـاك بعض القضـايا الكبـار التي لا يتصـدى لهـا إلا جهابذة العلماء، ولٰكن الناظر يرى أن بعض صغار طلبة العلم ـ لا أقصد في سنهم فحسب، بل في علمهم أيضاً ـ يتصدون لها ويردون على أكابر العلماء.

وتجد أن بعض المسائل تعقد من أجلها المؤتمرات وتؤجل أكثر من مرة حتى يفصل فيها، ومع ذٰلك تجد أن بعض المبتدئين يتصدى لها ويرد على أولٰئـك العلماء الذين قد يكون اجتماعهم على حكم معين إجماعاً لا تجوز مخالفته.

فعلى طالب العلم أن يحرص على أن ينقي لسانه من الكلام في العلماء والتنقص منهم ومن علمهم؛ فإن لحومهم مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصهم معلومة.

وإذا تأمـل طالب العلم في السبب الذي صدَّ بعض الناس عن الاستفادة من علم ابن حزم الظاهري ـ رحمه الله ـ عرف أنه لسانه؛ فقد كان سليطاً على العلماء ومن يخالفهم في الرأي، لذا قال أبو العباس ابن العريف: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين»، مع أنه كان كما قال أبو القاسم صاعد بن أحمد: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حَظِّه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار»[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ١٨٧).

قال الـذهبي ـ رحمـه الله ـ: «وقـد امتُحن لتـطويل لسـانه في العلمـاء، وشُـرِّد عن وطنه؛ فنزل بقرية له، وجرت له أمورٌ، وقام عليه جمـاعـة من المـالكية، وجـرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومنافرات، ونفَّروا منه ملوك الناحية، فأقصته الدولة، وأحرقت مجلدات من كتبه، وتحول إلى بادية كَبْلَة في قرية»[1].

أمـا الشيخ عبـد الـرزاق ـ رحمه الله ـ؛ فلم يكن متعصباً لرأي معين، بل كان يقول: «في الأمر سعة، وكلٌّ له مأخذ من دليل».

فيا طلبة العلم! اجعلوا الفتوى للعلماء والمسائل الكبار للكبار.

خامساً: البعد عن الشهوة الخفية:

العلم كأي عبادة من العبادات يفتقر إلى إخلاص النية لله جل وعلا، والعلم إذا افتقد الإخلاص؛ «انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات»[2].

ومن أعـظم الأمـور التي تفسـد على العـالم علمه وتفسد عليه إخلاصه طلب الشهرة بعلمه؛ فإنه أشد إفساداً لعلم العالم من إفساد النار للهشيم، ومحبة الشهرة علامة نقص الإيمان وقاصمة للظهر في الدنيا والآخرة.

وقـد بين المصـطفى ﷺ خطر الشهرة على العالم بتشبيه عظيم يجعل من يسمعه أو يقرأه يحذر على نفسه من هٰذا الداء الخطير؛ فعن

---

(١) مرجع سابق (١٨ / ١٩٨).

(٢) «حلية طالب العلم» (٩).

كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(١).

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في شرح الحديث: «هٰذا مثل عظيم جدّاً ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذٰلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم، قد غاب عنها رعَاؤُها ليلاً؛ فهما يأكلان من الغنم ويفترسان فيها، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هٰذه إلا قليل؛ فأخبر النبي ﷺ أن حِرصَ المرء على المالِ والشرفِ إفساد لِدِيْنِهِ ليس بأقلَّ مِن إفساد الذئبين لهٰذه الغنم، بلْ إما أن يكون مساوياً وإما أكثر، يشير إلى أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرْصِهِ على المال والشرف في الدنيا إلا قليل، كما أنه لا يسلمُ من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل؛ فهٰذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شرِّ الحرص على المال والشرف في الدنيا»(٢).

وهٰذه الشهرة التي هٰذا وصفها هي الشهوة الخفية، يقول خالد بن نزار بن سفيان ـ رحمه الله ـ: «الشهوة الخفية: الذي يحب أن يُحمد

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣ / ٤٥٦)، والترمذي في (الزهد، باب رقم ٤٣، ورقمه ٢٣٧٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» كما في «الأطراف» للمزي (رقم ١١١٣٦)، والطبراني (١٩ / ١٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ٣٢٢٨) ترتيب ابن بلبان، والبغوي (٤٠٥٤).

(٢) «شرح حديث ما ذئبان جائعان» (١٩).

على البر»[1].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ «القسم الثاني[2]: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية؛ كالعلم، والعمل، والزهد؛ فهٰذا أفحش من الأول[2]، وأقبح وأشدُّ فساداً وخطراً؛ فإن العلمَ والعمَل والزهد إنما يُطلبُ به ما عند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم والقرب منه والزلفى لديه».

قال الثوريُّ ـ رحمه الله ـ: «إنما فضل العلم؛ لأنه يتقى به الله، وإلا كان كسائر الأشياء، فإذا طَلَبَ بشيءٍ من هٰذا عرض الدنيا الفاني؛ فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يطلبَ به المالَ؛ فهٰذا منْ نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرَّمةِ، وفي هٰذا جاء الحديث عن النبي ﷺ: «من تعلم عِلماً يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا؛ لمْ يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[3]؛ يعني: ريحها...

وسبب هٰذا ـ والله أعلم ـ أن في الدنيا جنةً معجَّلَةً، وهي معرفةُ الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذٰلك، فمن دلَّهُ علمه على دخول هٰذه الجنة المعجَّلَةِ في الدنيا؛ دخلَ الجنة في الآخرة، ومن لم يشمَّ رائحتَها؛ لم يشمَّ رائحة الجنة في الآخرة...

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ٦٨١ ـ ٦٨٢).

(٢) من أقسام الحرص على الشرف.

(٣) أخرجه ابن ماجه في (المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ٢٥٤).

وكـان أبو سليمان الدارانيُّ يعيبُ على مَنْ لَبِسَ عباءةً وفي قلبه شهوةٌ من شهوات الدنيا تُساوي أكثر من قيمة العباءة، يشير إلى أن إظهارَ الزهد في الدنيا باللباس الديني إنما يصلح لمن فرَّغَ قَلْبَه من التعلق بها، بحيث لا يتعلقُ قلبه بها بأكثر من قيمة ما لبسه في الظاهر؛ حتَّى يستوي ظاهره وباطنه في الفراغِ من الدُّنيا...

النـوع الثـاني: مَنْ يطلب بالعلمِ والعملِ والزُّهد الرياسةَ على الخلق والتعـاظُمَ عليهمْ، وأنْ ينقـاد الخلقُ ويخضعون له، ويصرفون وجوهَهم إليه، وأن يُظْهِرَ للناس زيادة عِلْمِهِ على العلماء ليَعْلُوَ بِهِ عليهمْ، ونحـو ذٰلكَ؛ فهٰذا موعده النَّارُ؛ لأن قصدَ التَّكَبُّر على الخْلقِ محرَّم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلةَ الآخرةِ؛ كانت أقبحَ وأفحشَ من أن يستعملَ فيه آلاتِ الدنيا من المال والسلطان.

وفـي «الـسـنـن» عن النبي ﷺ: «من طلب العِلْمَ ليمـاريَ به السفهاءَ، أو يجاريَ به العلماءَ، أو يصرف وجوه الناس إليهِ؛ أدخله الله النار»[١].

وقال بعض السلف: «بلغنا أن الذي يطلب الأحاديث ليتحدَّث بها لا يجدُ ريح الجنةِ؛ يعني: مَنْ ليس له غرَضٌ في طلبها إلا أنْ يحدِّث بها دون العمل بها»[٢].

والشيخ عبـد الـرزاق ـ رحمـه الله ـ كان من العلمـاء العـاملين

---

(١) أخرجه الترمذي في (العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، ٢٦٥٦)، وابن ماجه (رقم ٢٥٣).

(٢) «شرح حديث ما ذئبان جائعان» (ص ٤٧ ـ ٥٤).

ـ نحسبه كذلك والله حسيبه ولا نزكي على الله أحداً ـ من البعيدين عن الأضواء والشهرة ومحبة أن يراه الناس ويعرفوه.

ولست أقصد من هٰذا الدرس الذي أُخذ من سيرة الشيخ ـ رحمه الله ـ أن طالب العلم يترك الناس وينطوي على نفسه ولا ينصحهم ولا ينفعهم، بل قصدت أن السائر في الطلب والدعوة يكون على بصيرة من أمره حتى لا يأتيه الشيطان من مدخل يجهل كونه يحبط عمله.

وإلا لو قعد كل إنسان عن نفع الناس؛ لما كان للنبوة فائدة، ولما ظهر في الأمة علماء بارزون؛ أمثال الأئمة الأربعة، وشيخ الإسلام، وابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد العزيز بن باز، وغيرهم من العلماء الربانيين الذين نفعوا البلاد والعباد وكانوا كالغيث، كلما حلوا أرضاً مجدبة أحيوها بنور العلم والإيمان.

● سادساً: الإلمام بأكثر من فن:

طالب العلم الذي يروم أن يكون من العلماء المجتهدين لا بد له أن يأخذ من كل علم، ولا يقتصر على علمٍ واحد، ولا يفعل ما يسمى بالتخصص؛ بحيث يأخذ بعلم ويترك كل ما سواه، وهٰذا ما أفسد حقيقة العلماء في هٰذا العصر.

قال بعض العلماء: «ومن أراد أن يكون عالماً أخذ من كل علم بنصيب»[1].

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ٥٢٢).

ومِمَّن عُرِف من العلماء بتبحره في العلوم ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ، يقول في نصيحة الولد: «ولم أقنع بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة. . .»[1].

والشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ كان موسوعيَّ المعرفة؛ فكان له مع كل علم شأن؛ فهو عالم بالتفسير والأصول والفقه والحديث واللغة وسائر العلوم، وكان ـ رحمه الله ـ يطّلع على ما عند غير المسلمين من علوم من خلال قراءته لكتبهم، كذٰلك كان ـ رحمه الله ـ يقرأ في التوراة والإنجيل ليرد على اليهود والنصارى كما أخبرني بعض المقربين له.

● سابعاً: اعتناؤه بتلاميذه:

كانت عنايته ـ رحمه الله ـ بتلاميذه منقطعة النظير، وذٰلك من عدة جوانب:

أولاً: إرشادهم للمذهب السلفي.

كان ـ رحمه الله ـ يحثهم على مذهب أهل السنة والجماعة وعلى قراءة كتبهم وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكان يحذرهم من سلوك المناهج المنحرفة أو القراءة في كتب المبتدعة.

ثانياً: إذا رأى من أحد الطلاب تجاوزاً مع زملائه أو مع الشيخ نفسه؛ زجره وأنَّبه، ومن ذٰلك أن أحد التلاميذ ناقشه في مسألة فأكثر من ذكر الأدلة؛ فبين الشيخ ـ رحمه الله ـ بفراسته أن هٰذه الأدلة التي تستدل بها أخذتها من كتاب ابن كثير؛ فنهاه عن هٰذا الأسلوب، وذٰلك أن بعض

---

(١) (ص ٣٦).

الطلبة يريد أن يوقع شيخه أو يظهر له أنه على علم غزير، فيحضِّر لمسألة من المسائل ثم يبدأ في السؤال، وكل ما يجيب الشيخ يعرض عليه باعتراض حتى يفحم الشيخ، وهٰذا سوء أدب مع النفس ومع الشيخ ومع طلبة الشيخ.

وهنا لفتة لمن تصدى للتدريس وإرشاد الناس؛ أن يتقي الله في طلابه ومن ثنوا أنفسهم عند ركبتيه؛ فينبغي له أن يحذِّرهم ويرشدهم، ويقول للمخطىء: أخطأت، وللمصيب: أصبت، ولا يكون كبعضهم يخشى إذا وجّه لتلميذه نصيحة أو عنَّفه أن ينصرف عنه؛ فلا بد من الحزم والرفق بالطالب.

وينبغي للمعلم أيضاً أن يبين للطلاب أن من أسباب الاستمرار في طلب العلم الصبر على نصائح المعلم وإن كانت قاسية، وأن ذٰلك في مصلحتهم، كما ينبغي له أن يظهر لهم أنه مشفق عليهم، وما قسا عليهم إلا شفقة بهم.

قسا ليزدجروا ومن يكن حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

وعلى طالب العلم أن يصبر على التعلم من شيخه ولو كان الشيخ جافياً.

يقول بعض السلف: «من لم يصبر على ذل التعليم ساعة؛ بقي عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عليه؛ آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة».

قال بعضهم:

اصبر لدائك إن جفوت طبيبه   واصبر لجهلك إن جفوت معلماً

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «قيل لسفيان بن عيينة: إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم يوشك أن يذهبوا ويتركوك. فقال للقائل: هم حمقى إذاً مثلك إن تركوا ما ينفعهم لسوء خلقي».

● ثامناً: من المهد إلى اللحد:

طلب العلم ليس له وقت محدد، بل هو يطلبه من المهد إلى اللحد، ومن ظن أن للعلم وقتاً محدداً؛ فهو جاهل كما قال أبو غسان ـ رحمه الله ـ: «لا تزال عالماً ما كنت متعلماً، فإذا استغنيت؛ كنت جاهلاً».

وقيل لابن المبارك ـ رحمه الله ـ إلى متى تطلب العلم؟ قال: «حتى الممات إن شاء الله».

وقيل له مرة أخرى مثل ذلك؛ فقال: «لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد».

وقال ابن المناذر: سألت أبا عمرو بن العلاء: «حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة»[1].

وهكذا كان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ كما وصفه من لازمه حريصاً على استغلال وقته فيما يعود عليه بالنفع، واستمرت معه هذه الملازمة حتى توفاه رب العالمين سبحانه وتعالى.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ٤٠٦ ـ ٤٠٨).

● **تاسعا: تأثره بقضايا المسلمين:**

المسلم الحق هو الـذي يتفقد أحوال إخوانه المسلمين في شتى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن المسلمين لا تحدهم حدود جغرافية ولا تفرق بينهم الجنسيات؛ لأنهم كالجسد الواحد كما وصفهم النبي ﷺ.

كان الشيخ ـ رحمــه الله ـ حريصاً على التعـرف على أحـوال المسلمين في كل قطر من أقطار الدنيا، وكان يدعم من يستطيع بماله، كما كان ـ رحمه الله ـ يبين للناس خطر اليهود والنصارى على المسلمين ويحذر من مخططاتهم.

وهٰذا هو حال المسلم؛ يهتم بشؤون المسلمين، ويحرص على أن يرتقوا إلى أعلى المستويات.

● **عاشرا: نفعه للمسلمين:**

كان منزله ـ رحمه الله ـ مفتوحاً لكل من أراد فائدة أو فتوى تتعلق بأمور الدين أو الدنيا، ولم يكن نفعه خاصّاً بطلبة العلم فحسب؛ بل لكل طبقات المجتمع.

كان ـ رحمه الله ـ يبذل جاهه وماله من أجل شفاعة حسنة يرجو ثوابها عند الله، ولدي في مذكراتي الخاصة نماذج من هٰذه الشفاعات.





الخاتمة

هٰذه الترجمة التي قدمتها عن حياة الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي ـ رحمه الله ـ ما هي إلا جزء يسير من سيرة هٰذا العالم الفذ الهمام، والذي فقد المسلمون بموته شخصية عظيمة تنفعهم من حيث لا يشعرون.

فعلى المسلمين أن يعرفوا لعلمائهم حقهم، وأن يكرموهم؛ فبهم تحفظ الشريعة، وموتهم ثلمة في الإسلام.

وأنا على يقين بأن هٰذه الترجمة لن تفيَ بحق شخصية عظيمة ضحت بالنفس والنفيس خدمة للإسلام والمسلمين، ولٰكن ما لا يدرك جله لا يترك كله.

أسأل الله أن يرحم الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي رحمة واسعة، وأن يسكنه فسيح جناته، وأن ينزله منزلة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولٰئك رفيقاً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



الملاحق



براءة منح شهادة التخصص في فقه المالكية والأصول

من فاروق ملك مصر بعناية الله تعالى

إلى حضرة العلامة الشيخ عبد الرازق عفيفي عطية النوبي المالكي من شنشور

بمركز أشمون بمديرية المنوفية

رفع إلينا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ما أقره المجلس الأعلى للأزهر

في ١٤ رمضان ١٣٥٥ (٢٨ نوفمبر ١٩٣٦) من نجاحكم في الامتحان النهائي لقسم التخصص بالجامع الأزهر الذي أجري

سنة ١٣٥٥ واستحقاقكم شهادة التخصص في فقه المالكية والأصول

لذلك أردنا بصدور إرادتنا الملكية هذه من ديواننا بمنحكم هذه الشهادة مع حقوقها التي تخولها إياها

القوانين والأوامر المتبعة فعلى الله نسأل أن يكلل بالعلم ويوفقكم لما فيه الخير

تحريرا بسراي عابدين الملكية بالقاهرة في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين

من هجرة سيد المرسلين .

مجلس الوصاية

[illegible]

بأمر مجلس الوصاية الموقر

رئيس ديوان مولانا الملك بالنيابة

[illegible]

سجل برقم : ٢٨٦ تم تسليمه لصاحبه بتوكيل ... عبد الرازق عفيفي عطية

بسم الله الرحمن الرحيم

براءة بمنح شهادة العالمية

من فؤاد الأول ملك مصر بعناية الله تعالى

إلى حضرة الشيخ عبد الرازق عفيفي عطية النوبي المالكي من شنشور بمركز أشمون بمديرية المنوفية

رفع إلينا صاحب العزة وزير الأوقاف ورئيس مجلس الأزهر الأعلى في ١٤ ربيع الثاني ١٣٥١

(١٦ أغسطس ١٩٣٢) من نجاحكم في امتحان شهادة العالمية الذي أجري بالجامع الأزهر في ١٣٥٠

فنحن الآمر بإصدار براءتنا الملكية هذه من ديواننا بمنحكم شهادة العالمية مع حقوقها التي تخولها لكم القوانين

والأوامر المتبعة ، نفع الله الناس بعلمكم ووفقكم لما فيه الخير

تحريرًا بسراي عابدين الملكية بالقاهرة في اليوم الثالث والعشرين من شهر المحرم سنة ألف وثلاثمائة واثنين وخمسين

من هجرة سيد المرسلين .

سجل رقم ٢٧٥٦

صدر بأمر مولاي الملك المعظم

رئيس ديوان جلالته العالية

((مبحث في أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن وأنهما باقيتان لا تفنيان))

تقرير المبحث: يتضمن أمرين: الأول أن الجنة والنار موجودتان الآن، والثاني بقاؤهما أبد الآبدين، وفي كل منهما خلاف بين العلماء. وفيما يلي بيان مذهب أهل السنة في كل من الأمرين مع الدليل:

الأمر الأول: اعتقد أهل السنة على أن الجنة والنار موجودتان الآن في الدنيا، ولم يزل [illegible] الذين [illegible] والمعتزلة [illegible] بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

أما الكتاب فقوله تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) وقوله تعالى: (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فدل التعبير عنه بالإعداد والمضي لأنه يفيد بالفعل الماضي على أنها موجودة بالفعل في الدنيا. وقوله تعالى: (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) وقوله: (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) وقوله: (إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا) فدل التعبير بالماضي على أن النار موجودة فعلا. وأما السنة فالأحاديث الدالة على وجودهما الآن كثيرة منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضا، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها) فهذا الحديث صريح في أن كلا من الجنة والنار مخلوقتان لأهلهما. وروى مالك في الموطأ وأصحاب السنن من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم القيامة) وفي حديث [illegible] أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الجنة والنار [illegible] وثبت أن الله أسكن آدم وحواء الجنة قبل أن يخرجهما منها [illegible]

وأما الإجماع فإن صدر هذه الأمة لم يزالوا على القول بوجودهما في الدنيا حتى نبغت نابتة من القدرية والمعتزلة فأنكرت ذلك، وهم محجوجون بالنصوص وبإجماع الأمة قبل وجودهم.

١- وقد روى البخاري ومسلم حديث دعاء الكرب ونصه (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم)

((مبحث العرش والكرسي وما يتعلق بهما))

العرش والكرسي كلاهما موجود، والعرش محمول من الملائكة يحملونه فوقهم، قال الله تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا)، وقال تعالى: (وسع كرسيه السموات والأرض)، وقد ميز الله العرش بنسبته إليه، وخصه بالتمدح باستوائه عليه، قال تعالى: (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وقال: (ذو العرش المجيد) وقال: (رفيع الدرجات ذو العرش) وقال: (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) وقال: (الرحمن على العرش استوى) وقال في أكثر من آية (ثم استوى على العرش) فدل ذلك على وجوده وامتيازه واستواء الله عليه، كما دلت الآية الثانية على وجود الكرسي ....

واختلف في صفة العرش وموقعه من المخلوقات، فقيل: إن العرش مثل القبة فوق المخلوقات، واستدل لذلك بما رواه أبو داود وغيره في حديث الأطيط من قوله صلى الله عليه وسلم: (إن عرشه على سمواته لهكذا، وقال بأصابعه، مثل القبة) أي أشار بأصابعه إشارة تدل على أن العرش يشبه القبة لكنه حديث ضعيف الإسناد، واستدل لذلك أيضا بما رواه البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن) فهذا الدليل على أن العرش كالقبة فوق السموات من جانب واحد، فإن السموات محيطة بالأرض ومع ذلك فهي كالقبة بالنسبة لكل جماعة على سطح الأرض من الجهة التي تليهم، وقيل: إن العرش فلك مستدير محيط بالعالم من كل جهة، وربما سماه أصحاب هذا القول الفلك الأطلس أو الفلك التاسع، ورد هذا بأن للعرش قوائم، لما ورد في حديث بيان النبي صلى الله عليه وسلم فضل موسى عليه الصلاة والسلام فقد قال صلى الله عليه وسلم: (فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور) فالظاهر أنه ليس كرة بل على قوائم، وأن الملائكة تحمله من هذه القوائم، وأيضا العرش في اللغة السرير الذي أعد للملك ليجلس عليه، والقرآن نزل بلغة العرب، وإذن فليس العرش فلكا مستديرا، بل هو كالقبة على العالم و [illegible] المخلوقات، ولذا استشهد لكونه سريرا بشعر أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريرا

واستشهد لذلك أيضا بما ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة، من أن عبد الله بن رواحة أنشد لامرأته شعرا بدل القراءة حينما اتهمته بجاريته ليوهمها به أنه قرآن، وأنه ليس بجنب، قال:

(ت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا)

١- وجوب ... يوم القيامة

(وجوب الإيمان بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان)

١- البعث: هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم يوم القيامة، ويسمى يوم المعاد لإعادة الأرواح إلى الأبدان وتعود إليها الحياة، ويسمى أيضاً يوم النشور لانتشار المخلوقات إلى الموقف، ويسمى يوم الدين، لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي يجزون عليها.

وقد دل الكتاب والسنة والإجماع على وجوب الإيمان ببعث الأبدان بعد مفارقة الأرواح لها، كما اتفقت جميع الأنبياء السابقين على الإخبار بذلك ووجوب الإيمان به. قال الله تعالى مخاطباً آدم وذريته وإبليس: (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)، وقال تعالى في بيان دعوة نوح قومه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: (والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً)، وقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، وقال تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام: (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى)، وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) اعترفوا بأن الرسل قد تلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم اليوم الآخر كما قال تعالى عنهم: (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)، وأمر سبحانه نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقسم بربه على البعث والجزاء، فقال: (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)، وذم تعالى من يشك في يوم القيامة أو يكذب به أو يماري فيه، قال تعالى: (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) وقال: (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) وقال: (ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد)، وقال في بيان جزاء الكافرين بالبعث: (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً) ورد عليهم هذه الشبهة بدليل ... بين فيه أن من قدر على خلق ما هو أعظم منهم كالسموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وأن يعيدهم بعد موتهم، فقال تعالى: (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) وقال: (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال: (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) واستدل على قدرته على الإعادة بقدرته على البدء فقال: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

الرقم :
التاريخ :
المرفقات :
الموضوع :

وصيـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد فأوصيكم أولادي وأقاربي وإخواني بتقوى الله ومراقبته، والوقوف عند حدوده وشريعته وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تستمسكوا بما في كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم والشذوذ فإن من شذ شذ في النار، وإياكم ومخالطة الأشرار، فإنها عار وشنار، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا في [illegible] يجمعكم الإسلام [illegible] والعقيدة، [illegible] وصلوا الأرحام واجتنبوا القطيعة، فإن من وصل الرحم وصله الله ومن قطعها قطعه الله، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأكرموا الضيف وارحموا الضعيف وافعلوا الخير لعلكم ترحمون أهلي أولادي إذا مت فإياكم والنياحة والندب والصياح ولطم الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية فإن ذلك [illegible] للعبد

أولادي إذا مت [illegible] أهل الخير [illegible] أهل [illegible] والصلاح [illegible] في الدولة التي أموت فيها، ومن [illegible] وبالمغفرة والرحمة [illegible] وإن [illegible] بشيء من ماله فليفعل [illegible] بذلك [illegible]

أولادي: ليرحم كبيركم صغيركم، وليوقر صغيركم كبيركم، والحذر الحذر من الأثرة والإخلاد إلى الدنيا، فإن متاعها قليل، ومصيرها إلى الفناء، والآخرة هي دار القرار،

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم [illegible] عبدالرزاق عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

الرقم ....
التاريخ ....
المرفقات ....
الموضوع ....

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه .. وبعد :

لقد وقفت أنا عبد الرزاق بن عفيفي ابن عطية بيتي بحي الشبهان التابع لمكة المكرمة المبني من طابقين على دار الحديث الخيرية بشارع جياد بمكة المكرمة واستثنى من ذلك سكناي ومعي أسرتي في الطبقة الأولى منه ما دمت حيا .

أرجو ثوابه من الله تعالى لي ولوالدي ولزوجتي ولأولادي الذكور والإناث الأحياء منهم والأموات ، وقعت على ذلك بشهادة الشهود ، والله خير الشاهدين ، أسأله سبحانه أن يتقبل ذلك مني وينفع به طلبة العلم إنه سميع مجيب .. تحريرا في ٦ من شهر محرم ١٤١١هـ .

شاهد	شاهد	توقيع الموقف
عبد الله بن محمد الحمود [توقيع]	عبد العزيز بن عبد الرحمن الغديان [توقيع]	عبد الرزاق عفيفي [توقيع]

الحمد لله وحده وبعد : ١٤١١/١/٨

الوقف المذكور صحيح موافق للقواعد الشرعية وقد اعترف عندي الواقف الشيخ عبد الرزاق المذكور حال كونه صحيح العقل والبدن تقبل الله منه وضاعف مثوبته قاله وأملاه الفقير إلى عفو ربه عبد العزيز بن عبد الله بن باز غفر الله له وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم [ختم]

حرر في ١٤١١/١/٨هـ

صورة لفضيلة مدير دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة للاطلاع والحفظ والعمل بمقتضى هذا الوقف

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

دار الحديث الخيرية

بمكة المكرمة

الرقم ....

التاريخ ....

المرفقات ....

فضيلة والدنا الشيخ عبدالرزاق بن عفيفي بن عطية وفقه الله ومتعه بالصحة والعافية وزاده من فضله توفيقاً في الخير آمين .

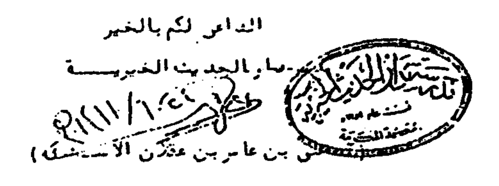
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد /

فقد تسلمت صورة من وقفيتكم لداركم العامر بمكة المكرمة بحي السبهاني على دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة التي يشرف عليها سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى بموجب الشروط التي ذكرتموها .

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتقبل منكم ويجعل ذلك من الصدقة الجارية التي لا ينقطع عنكم ولكم اجرها وثوابها وأن يضاعف لكم الأجر والمثوبة كما أسأله أن يوفقنا ومن جاء بعدنا في دار الحديث الخيرية للعمل على الانتفاع من هذا الوقف لصالح دار الحديث الخيرية وطلاب العلم فيها انه سبحانه سميع مجيب .

بارك في حياتكم في صحة وعافية وزيادة في الخير ونفع بعلمكم وعملكم وجزاكم الله عن العلم وطلابه خير الجزاء آمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ....



الداعي لكم بالخير

مدير دار الحديث الخيرية

(علي بن عامر بن عثمان الأستشكي)

ع ٥٢٥٦

٢٨/٦/٨٨ه

١١/١٥

(٩١)

من محمد بن ابراهيم الى فضيلة نائبنا لشئون الكليات والمعاهد العلمية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد .

نظرا لعدم استكمال المعهد العالي للقضاء نصابه من المدرسين المتفرغين وحاجته الى اساتذة من ذوى المؤهلات العلمية العالية لالقاء محاضرات على الطلاب في حدود ما هو مقرر لنا لها . ولمسيس الحاجة الى تكليف فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي مدير المعهد بالمشاركة في هذه المجال فقد عمدناه بالقاء محاضرات في المدة من ٢٠/٧/٨٨هـ الى اول رمضان ٨٨ هـ وبلغ ما القاه خلال تلك المدة سبعة واربعين محاضرة يستحق عليها مبلغ صافيا مقداره الفان وتسعمائة وواحد ريال وخمسا وسبعين هلله بموجب البيانات المشفوعة بهذ . فنعمد والجهة المختصة بصرفها له . والسلام عليكم؟؟؟

الرئيس العام

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
المكتب الخاص
مفتي ورئيس القضاة والكليات والمعاهد العلمية

الرقم : ٢١١٧٨
التاريخ : ٢٧/٥/١٣٨٥هـ
المشفوعات : ....

(١٠)

من محمد بن ابراهيم الى حضرة المكرم فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي / المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وبعد فلما نؤمله في فضيلتكم من القيام بادارة المعهد العالي للقضاء على الوجه الأكمل وبمقتضى الأنظمة والتعليمات الموضوعة لذلك فقد اسندنا الى فضيلتكم ادارته وعيناكم بتلك الوظيفة راجين من الله لنا ولكم التوفيق والسداد والسلام عليكم •،،،

الرئيس العام للكليات والمعاهد العلميه



فضيلة المدير العام للكليات والمعاهد العلمية الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :ـ

فاجابة عن كتابكم رقم ٢٠٨٧/٤٧١/٥/ل وتاريخ ٢٦/٦/٨٧هـ. الذي تطلبون فيه بيانا عن عدد المحاضرات التي القاها فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز في المعهد العالي ومواعيدها . نفيدكم بان فضيلته ألقى في انتدابه الأول ٣٦ ستا وثلاثين محاضرة في الفقه والحديث في المدة من يوم السبت الموافق ٩/٦/٨٦هـ الى يوم الجمعه الموافق ٧/٧/٨٦هـ. وكان ذلك فيما بين العصر والعشاء واخره يوميا ماعدا أيام الجمع . وقد سبق أن كتبت لكم بيانا بذلك لتوقف تحديد حقه عن المحاضرات عليه ولولا ذلك ماصرفتم له المكافاة . ثم طلبتم مني بتاريخ ٢/١٢/٨٦هـ. ارسال الكتاب الموجه الى فضيلته من سماحة رئيس المعهد وبيان عدد المحاضرات ومواعيدها فارسلت اليكم ذلك وجميع مايتصل بمحاضرات فضيلته بالمعهد أيضا بكتاب رقم ١٠٢ وتاريخ ١/١/٨٧هـ ولو رجعتم الى الوارد الذكر من المعهد لوجدتم ذلك واكتفيتم به .

فآمل التنبيه على المختصين بمراجعة الوارد وتحري ماوجد فيه عند الكتابه الى المعهد مستقبلا . والله يحفظكم .

مدير المعهد العالي للقضاء

عبدالرزاق عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد العزيز بن عبد الله بن باز
المملكة العربية السعودية
الرياض

الرقم : ....
التاريخ : [illegible]
المشفوعات : ....

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي وفقه الله
آمين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته بعده يا محب قد عزمنا هذه الأيام على فتح مكتبة
تجارية في القاهرة بعنوان دار الثقافة الإسلامية ونحن في حاجة إلى قرض بنسبة
ألف ريال ١٠٠٠ لتسديد أجرة محل المكتبة وبعض لوازمها فنرجو منكم قرض
المبلغ المذكور وتسليمه بيد مدير المكتبة الشيخ محمد رشدي مفتي به وصلني وعليه قريب
إن شاء الله تعالى ولكم شكر الله سعيكم والله يتولاكم والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تسلمت أنا عبد الرزاق عفيصان من الأخ الشيخ عبد الرحمن ابن [illegible]
وكيل عن الشيخ عبد العزيز [illegible] ابن ياسين ابن سويدان دار الثقافة حيالة تسديد
المبالغ التي عليه من ثمن [illegible] مبلغا وقدره ٥٠٠٠٠ خمسين
ألف ريال سعودي من أصل مبلغ طرف الشيخ باعتبار
ثمن ملك الدار ~~[illegible]~~ تحريرا ١٩/٦/١٣٨٤هـ

ثم تسلمت الباقي من خمسين الألف أيضا
وصار المبلغ خالصا
عبد الرزاق عفيصان

المقر بما فيه
عبد الرزاق عفيصان

١- وأنه صلاها بأصحابه جماعة ليلتين أو ثلاثاً، ثم امتنع من الخروج إليهم
خشية أن تفرض عليهم، وصار كل يصليها منفرداً
حتى جمعهم عمر على أبي بن كعب وتميم الداري.

[illegible] ويصلي بعدها [illegible]
وبعضهم يصلي ثلاث عشرة ركعة
ومنذ [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرقم ____________

التاريخ ____________

المرفقات ____________

الموضوع ____________

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد: فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على السؤال الوارد لسماحته من معالي رئيس ديوان رئاسة مجلس الوزراء برقم ٥/٢/٦٨٠ وتاريخ ١٠/١/٩٦هـ إلى سماحة الرئيس العام والمحال إليها من الأمانة العامة برقم ١٩٤٥/٢ وتاريخ ٢٣/١/٩٦هـ، والمتضمن أن المدعو رياض أحمد طاهر الباكستاني يلفت نظر المسلمين بصدد الحجاج أن الناس في المملكة يصلون عشرين ركعة تراويح في شهر رمضان، ويقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلي ثمان ركعات تراويح وثلاث ركعات وتراً مدة ثلاثة أيام فقط، ويرغب إفادته عن الصحيح المتبع».

وقد أجابت اللجنة بما يلي:

ثبت عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» رواه البخاري ومسلم. وثبت عن مسروق أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل، فقالت: «سبع وتسع وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر» رواه البخاري في صحيحه، وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة ركعة» يعني من الليل، رواه البخاري في صحيحه، وثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح قال: «قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان» رواه البخاري ومسلم. وثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين، ويوتر بواحدة» رواه الشيخان وأبو داود والنسائي.

من هذا ونحوه من الأحاديث يتبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزد في صلاة الليل على إحدى عشرة ركعة كما في حديث عائشة رضي الله عنها، أو ثلاث عشرة ركعة كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأنه كان ينقص من ذلك أحياناً، وقد استمر العمل على صلاة الليل إحدى عشرة ركعة في خلافة أبي بكر وصدر من خلافة عمر رضي الله عنهما بانفراد، ثم اختلف الفقهاء هل ما زاد في صلاة الليل - التراويح - في شهر رمضان آخر خلافة عمر رضي الله عنه عشرين ركعة سوى الوتر جماعة، أو الذي جد هو [illegible] صلاتها جماعة بعد أن كان المسلمون يصلونها فرادى، أما عدد الركعات فإحدى عشرة ركعة لم يتغير عما كان عليه من قبل.

وسبب اختلافهم في ذلك الاختلاف فيما أمر به عمر رضي الله عنه من عدد ركعات التراويح وما فعل في عهده، فقد روى مالك في الموطأ عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنه قال: «أمر عمر رضي الله عنه أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر». وروى مالك عن يزيد بن رومان أنه قال: «كان الناس يقومون في زمان عمر بن الخطاب في رمضان بثلاث وعشرين ركعة». وترى اللجنة أن صلاتها إحدى عشرة ركعة أفضل، فإنه على تقدير عدم صحة ما روي أنها صليت في عهد عمر رضي الله عنه عشرين أو ثلاثاً وعشرين ركعة فالأمر ظاهر، وعلى تقدير صحة ما روي أنها صليت عشرين أو ثلاثاً وعشرين ركعة في عهد عمر رضي الله عنه فالعمل بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم وعمل به في عهد أبي بكر وصدر من خلافة عمر رضي الله عنهما مقدم على ما حدث بعد باجتهاد، والخطب في هذه المسألة سهل فإنه خلاف في أمر نفل [illegible] في العملية أفضل.

وإن ما جرى عليه العمل بالمملكة العربية السعودية في صلاة التراويح في عصرنا، فبعض الأئمة يصليها بالمساجد جماعة إحدى عشرة ركعة، وبعضهم يصليها بالمساجد جماعة ثلاثاً وعشرين ركعة، عملاً بما ثبت [illegible] ونظرهم [illegible] عهد عمر رضي الله عنه

١- مع وجود مساجد سواء في المدينة وحولها
٢- واحد في البلد الذي [illegible] على المشهور عندهم الا لحاجة
٣- في بعض الجماعات بحرة بني بياضة حول [illegible]
٤- وعند [illegible] المسجد يجوز [illegible] دها مطلقاً [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

جوازاً كاشتراط في مصر واذن [illegible] تنفيذ [illegible] الاذن والشافعي [illegible] الصحيح من المذهب الى حنيفة

[illegible] مسجد بعيد فاكثر [illegible] لا مانع [illegible] الا لجمعة الاولى [illegible]

المملكة العربية السعودية

رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

٥- ولم ينكر فكان اجماعاً،

٦- أو صلاها مع الامام العام،

التاريخ ____________

المرفقات ____________

الموضوع ____________

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء على [illegible]
الشيخ [illegible] المقبول مبعوث الرئاسة في [illegible] الى سماحة الرئيس العام والمحال اليها من الامانة العامة برقم [illegible]
والمتضمن ان بعض المسلمين في [illegible] يصلون الجمعة ثم يصلون الظهر، فما حكم الجمع بينهما [illegible]
وقد اجابت اللجنة بما يلي: [illegible]
ثابت أن الجمعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن تصلى بالمدينة الا في مسجد واحد، وان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يأتون اليه من أطراف المدينة وعوالي [illegible]
[illegible] المصلون مع الجمعة، واستمر العمل على ذلك في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم فلم يثبت ان احداً منهم [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] بل كانوا يقصدونه في المسجد [illegible]
والراشدين رضي الله عنهم بالمدينة في غير المسجد النبوي او في العوالي [illegible] ما هو حول المدينة [illegible] وعند ما وجدت الحاجة تعددت المساجد [illegible]
المنبر لاقامة الجمعة في غير [illegible] الحاجة في ذلك الوقت التي [illegible] في الكتب [illegible] مع اختلاف بينهم في شروطه، ورأى [illegible] كالحنفية
[illegible] مذهب [illegible] والمالكية انه يشترط [illegible] أن تكون في مسجد مع اختلاف بينهم في تفسير المصر، [illegible] على
[illegible] الامصار يقام فيه الحدود وتنفذ فيه احكام [illegible] مع اختلاف بينهم [illegible] المصر [illegible] كل منهما [illegible] الا بحديث
ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم [illegible] لكن لا [illegible] كل من ذلك لما ذهبا [illegible] في المسجد [illegible]
[illegible] المداومة عليه انما يدل على السنية والكمال لا على توقف الصحة على ذلك، بل دل الدليل على صحتها في [illegible] الاحكام
[illegible] اقيمت الجمعة بقرية جواثى بالبحرين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم اليها ولم تكن [illegible] الحدود، ولا تنفذ [illegible] الاحكام
[illegible] شعائر المسلمين [illegible] فدل ذلك على انه لا يشترط المصر
[illegible] لجمع الكلمة، واشعاراً بالوحدة [illegible]
ولا المسجد لصحة صلاة الجمعة [illegible] لكن لما [illegible] الحاجة تدعو الى ذلك [illegible] اطراف البلد، أو [illegible] المسجد [illegible]
ويرى جمهور العلماء انه لا يجوز تعددها في البلد الواحد الا لحاجة تدعو الى ذلك [illegible] فيجوز تعددها بقدر الحاجة، دفعاً للمشقة ورفعاً للحرج [illegible]
أو وجود خصومة بينهم [illegible] فيجوز [illegible] في المسجد [illegible] ولا [illegible]
قال الله تعالى: «لا يكلف الله نفساً الا وسعها» وقال: «وما جعل عليكم في الدين من حرج» [illegible]
وعلى هذا [illegible] ان الجمعة اذا اقيمت في غير المصر وفنائه كانت باطلة عند الحنفية، وعلى من صلاها ان يصلي الظهر [illegible] ما دام الوقت [illegible]
وان من صلاها في غير مسجد ولو متحدة في مصر بطلت جمعته عند المالكية، ووجب عليه [illegible] في مصر [illegible]
مع استيفاء بقية شروطها والا صلاها ظهراً، وأنها اذا [illegible] في مسجد [illegible] مساجد متعددة [illegible]
[illegible] في الجامع العتيق أو مسجد [illegible] وبطلت على غيره، وعند [illegible] بالتساوي [illegible]
جمهور الفقهاء [illegible] ان يصلي ظهراً، فان اقيمت في مسجد جماعة [illegible] متعدد به أو
الى الجميع، ويجب على [illegible] بطلت جمعته [illegible] ان يصلي ظهراً [illegible] رابعة أو في
[illegible] تدعو الى ذلك مع استيفائها باقي شروطها صحت جمعة الجميع.
تعدد [illegible] انما هو فقد شرط صحة الجمعة في مذهب من قلده،
وربما يعرف [illegible] في صلاة بعضهم الظهر بعد ان صلى الجمعة
مع تقاعد الجميع [illegible] على المسلمين في كل يوم وليلة الا خمس صلوات.
ومن تقدم [illegible] المصر [illegible] الدليل على اشتراطه، وان المنع من
تعددها في البلد الواحد الا لحاجة يتفق مع ما كان عليه العمل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، كما
يتفق مع الكتابة التي [illegible] شرعت الجمعة، لكن [illegible] ما يدل على ذلك [illegible] تعددها في البلد الواحد الا لحاجة.
وعلى هذا فالصواب أن من صلى الجمعة في المسجد الذي [illegible] المتعدد في البلد لغير حاجة فصلاته صحيحة [illegible]
[illegible] يصلي الظهر بعد صلاة الجمعة. وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على نبينا محمد [illegible]
١- والمشعر الحرام [illegible]
٢- كما [illegible]
٣- في الجاهلية [illegible]

الموضوع: الوقوف بعرفة، والنزول بالمزدلفة

قال الله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام، واذكروه كما هداكم، وإن كنتم من قبله لمن الضالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾.

أفضتم من عرفات - دفعتم منها بكثرة في السير منها إلى المزدلفة ◦ المشعر الحرام - المزدلفة [illegible] سميت بذلك لأنها داخل الحرم ◦ من حيث أفاض الناس - المراد إبراهيم الخليل أو إمام المسلمين أو العرب ما عدا قريشاً.

ثبت أن قريشاً غيرت العمل في مواقف الحج، فمن ذلك أنهم كانوا يقفون بالمزدلفة دون عرفات ويقولون نحن أهل الله وقطان بيته الحرام، وكان سائر العرب وجمهورهم يقفون بعرفات ثم [illegible] إلى المزدلفة، فلما جاء الإسلام أمر الله جل شأنه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقفوا بعرفات ثم يدفعوا منها إلى المزدلفة ليذكروا الله بها عند المشعر الحرام. روى البخاري في صحيحه من طريق [illegible] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿من حيث أفاض الناس﴾. وفي ذلك إبطال لما كان من تغيير أهل الجاهلية وتبديلهم للمناسك، وتنبيه على [illegible] على شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبيان من الله لعباده أن العبادات توقيفية، وأن [illegible] في أصل العمل [illegible] على الوحي من الله لا على آراء الناس وما يرتضونه بعقولهم، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وفي هاتين الآيتين إثبات لأصل الوقوف بعرفة والنزول بالمزدلفة [illegible] وبيان للترتيب بينهما، لكن فيهما إجمال بالنسبة لزمن كل منهما وتقديره، وما يتعبد به الحاج فيهما وبيان صفته، وهذا هو الشأن في القرآن، ينزل الله فيه أصول الأحكام [illegible]: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ وقوله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما...﴾ الآية، وقوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وقوله: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾، وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بالبلاغ والبيان، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾.

فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله زمنهما وما يفعل فيهما من ذكر وعبادة وشرع للناس في ذلك في حجة الوداع، وقال لأصحابه: «خذوا عني مناسككم»، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم مكث بمنى يوم [illegible] حتى طلعت الشمس [illegible] بالحجة [illegible] والتشريق [illegible] تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء [illegible]

١

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرقم ــــــ [illegible]
التاريخ ــــــ [illegible]
المرفقات ــــــ [illegible]
الموضوع

[illegible] الوادي فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا [illegible] ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، وذكر [illegible] بالنساء، ثم أذن المؤذن ثم أقام فصلى الظهر بالناس ركعتين [illegible] ثم أقام وصلى العصر ركعتين [illegible] جمع بينهما جمع تقديم، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب [illegible] الموقف [illegible] فوقف [illegible] وقال وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف، ثم استقبل القبلة [illegible] ولم يزل [illegible] حتى غربت الشمس، ولم يصل [illegible] أفاض إلى المزدلفة، وأخذ [illegible] فإذا [illegible] الطريق [illegible] السكينة السكينة) ونزل بالطريق [illegible] وضوءاً خفيفاً وقيل له [illegible] فقال الصلاة أمامك، واستمر في سيره حتى أتى المزدلفة فنزل بها [illegible] المغرب والعشاء [illegible] ولم يصل بينهما نافلة، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، وصلى الفجر [illegible] إلى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة ودعا الله وكبره وهلله ووحده، ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ثم دفع قبل أن تطلع الشمس حتى أتى بطن محسر [illegible] حتى جاوزه ثم تابع السير حتى أتى جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات بعد طلوع الشمس يكبر مع كل حصاة.

هذا [illegible] ينبغي أن يكون [illegible] المزدلفة [illegible] إلى منى، وقد [illegible] بعرفة [illegible] بعد الوقوف [illegible] فذهب الجمهور إلى أنه يجزئ الوقوف في ساعة [illegible] بعد الزوال من يوم عرفة، وذهب طائفة [illegible] الوقوف في ساعة [illegible] بعرفة أو ليلة النحر لحديث عروة بن مضرس الطائي قال: قلت يا رسول الله [illegible] أكللت مطيتي وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه [illegible] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] صلاتنا هذه [illegible] وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه [illegible] ليلة النحر [illegible] بالمزدلفة ليلة النحر [illegible] بعد صلاة [illegible] بعرفة [illegible] تام [illegible] بعد الفجر [illegible] أنه يؤدي [illegible] الصفة التي كانت [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] المعنى [illegible] بعرفة [illegible] ليلة النحر [illegible] بعرفة بعد الزوال [illegible] وليبيت بمزدلفة [illegible] المغرب [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] للمسلم أن يتساهل في عبادته [illegible] أنه [illegible] [illegible] الكمال ما استطاع [illegible]

١ب - عبد نقل الحجارة
ب ١

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرقم ________
التاريخ ________
المرفقات ________

١٧

الموضوع: بناء البيت الحرام وجعله مثابة للناس وأمنا في البلد الأمين

إن الله تعالى اختار [illegible] البيت [illegible] أمر الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يبني الكعبة المشرفة لتكون قبلة للناس، يستقبلونها في صلواتهم ودعائهم، ويحج به الناس ويطوفون حولها، وأعلمه المكان الذي يقيم بناءها فيه بما شاء من الدلالات والعلامات، فذهب إبراهيم من الشام إلى مكة المكرمة حيث يقيم ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء وضعف إبراهيم [illegible] جاء إسماعيل بحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم»، فاستجاب الله دعاءهما وأراهما مناسك الحج، وأمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج فقصدوا البيت [illegible] وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم [illegible]

كما عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام [بناء البيت] أن يطهرا بيته من كل رجس معنوي وحسي [illegible] الأصنام [illegible] والأزلام والاستقسام بها وكل ما فيه شائبة من شوائب الشرك بالله [illegible] ومن الأنداد والأوثان [illegible] الأصوات [illegible] النفوس الطاهرة والفطر السليمة، تعظيما لحرمات الله [illegible] إخلاصا للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأجمع لقلوبهم على عبادة الله وحده وإخلاصهم له دون من سواه.

اتفق العلماء على أن الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة، لقوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا»، واختلفوا في أول من بناها، فذكر ابن كثير عن أبي جعفر الباقر [illegible] عن علي بن الحسين أن أول من بناه الملائكة قبل آدم، وروي عن عبد الرزاق عن ابن جريج [illegible] وسعيد بن المسيب أن آدم بناه من خمسة أجبل ثم بعدها [illegible] وروي عن ابن عباس وكعب الأحبار [illegible] أن أول من بناها شيث [illegible] فضل المسجد والناس [illegible] ذلك فإن هذا الاختلاف مما لا ينبني عليه [illegible] وشغل البال في زيادة الأخبار [illegible] وإنما الذي لا شك فيه ظاهر ما ثبت [illegible] أن أول من بناه [illegible] إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

مص ١- فالصواب ... ٢- ... آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا

بسم الله الرحمن الرحيم ٣- فعلم كان يلحق ... [illegible]

الرقم ____________

التاريخ ____________

المرفقات ____________

الموضوع ____________

جعل الله سبحانه للبيت الحرام مزايا كثيرة فجعله مباركاً كثير الخير في الدين والدنيا فيضاعف ثواب الأعمال الصالحة فيه والقصد إليه لأداء النسك أو التعبد به، وتعرف النفوس الطيبة [illegible] الرايا والعوائد الكرم [illegible] رباية لو تعظيما لحرماته وحصنا للوفود إليه للحج والعمرة، واستجابة دعوة خليله إبراهيم فيه فجعل أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في الحرم ورزقهم من الثمرات وقضى أن يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، وفضلاً منه ورحمة بسكان بلده الحرام ومن يفد إليه تعظيما للبيت [illegible] فيهم رسولاً منهم إلى الناس كافة وخصه به [illegible] وسلامه عليهم أجمعين، قال [illegible] دعوة أبي إبراهيم، وجعل البلد الحرام [illegible] من قصده محتسباً وأدى المناسك كما شرع كان آمنا من عذاب الله لقوله صلى الله عليه وسلم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» وقوله: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [illegible] ومن دخله كان آمنا من التشفي والانتقام مما كان [illegible] فيمن [illegible] من ترك [illegible] القتل والقتال [illegible] القصاص ونحوه وفيما [illegible] في الحرم، قال تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ [illegible] حرم الصيد فيه وأن تقطع [illegible] [illegible] هذا [illegible]

[illegible] البيت وأنه [illegible] للعبادة [illegible] إبراهيم [illegible] الذي بناه [illegible] من أهل الكتاب [illegible] تفضيل إبراهيم عليه الصلاة والسلام [illegible] للحج [illegible] فكيف يزعمون أنهم أولى بإبراهيم [illegible] ولا يفعلون ما شرع [illegible] المناسبة بين هاتين الآيتين وقوله تعالى [illegible]

[illegible]

- وليست أشهر الحج كاملة [illegible] الله [illegible] بسم الله الرحمن الرحيم [illegible] تعالى [illegible]
[illegible] مواقيت [illegible]

[illegible] ذلك [illegible] التاريخ
فرعون [illegible] أفضل [illegible]
[illegible] المسجد الحرام »

مواقيت الحج

ذكر الله سبحانه مواقيت الحج الزمانية في قوله: « الحج أشهر معلومات »، ومعناه أشهر الحج أشهر معلومات من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم استمر شرع الحج فيها حتى أقر ذلك في شريعة خاتم المرسلين [illegible] وهي تبدأ بأول ليلة من شوال باتفاق العلماء، وتنتهي بآخر يوم من ذي الحجة، لأن ذلك هو المتبادر من لفظ [illegible]، لكونه أقل الجمع [illegible]، أو تنتهي بآخر يوم النحر لأنه لا يصح الإحرام بالحج بعده، [illegible] وقد مضى معظم الحج، أو تنتهي بالعاشر منه [illegible] بالطواف والرمي [illegible]، أو تنتهي بآخر أيام التشريق [illegible] الطواف والرمي [illegible].

وأما [illegible] الإحرام [illegible] الزماني، واتفق العلماء على [illegible] فلا يصح الإحرام به قبل [illegible] فإن أحرم [illegible] حجا بل عمرة، كما لا يصح [illegible] الذي حدد [illegible] وقد قال [illegible] جمهور العلماء: يصح وينعقد حجا لقوله تعالى [illegible]: « [illegible] مواقيت [illegible] » غير أنه لا يكره [illegible] السنة [illegible]، وأيا ما كان فإنه ينبغي للمسلم أن يتحرى الصواب في عباداته، وأن يؤدي [illegible] احتياطا لدينه وبراءة لذمته.

ثم حذر سبحانه حجاج بيته الحرام من الآفات التي تحبط أعمالهم وتذهب بأجورهم فقال تعالى: « فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » فعلى من أحرم بالحج والتزمه [illegible] أن يصون لسانه ويضبط جوارحه عما يفسد عليه [illegible] من الرفث والفسوق والجدال في الحج، أما الرفث فالجماع ودواعيه، وفحش القول، والكلام فيما يتصل بالجماع ووسائله، ولذا حرم النبي صلى الله عليه وسلم على المحرم أن يخطب امرأة لنفسه [illegible]
[illegible]
[illegible] يتوفر [illegible] هذه العبادة [illegible]
[illegible]
[illegible] الصيد [illegible] وأما الجدال في الحج
فالمراد به هنا اللدد في الخصومة، [illegible] تحريم الجدال
[illegible]
[illegible] يوم [illegible] يوم [illegible]
[illegible]
[illegible] العاشر [illegible] تحريم الجدال [illegible]
[illegible]

١- لما يحصل أهل التوحيد [illegible] ص ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] بالبيت [illegible] والسعي [illegible]

[illegible] الصفا [illegible] الرقم [illegible]

[illegible] التاريخ [illegible]

المرفقات

المملكة العربية السعودية

رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الموضوع

ومنها امتزاج محبة البيت الحرام وأعمال الحج بأرواحهم ورسوخ [illegible] المؤمنين [illegible]

حتى إنهم لا يكادون يصلون إلى بلادهم، ويأنسون بأهليهم إلا وقد ثارت أشواقهم إلى

البيت الحرام، وهاجت نفوسهم شوقاً إليه، ورأوا أنهم لم يقضوا منه الوطر، ورجوا من ربهم

أن ييسر لهم العودة إليه، وأن يوفقهم لزيارته المرة بعد المرة، وهذا مصداق قوله تعالى:

((وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً))

ومنها أنه يتيح للحجاج من جميع أقطار المعمورة [illegible] ولاسيما [illegible] أولو الأمر [illegible] وأهل

العلم والرأي أن يعقدوا المؤتمرات، ويعرضوا مشاكل العالم الإسلامي [illegible] ويعملوا أفكارهم

في إيجاد الحلول الناجحة لها، ويبذلوا [illegible] في [illegible] على ضوء الكتاب

والسنة مع المشورة والاشتراك في الرأي [illegible] على طريقة التنفيذ حتى إذا

عاد كل منهم إلى دولته بعد أداء نسكه [illegible] مع أولي الأمر

في تنفيذه [illegible] أوضاعهم وأحوالهم [illegible] فبذلك

[illegible] الكلمة [illegible] وتعود الروابط [illegible]

متقاربة القلوب [illegible] الشمل [illegible] كما هي في جميع مواقفها

[illegible] وما كان [illegible] أسلافها [illegible]

[illegible] في نفوس [illegible]

[illegible] في سبيل ما [illegible]

وغير ذلك من أنواع [illegible]

ومنها أن مشاهد الحجاج في إحرامهم وسيرهم إلى المشاعر [illegible] لأداء المناسك [illegible]

بمظهر الخلق يوم البعث والنشور [illegible] وذكرى [illegible]

[illegible]

[illegible] قال تعالى: ((وأتموا الحج والعمرة لله)) [illegible]

[illegible]

[illegible] رواه [illegible] الترمذي [illegible] ولذلك قال [illegible] الصحابة والتابعين [illegible]

[illegible] وقال [illegible]

[illegible] وقد ورد ما [illegible] الأمر [illegible]

[illegible] فينبغي للمسلم [illegible]

وأما [illegible] فقد [illegible] العمرة [illegible]

[illegible] قال [illegible]

من أرشيف[١٩] الجماعة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرقم ....
التاريخ ....
المرفقات ....

الموضوع : ....

من عبد الرزاق عفيفي إلى الأخ الكريم الأستاذ محمد صفوت نور الدين
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فأبارك لك في هذا المنصب تولي جماعة أنصار
السنة المحمدية وأرجو الله أن يوفقك للقيام بواجبه وأن يسدد خطاك في نشر
التوحيد وأن يصحح بالتزام الكتاب الكريم والسنة المحمدية تحقيقاً لمعنى الجماعة
وأن يسعدك ويؤيدك بفضله وتوفيقه إنه سميع مجيب الدعاء
أسأل الله أن ينفع بك الجماعة وينفعك بهم فهو نصير للحق جل شأنه وتعالى مجده
وأبلغ سلامي لجميع الأعضاء وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم. أخوك في الله
عبد الرزاق عفيفي

---

(١) جماعة أنصار السنة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرقم : ....
التاريخ : ....
المرفقات : ....

الموضوع : تقرير مختصر عن كتاب فقه السنه للسيد سابق

شوال ١٣٩٨/٩/٢١هـ

سماحة الرئيس العام لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :-

فبناء على رغبة سماحتك فى ابداء رايى فى كتاب فقه السنة لفضيلة الشيخ سيد سابق كتبت مايلى :

اولا : الكتاب المذكور سهل العبارة ، يتحرى مؤلفه فيه الحق ، ويقيم الدليل عليه من الكتاب والسنة او من احدهما ، واختياره فى المسائل الخلافية يكون فى الغالب حسنا وجيها .

ثانيا : الكتاب مؤلف فى الفروع الفقهية ، وخال من البدع والخرافات - فيما اعلم - وقد استقى مؤلفه مادته فيه من زاد المعاد للامام ابن القيم ، وشرح الشوكانى لمنتقى الاخبار ، وكتاب الدين الخالص للشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية للعمل بالكتاب والسنة المحمدية رحمهم الله تعالى .

ثالثا : مؤلف الكتاب من علماء الازهر ، وهو محب للسنة ، وطريقته فى التوحيد طريقة الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية ، وهم يلتزمون مذهب الاشعرية فى توحيد الاسماء والصفات فيؤلونها او يفوضون فيها ، ولكن كتاب فقه السنه فى الفروع الفقهية .

رابعا : على هذا الكتاب اقبال من الشبان لبسره وسهولة فهمه وبعده عن الحشو والتعقيد واشتماله على الادلة باختصار .

والله الموفق ، وصلى الله على نبينا محمد واله وصحبه وسلم .

نائب رئيس اللجنة
الدائمة للبحوث العلمية والافتاء

عبد الرزاق عفيفي



مصادر الترجمة

مما اعتمدت عليه في ترجمة الشيخ عليه رحمة الله بعض الصحف والمجلات والمقالات ومنها:

(١) أيام من حياة الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي، بقلم بخاري أحمد عبده.

(٢) ترجمة لحياة الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي، بقلم عبد الفتاح السيد الصروي.

(٣) صحيفة الجزيرة عدد الأحد ٢٨، وعدد الاثنين ٢٩ من شهر ربيع الأول، وعدد السبت ١٢ من شهر ربيع الآخر من عام ١٤١٥هـ .

(٤) صحيفة الرياض عدد الثلاثاء غرة ربيع الآخرة من عام ١٤١٥ هـ وعدد ٩٥٧٣.

(٥) صحيفة المسلمون عدد ٥٠١ ـ ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٦)صحيفة السيل عدد ٤٦.

(٧) صحيفة عكاظ عدد ٢٥٤.

(٨) صحيفة الندوة عدد ١٨٨٣.

(٩) صحيفة المدينة عدد اليوم الرابع من ربيع الآخرة ١٤١٥هـ.

(١٠) في المرآة والمشكاة، ترجمة عن حياة الشيخ عبد الرزاق بقلم يوسف بن عبد الرحمن الضبع.

(١١) مجلة التوحيد العدد الخامس والسابع وعدد شهر ربيع الثاني ١٤١٥هـ

(١٢) مجلة الدعوة عدد ١٤٥٨ ـ ١٤٦٠ ـ ١٤٦١ ـ ١٤٦٣.

(١٣) مجلة الفرقان عدد ٥٤.

(١٤) مجلة الفيصل عدد ٢١٥.

(١٥) مجلة المجتمع عدد ١١١٩.

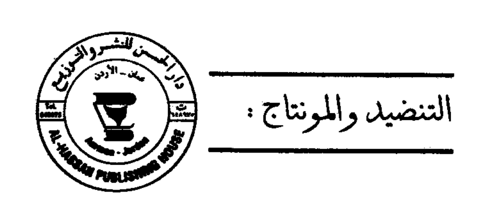
(١٦) مجلة اليمامة عدد ١٣٢٨

(١٧) المجلة العربية.

* * * * *

فهرس الموضوعات




التنضيد والمونتاج :
دار الحسن للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
AL-HASSAN PUBLISHING HOUSE

طبع في بيروت